

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (693هـ-741هـ) في أدب العصر المملوكي الأول

إعداد
منال أحمد خليل أبو بكر

إشراف
د. رائد مصطفى عبد الرحيم

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية
بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

2012م

صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (693هـ-741هـ) في أدب العصر المملوكي الأول

إعداد

منال أحمد خليل أبو بكر

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2012/12/3م، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة:

التوقيع

.....

1. د. رائد عبد الرحيم / مشرفاً ورئيساً

.....

2. د. مشهور حبّازي / ممتحناً خارجياً

.....

3. د. عبد الخالق عيسى / ممتحناً داخلياً

الإهداء

إلى مَنْ تعجزُ كلماتي أمام عطائه ، وأقفُ حائرةً لا أستطيع التعبير: زوجي العزيز الغالي "محمود" ، أدامه الله وأبقاه تاجاً فوق رأسي.

إلى قلبي الذي ينبض ، ابني الحبيب "يزن" ، وفَّقك الله ، وأنار دربك بالإيمان.

إلى زهرات عُمري ، وَمَنْ أشتُمُ فيهنَّ رائحة الحنان ، بناتي العزيزات ، أفخرِيكُنَّ ، "هلدا ، ونسمة ، وديالا ، وليندا ، وإسلام" ، حَفَظَكُنَّ الله ، وأسَدَلَ عَلَيْكُنَّ غِطاء ستره ، وجعلَكُنَّ من الصالحات.

إلى والدي ووالدتي ، أدامكما الله وأبقاكم ، وأدامَ عليَّ دُعاءكم ، فلولاً رِضاكما لما وصلتُ إلى هذه الدرجة.

إلى إخوتي الأعزَّاء الغوالي وزوجاتهم ، حفظكم الله وأبقاكم سنداً لي ، ورفَع شأنكم ، وأنارَ دروبكم بنوره.

إلى أهل زوجي الأعزَّاء ، أبقاهم الله وأدامهم.

إلى كُلِّ مَنْ حولي ، وَمَنْ ساعدني ولو بكلمة ، أثابهم الله ، ويسرَّ طريقهم.

الشُّكْرُ وَالنَّقْدِيرُ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١)

(سورة سبأ، آية 1)

بعد أن أنهيتُ هذا العمل بحمد الله تعالى ، أجدُ من واجب الوفاء ، والاعتراف بالفضل أن أتقدّم بالشُّكر والتّقدير والامتنان إلى أستاذي الدكتور رائد مصطفى عبد الرحيم ، الذي أشرفَ على رسالتي ، ومنَّ عليَّ بالمتابعة والإرشاد ولم يَخُلْ بعلمه ووقته وجُهدِه ، ولولاه لما رأى هذا البحث النور.

وأَتَقَدَّم بالشكر الجزيل إلى أساتذتي الذين تفضّلوا بمناقشة هذا البحث.

ولن أنسى أن أتوجّه بالشكر الجزيل والامتنان ، لابنتي "هَلْدَا" التي ساعدتني في الطباعة ، أثابها الله ، وأعطاهَا الصّحّة والعافية.

وأشكر مُوظفِي مكتبة جامعة النجاح الوطنية ، قسم المراجع والمصادر "وبخاصة أبو مازن" ، الذي كان بالفعل لا يتوانى في مساعدتي وإرشادي أثابه الله وأعطاه الصّحّة والعافية.

والشكر لله الموفِّق ، ،

منال أحمد أبو بكر

الإقرار

أنا الموقعة أدناه مقدمة الرسالة التي تحمل عنوان:

صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (693هـ-741هـ) في أدب العصر المملوكي الأول

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة علمية أو بحث علمي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Students name:

اسم الطالبة:

Signature:

التوقيع:

Date:

التاريخ:

فَهْرَس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ج	الإهداء
د	الشكر والتقدير
هـ	الإقرار
و	فهرس المحتويات
ح	الملخص
1	المقدمة
5	التمهيد: السلطان الناصر محمد بن قلاوون وظروف الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عهده
8	الحياة السياسية في عهده
16	الحياة الاجتماعية
20	الحياة الثقافية
29	الفصل الأول: الصورة الإيجابية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون
30	أولاً: الإشادة بأسرة آل قلاوون.
38	ثانياً: شجاعته.
50	ثالثاً: هيئته بين الملوك وأمراء الدول المجاورة.
58	رابعاً: صورته الدينية.
74	خامساً: محبة الناس له.
86	سادساً: ذكاؤه وحسن رأيه.
90	سابعاً: كرمه.
98	ثامناً: عدله.
104	تاسعاً: صورته الإدارية.
104	1- الإصلاحات في عهده.
109	2- مراقبة الأمراء وعمال الدولة.
112	3- السلطان وأهل الذمة.
121	الفصل الثاني: الصورة السلبية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون
122	أولاً: البطش والظلم

الصفحة	الموضوع
138	ثانياً: شكّه الدائم وعدم ثقته بأحد
144	ثالثاً: حبّ المال.
146	رابعاً: السلطان والمرأة.
151	الفصل الثالث: الدراسة الفنية
152	أولاً: بنية العمل الأدبي
170	ثانياً: اللغة الشعرية
178	ثالثاً: الأساليب
227	رابعاً: الصنعة البديعية
239	خامساً: الصورة الفنية
248	الخاتمة
252	قائمة المصادر والمراجع
b	Abstract

صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون
(693هـ-741هـ) في أدب العصر المملوكي الأول

إعداد

منال أحمد خليل أبو بكر

إشراف

د. رائد مصطفى عبد الرحيم

المُلخَص

تناولت هذه الدراسة موضوع "صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (693-741هـ) في أدب العصر المملوكي الأول، وقد نبعت أهمية هذه الدراسة من الدور الهام الذي لعبه هذا السلطان في المحافظة على بلاد المسلمين خلال مرحلة حاسمة في التاريخ الإسلامي، حيث تغلب على قوة كبيرة، طالما عانى المسلمون من قهرها وظلمها واستبدادها وتسلطها على المسلمين وبلادهم، فجاء الناصر محمد وهزم هذه القوة في معركة مرج الصفر التي سجلها التاريخ، وتمتع المسلمون بعدها بالأمن والأمان حقبة طويلة من الزمن.

وقد دفعتني رغبتني في دراسة الأدب، واستمتاعي بأشعار تلك الحقبة الزمنية ونثرها للبحث عن موضوع أدبي يستحق الدراسة، فوجهني أستاذي لهذا العنوان وبدأت أجمع المراجع والمصادر، وأحصي الأدب شعره ونثره، حتى وقع بين يدي مجموعة أدبية يمكن من خلالها حصر صورة السلطان محمد بن قلاوون واستخراجها.

ووجدت عدداً لا يُستهانُ به من الدراسات السابقة حول هذه الحقبة شعرها ونثرها، لكنها لا تتناول صورة الناصر محمد بن قلاوون بشكل خاص على الرغم من أهميته وأثره، فجاءت هذه الدراسة لتكشف عن هذه الشخصية، وتستنبط الإيجابية والسلبية من خلال الأدب، وقد اعتمدت في إتمام هذه الدراسة على المنهج التكاملي.

وتبيّن من خلال دراستي أن أدباء العصر المملوكي، تابعوا السلطان الناصر محمد بن قلاوون في حله وترحاله، وصوّروه في أمنه وحربه، وفي سُروره وحُزنه، وفي حياته وبعد مماته، راسمين له صورتين، واحدة إيجابية وثانية سلبية.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم انصرنا ولا تنصر علينا، وامكر لنا ولا تمكر علينا، واهدنا ويسر الهدى لنا، اللهم اجعلنا لك شاكرين، ولك ذاكرين، وإليك راغبين... وبعد؛

تتناول هذه الدراسة شخصية إسلامية فذة، استلمت الحكم في فترة عصيبة، واستطاعت تثبيت نفسها، وتدعيم حكمها، وفرض قوتها وهبتها في الداخل والخارج، وعلى الرغم من كثرة المؤامرات والانقلابات، إلا أنها تغلبت بحكمة وذكاء، وشجاعة على كل ذلك، كيف لا؟ وهي تنتمي لآل قلاوون الذين عرفوا بالقوة والشجاعة والثبات.

استلم آل قلاوون الحكم، بدءاً بالمنصور قلاوون، وأولاده من بعده، كان منهم ابنه الناصر محمد بن قلاوون محور هذه الدراسة، هذا القائد الذي استطاع الوقوف والتصدي لهجمات المغول على البلاد الإسلامية منذ توليه الحكم، وعلى الرغم من هزيمته وجنوده في أول لقاء له مع الأعداء وعودتهم مدحورين، إلا أنه استطاع لم شمل الأمة، وإعادة تنظيم الجيش وإعداده بما يحتاج من عدّة وعتاد، إضافة إلى رفع معنويات الجميع، والعودة ثانيةً لملاقاة المغول سنة 702هـ، في معركة مرج الصفر، التي كانت من أعظم الوقعات بين المسلمين والمغول، حيث استطاع الجيش الإسلامي تحقيق النصر تحت قيادته، فكانت هذه الخطوة الأولى والمهمة في بروز هذه الشخصية في الساحة الإسلامية، واتّجاه أنظار المسلمين نحوها.

وكان الناصر سلطاناً يستحق أن تتوجه الأنظار إليه، وتراقب مدّة حكمه، وكثرة التقلبات السياسية والاجتماعية في تلك الحقبة، حيث اقتربت من نصف قرن من الزمان من سنة (693هـ-741هـ)، واقترن العصر المملوكي الأول كثيراً باسمه.

وقد واكب الأدب في تلك الحقبة، شعراً ونثراً أعمال هذا السلطان في حربه وسلمه، فكان موسوعةً تاريخيةً صادقة، تتفق كلماتها مع كتب التاريخ التي أرخت لتلك الحقبة.

ولم يقف الأدباء صامتين سواء في الحرب، أم في السلم، ففي الحرب تصدّى الأدباء، ولا سيّما الشعراء، لمواجهة الأعداء ومقاومتهم بالكلمة الموحية المعبّرة المؤثرة؛ لكي يبعثوا في نفوس أبطال الأمة، وفي نفوس المسلمين روح الجهاد، ويستثيروا همّهم لمواجهة الغزاة، والتفوا حول الناصر محمد بن قلاوون، يتتبعون خطاه في أدبهم، ويرسمون شخصيته في جوانبها المختلفة، فكانت المادّة الأدبيّة التي صوّرت حرب السلطان ومواجهته الزحف المغولي غزيرة جدّاً، ظهرت فيها صورة السلطان الإيجابية، وكانت الشجاعة والإقدام في مقدّمتها، إضافة إلى العدل والكرم، معبرين عن حبّهم وحبّ الناس جميعاً لهذا السلطان القائد.

وبعد استقرار السلطان في حكمه وسلطته، ظلّ الأدب متابعاً له، مُصوّراً حاجة الناس إليه، وتطلّعهم الدائم إلى عودته سالماً بعد تكرار عزله وعودته إلى أن استقرّ في حكمه بدعّم الرعية والجيش الذي يمثّل قوّة الرعية، فوقف الأدباء يمدحون هذا السلطان العظيم، معبرين عن حاجة البلاد له، وخضوعها طائعة تحت سلطته، التي استقرّت ومهّدت له طريقها بعد سنة 709هـ إلى أن توفي سنة 741هـ، حيث استمر في مركز السلطة والنفوذ زهاء إحدى وثلاثين عاماً.

ومن الطبيعي أن تظهر للسلطان بعض الأعمال والصّور التي لا تُرضي العوام، ووقف عليها الأدب شعراً ونثراً ونقدّها، مُظهرّاً الصورة الإيجابية للسلطان، والجانب السلبي من شخصيته.

والحق أنّ الفضل في فكرة هذا البحث تعود لأستاذي الدكتور رائد مصطفى عبد الرحيم، الذي توجّهت إليه طالبةً عنواناً لرسالتي بعد وقوعي في حيرة، ورغبتني في موضوع أدبي ذي قيمة، فعرض عليّ هذا الموضوع وشجّعني لدراسته، فبدأتُ بقراءة المراجع والمصادر والتقصيل والبحث حول الموضوع، وساعدني أستاذي في إمدادي بأسماء بعض المراجع والمصادر الموجودة في الجامعة الأردنية، وتوجّهت إلى الجامعة، وأحضرتُ ما احتجّتُ إليه من المراجع، وقُمتُ بعملية إحصاء الأدب شعراً ونثراً، واستخراجه من مصادره، ثم قرأتُ المصادر والمراجع

التاريخية التي تحدّثت عن تلك الحقبة، ولم أترك مصدراً أو مرجعاً تطاله يداي إلا وبحثت فيه، واستخرجت ما يلزمني منه.

ومن الجدير بالذكر، أنّ ثمة دراسات ومؤلفات أكاديمية وغير أكاديمية نهضت لدراسة الأدب في العصر المملوكي الأول شعراً ونثراً، تعرّضت للحديث عن حقبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ومن هذه الدراسات: "أدب العصر المملوكي الأول"، فوزي محمد أمين، و"الأدب في العصر المملوكي" للدكتور محمد زغلول سلام، و"أدب الدول المتتابعة"، لعمر موسى باشا، و"الأدب في العصر المملوكي"، لمحمد كامل الفقّي، و"أدب الصنّاع وأرباب الحرف، حتى القرن العاشر الهجري"، لمحمود سالم محمد، و"الشعر العربي أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان"، لخالد إبراهيم يوسف و"أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري"، لمأمون فريز جرار.

ومن الرسائل الجامعية التي تناولت دراسة الأدب في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، رسالة ماجستير بعنوان "صورة المغول في الشعر العربي-العصر المملوكي"، إعداد رائد مصطفى عبد الرحيم، و"صدى الغزو المغولي في النثر الفني العربي من القرن السابع الهجري حتى أوائل القرن التاسع الهجري"، رسالة ماجستير، إعداد ذكريات سليمان موسى الحمارة، و"النثر الفني في العصر المملوكي الأول"، رسالة ماجستير، إعداد جلال يوسف حسن العطاري، وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسات، إلا أنها لم تتناول شخصية الناصر في الأدب من جوانبها المختلفة، ومن هنا عقدت العزم على دراسة صورته في أدب تلك الحقبة متبعةً المنهج التكاملي في فهم النص الأدبي ودراسته.

ولا بدّ من ذكر أنّ هذا البحث تناول الشعر والنثر، حيث شرعت في جمع المادّة، واستقصائها من مظانّها المختلفة، ثمّ طفقت أدّرسها وأحلّلها، ثمّ أُنصّفها حسب ترتيب فصول الدراسة، وكان التاريخ حاضراً إلى جانب الأدب في كلّ خطوة، حيث تؤكد الأخبار التاريخية والأحداث المدوّنة ما جاء به الأدب من صور لشخصية الناصر محمد بن قلاوون، والأحداث والأحوال الاجتماعية والسياسية والثقافية في عصره.

وقد بنيتُ هذه الدراسة على تمهيد، وثلاثة فصولٍ، وخاتمة، خصّص التمهيد للحديث عن ظروف الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

وتحدّثت في الفصل الأول عن صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الإيجابية، مُستنبطاً هذه الصورة من الأدب الذي تناول شخصه، فوجدتُ الأدباء قد أشادوا به وبنسبه، وأبرزوا الجوانب الإيجابية له.

أمّا الفصل الثاني، فقد تناولتُ فيه الجانب الآخر من شخصية السلطان، أي الصورة السلبية التي ظهرت في الأدب شعراً ونثراً، وقامَ البحث باستنباط هذه الصورة من خلال الأدب الذي صرّح عنها حيناً، وألمح إليها أحياناً أُخرى، فكانت الأحداث التاريخية تساندُ في استجلاء الصورة ثمّ تحليلها.

ونهض الفصل الثالث بدراسة الجانب الفني للأدب الذي صورَ الناصر محمداً، من حيث بنية العمل الأدبي، واللغة والأسلوب، والصنعة البديعية، والصورة.

وتنتهي الدراسة بخاتمة، أجمَلتُ فيها أهمّ النتائج التي توصّل إليها البحث.

وأتمنى أن تتبّع هذه الدراسة دراسات أُخرى تستكمل ما بدأتُ به.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

التمهيد

التعريف بالملك الناصر محمد بن قلاوون
وجوانب الحياة السياسية والاجتماعية
والثقافية في عهده

التمهيد

التعريف بالملك الناصر محمد بن قلاوون وجوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عهده

هُوَ السلطان محمد الأعظم، الملك الناصر، ابن السلطان الملك المنصور، سيف الدين الصالح، من أعظم ملوك الأتراك⁽¹⁾.

بدأ نجمه يلوح بُعِيدَ مقتل أخيه الأشرف خليل⁽²⁾، حيث وقع الاتفاق أن يكون هو السلطان، وذلك سنة ثلاث وتسعين وستمائة هجرية، وكان عمره إذ ذاك ثمانين سنين وشهوراً⁽³⁾، وكان قد استنابه أخوه الأشرف، وجعله وليّ عهده، وحلف الناسُ على ذلك⁽⁴⁾.

"كان الناصر محمد بن قلاوون، السلطان العاشر في دولة المماليك البحرية، وُلِدَ يوم السبت، سادس عشر المحرم، سنة أربع وثمانين وستمائة، بقلعة الجبل، ووالده الملك المنصور قلاوون، يحاصر حصن المرقب⁽⁵⁾"⁽⁶⁾. وكانت أمّه خوند أشلون بنت الأمير نكاي⁽⁷⁾.

(1) انظر الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ج 5، ص 73.
(2) السلطان الملك، الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالح كان ملكاً مهيباً، عالي الهمة، تام الشكل، كامل الشجاعة، قتل غدراً سنة 693 هـ. انظر ابن حبيب الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، تذكرة النبيه، تحقيق محمد محمد أمين، جامعة القاهرة، مطبعة دار الكتب، 1976، ج 1، ص 167.
(3) انظر اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، 1406 هـ، ص 22. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل، المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، الجزء الثالث، ص 30. الشجاعي، شمس الدين الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالح وأولاده، إعداد سلطنة بنت ملاح الرويلي، ص 4-6. العيني، بدر الدين محمد العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، جامعة القاهرة، ج 3، ص 220. ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيمن العلاني، الجواهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعدي عبد الفتاح عاشور، ص 327-329. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ط 2، باعتناء س، زيد زينغ، ص 353-354. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 169-170. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، حققه وقدم له محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، ج 4، ص 261-262. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 8، ص 52-54. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار النهضة، القاهرة، ص 365-366. ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج 1، ص 765-766.

(4) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 76.

(5) قلعة حصينة في سوريا تشرف على البحر المتوسط، كانت في يد الاستبارية، حاصرها المنصور قلاوون، إلى أن أخذها بالأمان، وهو حصن في غاية العلو والامتتاع. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 96.

(6) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ص 4.

(7) انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 378.

ترجم له عدد من المؤرخين، المعاصرين له، أو ممن جاؤوا بعده، فظهرت صورته واضحةً جليّة في صفاته وأخلاقه وأعماله، إضافة إلى ظهورها في أدب ذلك العصر، شعره ونثره، ورسمت صورته الإيجابية والسلبية من خلال تأريخ الأحداث السياسية والاجتماعية في عصره. (1)، فمنهم من رأى فيه ملكاً مهيباً، لم يرَ الناسُ مثل أيامه في الخصب والرخاء (2)، ومنهم من وصفه "بناصر الدين" (3)، ومنهم من وجده مؤيداً من الله تعالى، أقام بسيفه علم الإسلام ورفعته، وقهر الكفر والطغيان (4)، وتشدّد في حدود الدين في مناسبات كثيرة، وتتبع المنكرات بالقاهرة وغيرها، وعاقب مرتكبيها بصرامة وقوة (5)

ويصوره الصفدي محباً للعمارة، عاملاً بجهد، باذلاً الأموال الكثيرة في البناء والتعمير حتى بلغت النفقات في العمارة كل يوم ألفي درهم (6).

وتغنى الشعراء بكرمه وعطائه، ومدحوه فصوّره بالغيث والندى، يده مبسوطة، امام الوافدين عليه، ومن حوله (7).

وكانت علاقة السلطان مع الرعية جيدة حسنة حيث يظهر في صفحات التاريخ، حبّ الناس له، واحترامهم إياه، والوقوف إلى جانبه في محنه ضدّ أعدائه، فقد وجدوا فيه مخلصاً، خاصة في بداية حكمه، أما بعدما استقرّ في السلطة، فبدأ يعاقب من حوله، ويقتص منهم فظهرت صورته السلبية، وشعر الناس بالظلم، وأدركوا حبّ الناصر لمصلحته وحرصه على دوام سلطته. (8)

(1) انظر الدواداري، أبا بكر بن عبد الله بن أبيك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة 1971م، ج9.

(2) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 74-75.

(3) المصدر نفسه، ص 73.

(4) انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص 404.

(5) انظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف 1971م، ص26.

(6) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 98.

(7) انظر الحلبي، صفي الدين، الديوان، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1962م، ص96.

(8) انظر المقريزي، تقي الدين أحمد، السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، ج2،

ق2، ص216-218.

الحياة السياسية في عهده

تولّى الناصر محمد بن قلاوون السلطة، بعد مقتل أخيه الأشرف، في ظل الفساد والمؤامرات، وكان صغير السنّ، فواجه الكثير من المصاعب في بداية حكمه وكان أول عمل قام به، القبض على قاتلي أخيه، والأمر بقطع أيديهم وتسميرهم والطواف بهم فماتوا⁽¹⁾.

توالى على الحكم ثلاث مرات، يُعزل أو يُعزل نفسه، نتيجة الضيق الذي عاشه وتحكّم الأمراء به، وتضييقهم عليه، كانت المرّة الأولى من سلطنته في سنة 693-694هـ، حين تسلطن كتبغا⁽²⁾، وتسمّى بالعدل، فحلف له الأمراء بمصر والشام، وحُجِبَ السلطان محمد وأُمّه في بعض القاعات⁽³⁾، بعد أن استطاع كتبغا إقناع الأمراء بضرورة تحويل السلطنة اسمياً وفعلياً، ليد شخصية قوية في البلاط⁽⁴⁾، وكانت مدّة سلطنة الناصر محمد الأولى، أحد عشر شهراً وأياماً⁽⁵⁾.

ولم يسلم كتبغا من المؤامرات، حتى استلّ الحكم منه لاجين المنصوري⁽⁶⁾ وتسمّى بالمنصور، وهرب كتبغا إلى دمشق، وذلك في المحرم سنة ست وتسعين وستمائة⁽⁷⁾.

واستمرت تحاك المؤامرات والخدع، فجهّز لاجين الملك الناصر محمداً إلى الكرك، مدّعياً أنه يريد الحفاظ على سلامته، وأنه يحفظ له الملك إلى أن يترعرع ويشتدّ عوده، ويعود إلى ملكه، وقبّل السلطان بذلك حفاظاً على روحه⁽⁸⁾.

(1) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 77.

(2) هو كتبغا بن عبد الله المنصوري، الذي وليّ السلطنة سنة 694هـ، وتلقب بالملك العدل، حتى عُزل بعد سنتين، وتوفي سنة 702هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 169، 254.

(3) انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 386-387.

(4) انظر الحجي، حياة ناصر الحجي، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مكتبة الفلاح، الكويت، ط 1، 1403هـ، ص 20.

(5) انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 386.

(6) تولّى نيابة السلطنة بدمشق سنة 679هـ، ثم ولي أمر الملك بالديار المصرية والبلاد الشامية، بعد أن خلع العادل زين الدين كتبغا، قُتل سنة ثمان وتسعين وستمائة، وكان ملكاً عادلاً مهيباً، موصوفاً بالشجاعة والإقدام. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 59، 194، 212.

(7) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 78-79. ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 394.

(8) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 79.

لم يسلمَ لاجين من المؤامرات والخيانة، ولم يطل حكمه، وقُتِلَ في شهر ربيع الأول، سنة ثمان وتسعين وستمائة، فحلف للسلطان الملك الناصر محمد جميع الأمراء، وأحضروه من الكرك، وملكوه، بعدما شعروا بأحقّيته بالملك وكانت هذه سلطنته الثانية، التي استمرت من سنة 698هـ - سنة 708هـ⁽¹⁾.

عصفت بالمسلمين في هذه الحقبة أمورٌ عصبية، فتعرضت الدولة الإسلامية لزحف التتار، سنة 699هـ، "حيث جاءت الأخبار من حلب، بأن القان غازان⁽²⁾ ملك التتار، قد زحف إلى البلاد، فاضطربت أحوال البلاد المصرية، لعظم هذه البلية"⁽³⁾.

وخرج السلطان الناصر محمد، ومعه العسكر في خامس عشر صفر، من سنة تسع وتسعين وستمائة، فتلاقى مع جيش غازان، في مكان يُعرف بسلامية، قرب بعلبك، وكان بينهما وقعةٌ عظيمة، "وقعة وادي الخزندار" وآخر الأمر انكسر عسكر السلطان، وهرب الملك الناصر إلى نحو بعلبك، ونهب التتار ما نهبوا من عسكر السلطان⁽⁴⁾، وعاثوا في الشام فساداً⁽⁵⁾، وعاد الناصر مع ما بقي من جيشه إلى مصر، ووصل القاهرة، وفتح خزائن المال، وأنفق على العسكر، والأمراء، وكان على استعداد لملاقاة جيش غازان إذا عاودوا الكرة⁽⁶⁾.

واستمرّ السلطان يجهز العسكر، ويجمع العربان، حتى اجتمع معه عسكر كثير، فجاءت الأخبار من حلب، أن طائفة من عسكر غازان، دخلوا البلاد على حين غفلة، وذلك سنة اثنتين وسبعمائة، فخرج السلطان لملاقاته، ومعه ما جهّز من الجيوش، وتلاقى الفريقان على مرج

(1) انظر الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ص 6-7.

(2) محمد بن أرغون بن أبغا بن هولكو بن تولي بن جنكزخان، السلطان مُعزّ الدين اسمه محمود، ويقول العامة قازان، جلس على تخت الملك سنة 693هـ، توفي سنة 703هـ إثر هزيمة جيوشه في مرج الصفر. انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3، ص 292-294.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 403.

(4) انظر المصدر نفسه، ص 403.

(5) انظر المصدر نفسه، ص 404.

(6) انظر المصدر نفسه، ص 405-411.

راهط، أو مرج الصفر⁽¹⁾، فكان بينهما وقعة مشهورة، وكانت النصر يومذاك للملك الناصر محمد بن قلاوون، وانهزم عسكر غازان، بعد أن قُتل منهم وأُسر عدد كبير⁽²⁾.

لم يكن هذا النصر عادياً، فهو نصر للمسلمين على قوة كبيرة، هدّدت الدولة الإسلامية كثيراً، لذلك كانت له نتائج عظيمة، من ازدياد قيمة المسلمين، ورفع هيبتهم بين الدول المجاورة، إلى ازدياد محبة الناس لسلطانهم، الذي حقّق لهم هذا النصر العظيم، أما التتار، فقد انكسرت شوكتهم، وقلّت هيبتهم وباتوا يخافون زحفاً للمسلمين على بلادهم، وتمتع المسلمون بعدها بالسلم، وقد وصف ابن دقماق فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون بعد هذه المعركة بالسلم، فقال: "وعدم حركة العدو في البرّ والبحر، من نوبة شقحب إلى أن مات"⁽³⁾.

ولكنّ السلطان لم يشعر بالراحة، وحوله الأمراء يتحكّمون به، ويحاولون الانقلاب عليه⁽⁴⁾، ومنعه من كل ما يريد، يصف المقرئ في فترة حكم الناصر هذه بقوله: "إنّ وجود الناصر محمد بن قلاوون في السلطة، كان مجرد صورة، وإن كافة الأمور كانت بيد كبار الأمراء، الذين بلغ بهم الأمر حدّ التدخل في طعام الناصر محمد وشرابه، وكلّ ما يُحبّه ويحتاجه، وعانى من قلة المصروف، على حين تمتّع الأمراء بكلّ شيء، والناصر محمد يستدين المال لقضاء احتياجاته"⁽⁵⁾.

حتى ضاق السلطان من هذه التصرفات، وأظهر سنة 708هـ، أنه يريد الحجّ بعياله واتجه إلى الكرك، وأقام فيها، وأرسل للأمراء في مصر إعفائه من السلطة، فتسلطن بيبرس

(1) عُرِفَت هذه الوقعة بين الناس إضافة إلى مرج الصفر، بوقعة شقحب، وغباغب، لأنها كانت مشتملة على طرف شقحب وغباغب والضمين، وهذه أسماء قرى قريبة من دمشق. انظر بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ، حققه وقدم له عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط 1، 1413هـ، ص 128-130. أعيان العصر وأعوان النصر، ج 5، ص 85-88. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 163-170. رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، العصر المملوكي، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1997م، ص 10.

(2) انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 413.

(3) ابن دقماق، الجواهر الثمين، ص 366.

(4) انظر الشجاع، تاريخ الملك الناصر، ص 6-7.

(5) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 2، ص 879.

الجاهشكيز⁽¹⁾، واستلم الحكم، على الرغم من رفض الكثيرين له، وتشاؤم الناس من سلطته، "وبذلك يكون الناصر قد وضع الأمراء في حرج، لأنّ وجوده الاسميّ، وحكمه الصوريّ، كان قناعاً يخفي حقيقة الأمراء، أما وقد اعتزل، فستظهر حقيقتهم واضحة دون رياء أو مداراة، ولم يكن الناصر ليسمح بنقل السلطة من بيت قلاوون، إلى يد طامع بهذه السهولة، في الوقت الذي أصبح فيه عمره يقارب الخامسة والعشرين"⁽²⁾.

وظهرت نوايا بيبرس الجاهشكيز، فرفضه الشعب، وكشف سوء حكمه، وتمنى الخلاص منه، واتجه الأمراء إلى الكرك، لتأييد الناصر محمد بن قلاوون، وإعادته للسلطة، وانضمّ قسم من الجيش المصري لمناصرته⁽³⁾، وعاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى حكمه، وكانت هذه سلطته الثالثة، التي استمرت من سنة 709هـ إلى وفاته سنة 741هـ⁽⁴⁾.

كانت هذه الفترة من أهم فترات حكم الناصر، بدأها بوضع الدعائم القوية لدولته وتنشيط حكمه، وعمل جاهداً للحفاظ على هذه السلطة، فكان كمن يُمسك على جوهرة، ويخاف عليها من كلّ مَنْ حوّلّه، وهو في غاية الحذر والخوف في آنٍ واحد.

لقد تركت حالة الصراع على السلطة، التي سادت في بداية حكمه، أثراً عميقاً في تحديد سير مجريات الحوادث في العهد الثالث لحكمه، فانتسبت سياسته بالحزم والقوّة، وعمل دون تهاون، ودون رحمة أو شفقة، على الإطاحة بكلّ رأس كبير في الدولة، خشية أن يتناول عليه، ويكون سبباً في إنهاء حكمه، فأمعن في القبض على كبار الأمراء، الذي يصل إلى شيء من السلطة الفعلية، وبالتالي العمل على مصادرة ثروته وممتلكاته⁽⁵⁾.

(1) بيبرس البرجي العثماني الملك المظفر، كان من مماليك المنصور قلاوون، وكانت له في واقعة شقحب اليد البيضاء، وبأشر القتال بنفسه، فأبلى بلاءً حسناً، توفي مخنوقاً سنة 709هـ. انظر الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص7. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 2، ص 36-37.

(2) الحجى، حياة ناصر الحجى، السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ونظام الوقت في عهده، ص 23.

(3) انظر الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ص 7.

(4) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 80.

(5) انظر الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص 8.

ولم يمكث أمير من الأمراء في منصبه طويلاً، حيث تكرر العزل والتعيين، وكان الناصر حريصاً منهم غاية الحرص، فلا يسمح بمكوث نائب أو أمير في منصب مدة طويلة، يورد اليوسفي جداول التعيين والعزل، ويعلق عليها قائلاً: "إنَّ وضع معظم نواب الشام، لم يكن مستقراً، حتى إنَّ بعضهم، لم تتعدَّ ولايته بضعة أشهر، ولعلَّ السبب في ذلك يعود إلى أن السلطان، كان يعيّن الأمراء الذين يخشى خطرهم في النيابات البعيدة، عن مركز السلطة، ثم يلجأ إلى اعتماد الحيلة، للقبض عليهم، والتخلص منهم"⁽¹⁾.

"أما الديار المصرية، فكانت بإشراف السلطة المركزية المباشرة، المتمثلة بشخص السلطان، يعاونه في تسيير الأمور فئة من الموظفين، أطلق عليهم في النظام المملوكي لقب الوُلاة، يختارون دائماً من بين الأمراء، كان أعظمهم شأنًا والي القاهرة"⁽²⁾.

وتتحدث حياة ناصر الحجي، عن سياسة الناصر في تدبير شؤون الدولة، وتعيين الأمراء، قائلة: "كان الناصر محمد، يعمل على تعيين مماليكه والمقربين منه، في المناصب المهمة في السلطة، ليضمن تأييدهم ومناصرتهم"⁽³⁾.

ويتحدّث السيوطي، عن الوزارة التي أبطلها السلطان، وكيف صارت فيقول: "صار ما كان إلى الوزير منقسماً إلى ثلاثة: إلى ناظر المال، أو شادّ الدواوين، أمر تحصيل المال، وصرف النفقات والكلف، وإلى ناظر الخاص، تدبير جملة الأمور، وتعيين المباشرين، وإلى كاتب السرّ التوقيع في دار العدل، ممّا يوقع فيه الوزير مشاورة واستقلاًلاً، ثمَّ إنَّ كلاً من المتحدثين الثلاثة، لا يقدر على الاستقلال بأمر، إلّا بمراجعة السلطان"⁽⁴⁾.

ويتحدّث أيضاً عن حُسن اختيار السلطان، للشخص المناسب، في المكان المناسب، فيقول: "أما نظر الخزانة، فكانت وظيفة كبيرة الوضع، لأنها مستودع أموال المملكة، وغالب ما

(1) اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص 72.

(2) المصدر نفسه، ص 72.

(3) الحجي، حياة ناصر الحجي، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، ص 27.

(4) السيوطي، حسن المحاضرة، ص 30-31.

يكون ناظرها من القضاة أو نحوهم، وأما نظر بيت المال، فوظيفة جلييلة، موضوعها حمل
حُمول المملكة إلى بيت المال والتصرف فيه، ولا يلي هذه الوظيفة، إلا مَنْ هو من ذوي العدالة
المبرزة".⁽¹⁾

ومن صور اهتمام السلطان بأمر دولته، حرصه على اتخاذ القرارات السليمة، المُجمَع
عليها من مجموعة من الأمراء، يُسمُّون "أمراء المشورة"، يجتمع بهم السلطان، لاتخاذ القرارات
الطارئة، ومعالجة الأمور الحاسمة⁽²⁾.

ولم يترك السلطان سلطته أو يغفلها لحظة، حتى في أثناء تأديته فريضة الحج، كان
يستغل هذه الفريضة، فيمر في طريقه على أنحاء سلطنته، ويتابع شؤونها⁽³⁾.

وبالإضافة إلى البلاد الحجازية وأمرائها، تابع السلطان أيضاً في موسم الحج، شؤون
الأعراب، واجتمع بأمرائهم وقادتهم، "ففي حجة السلطان سنة عشرين وسبعمائة، لقي في سفرته
جميع العربان: من بني مهدي وأمرائها، وأشرف مكة من الأمراء وغيرهم، وأشرف المدينة
والينبع وخليص، وبني لام وعربان حوران....، ولم يتفق اجتماع هؤلاء لملك قبله⁽⁴⁾.

ولم ينسَ الناصر من أساء إليه، فقام بنقل الخليفة المستكفي أبي الربيع سليمان بن الحاكم
بأمر الله من مسكنه بمناظر الكيش⁽⁵⁾ إلى قلعة الجبل⁽⁶⁾. بسبب وقوفه ضد الناصر في بداية
حكمه.

هكذا عادَ الناصر محمد بن قلاوون، قوياً متمكناً من نفسه ومن سلطته، مستخدماً أساليب
الضرب دون رحمة، في سبيل الحفاظ على ما وصل إليه، إضافة إلى رغبته في إرضاء شعبه،

⁽¹⁾ السيوطي، حسن المحاضرة، ص 131.

⁽²⁾ انظر المقرئزي، السلوك، ج 2، ق 2، ص 485.

⁽³⁾ انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 54.

⁽⁴⁾ انظر المقرئزي، السلوك، ج 2، ق 1، ص 201.

⁽⁵⁾ مناظر الكيش: منطقة عمر فيها الخليفة المستكفي داره على النيل بخط جزيرة الفيل، انظر اليوسفي نزهة الناظر، ص 87.

⁽⁶⁾ انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص 87. الشجاع، تاريخ الملك الناصر، ص 9.

ومكافأتهم لوقوفهم إلى جانبه، ومساندتهم له، فعمل على إبطال الكثير من الضرائب والمكوس، على الرغم من أن هذه الضرائب كانت مصدراً من مصادر الدخل في الدول، يقول الشجاعى: "وكل ما فعله الملك الناصر من إبطال هذه المظالم والمكوس، دليل على حسن اعتقاده، وغزير عقله، وجودة تدبيره وتصرفه"⁽¹⁾.

ويتحدث الشجاعى أيضاً عن متابعة السلطان للأسعار، وتحديدتها، وإجبار الأمراء على تلك التسعيرة، التي يضعها هو، حتى يمنع الغلاء والفساد⁽²⁾.

وعمل جاهداً من أجل تنظيم الإدارة الداخلية للدولة، وتنصيب الرجل المناسب في المكان المناسب، يقول الشجاعى عن الناصر: "لم يُشهر عنه أنه ولى قاضياً في أيامه برشوة، ولا محتسباً، ولا والياً، بل كان هو يبذل لهم الأموال، ويحرصهم على عمل الحق"⁽³⁾.

وبنفس الصفة يصفه اليوسفى، ويتحدث عن وظيفة الحسبة، ومراعاة السلطان في اختيار صاحبها قواعد الشرع والأحكام⁽⁴⁾.

هكذا وصفه المؤرخون وكتبوا عنه، خاصة في بداية حكمه، حتى يتسنى له نيل محبة الناس وتأبيدهم، ثم ينكشف بعد ذلك سوء الأحوال التي وصل إليها العامة، عندما بدأ السلطان بجمع الأموال وإنفاقها في المناسبات الكثيرة، التي يحتفل بها السلطان مع الأمراء، وينفقون ما ينفقون من أموال طائلة، يجمعونها من عامة الشعب، ويستخدمون لجمعها أشخاصاً اشتهروا بالظلم والعسف، كان من أشهرهم، شرف الدين النشو⁽⁵⁾ الذي ملأت أخبار ظلمه كتب التاريخ، وتحدث اليوسفى كثيراً عن ظلمه وعن أعماله الكثيرة لجمع الأموال، وإشباع نهم السلطان⁽⁶⁾.

(1) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص 12.

(2) انظر المصدر نفسه، ص 13.

(3) المصدر نفسه، ص 11.

(4) انظر اليوسفى، نزهة الناظر، ص 80.

(5) عبد الوهاب بن فضل الله الكاتب، شرف الدين النشو، كان ناظر الخاص زمن السلطان الناصر، قُتل في ثاني صفر سنة 740هـ. انظر ابن حجر الدرر الكامنة، ج 1، ص 333-334.

(6) انظر اليوسفى، نزهة الناظر، ص 76-77.

وتحدّث الشجاعي كثيراً عن هذه المظالم، واستفحل ظلم النشو، وأصبح يخشاه العامة ويقدمون له ما يطلب، ووصل به الأمر إلى مصادرة أموال اليتامى، وأصبح يهدد المباشرين، حتى انتشرت الرشوة، طلباً لإرضاء النشو، وكفّ شرّه⁽¹⁾.

ويحدّث اليوسفي عن القضاء قائلاً: "وأما القضاة، فكان منهم قاضي قضاة الحنفية، الإمام العالم شمس الدين الحريري، وكان شديد السطوة، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكانت الأمراء تخافه، ولقد ذكر لي أنّ الملك الناصر، قال يوماً لجلسائه: "إنّي لا أخاف من أحد، إلّا من شمس الدين الحريري"⁽²⁾.

واتجه السلطان بعد تنظيم أمور الدولة الداخلية، إلى علاقة دولته بالدول المجاورة وكان في غاية الذكاء، في عمله الدؤوب، لإبقاء العلاقات السياسية المتينة بينه وبين ملوك الدول المجاورة، يهاديهم ويقبل هداياهم، ويستقبل وفودهم ويكرمهم غاية إكرام، مادام على يقين من ولائهم له، وعدم خيانتهم، وحرصهم الشديد على إرضائه، والتودّد إليه، والتقرّب منه⁽³⁾.

هكذا اتّسمت سياسة الحكم في عهد الناصر، بالحكمة والحكمة والذكاء من جهة، وبالقوة والصرامة والشجاعة من جهة أخرى، ولم يخلُ عهده من هبّات واضطرابات حدثت بين المسلمين والنصارى، أو كانت تحدث بين الحين والآخر، بسبب بعض الفساد الذي ظهر في المجتمع، وحاول السلطان مواجهتها، والعمل على إرضاء الشعب، بعدما أيقن أن رضا الشعب سبب رئيسي في بقاءه على رأس حكمه، إلّا أنه كان يتهور أحياناً كثيرة، وأتهم بتقريب النصارى من أقباط مصر، وتمكينهم من رقاب الرعية، وتحكيمهم في أمور المسلمين إذ اتخذ منهم الوزراء ونظار الخاص السلطاني، وثار عليه الشعب، وخاصة أهل القاهرة، وندّدوا ببعض فعّاله، وحرّض الفقهاء أحياناً الناس عليه⁽⁴⁾.

(1) انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص 179-183.

(2) انظر المصدر نفسه، ص 179-185.

(3) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 74-75. ابن دقماق، الجواهر الثمين، ص 366.

(4) انظر الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص 70-71.

الحياة الاجتماعية

قسّم المقرّبي المجتمع المملوكي في مصر إلى سبع طبقات، يقول: "واعلم أنّ الناس بإقليم مصر في الجملة سبعة أقسام؛ القسم الأوّل: أهل الدولة، والقسم الثاني: أهل اليسار من التجار، ويُقال لهم أهل البزّ، ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوق. والقسم الرابع: أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف، والقسم الخامس: الفقراء، وهم جلّ الفقهاء، وطلّاب العلم، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس: أرباب الصنائع والأجزاء، وأصحاب المهن، والقسم السابع: ذوو الحاجة والمسكنة، وهم السوّال الذين يتكفّفون الناس، ويعيشون منهم"⁽¹⁾.

إذن كان المجتمع المصري والشامي في عهد الناصر محمد بن قلاوون، مختلف الطبقات، ذات الطباع والسجايا المختلفة والمتعددة، حيث تكوّن نسيجه من العرب والترك والأرمن والأقباط، إضافة إلى التنوّع في الديانات حيث وُجد إلى جانب المسلمين اليهود والنصارى، وكان لهم ثقل واضح في المجتمع، وتأثير قوي عليه، وكان للاضطراب السياسي تأثير وانعكاسات على الحياة الاجتماعية، لذلك تعدّدت الطبقات الاجتماعية، وتباينت حسب القيمة الاجتماعية لكل منها.⁽²⁾

وترأس السلطان الطبقة الحاكمة، وكان بيده تسيير أمور الدولة الداخلية والخارجية لاسيّما بعدما ألغى بعض الوظائف الكبرى، مثل وظيفة نائب السلطنة، ووظيفة الوزير⁽³⁾. ويتحدث اليوسفي عن الأوضاع الداخلية للسلطنة المملوكية، وعن حرص الناصر على متابعة أمورها بنفسه، فذكر تجنيد الناصر محمد معظم الفئات الاجتماعية، حتى الشخصيات المرموقة، كي تكون عيوناً له على نواب السلطنة⁽⁴⁾.

(1) المقرّبي، تقي الدين أحمد بن علي، إغاثة الأئمة بكشف الغمّة، تحقيق كرم حلمي فرحات، الطبعة الأولى، 2007م، ص 149.

(2) انظر الصفي، أعيان العصر، ج 5، ص 83. المقرّبي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 990-991.

(3) انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص 4.

(4) انظر المصدر نفسه، ص 65.

أما الأمراء فهم من الطبقة العليا في المجتمع، من الممالك خاصة، آثروا الاستحواذ على السلطة، والانفراد بها، وابتعدوا عن الاختلاط بعمامة الشعب، وكانت علاقتهم المباشرة بالسلطان، الذي حرص كل الحرص من جانبهم، وراقبهم، وحاصرهم بعيونه⁽¹⁾.

استحوذت هذه الطبقة على معظم ممتلكات الدولة، وعملت جاهدة من أجل تكريس الأموال، واقتنائها، حتى تحدّثت المراجع عن الثروة العظيمة، التي كانت تظهر بعد موت أمير، أو بعد مصادرة أمواله، فكانت تؤثر في سعر الذهب في الأسواق، فينخفض لكثرة الذهب المكس مع الأمراء⁽²⁾.

لقد حازت الطبقة الحاكمة، من السلطان والأمراء على وضع اجتماعي متميز جداً، ليس بأموالهم وممتلكاتهم فحسب، بل أيضاً بمناسباتهم المتميزة، التي يستطيعون الصرف عليها مبالغ باهظة، وإقامة الولائم العظيمة، التي لم يكن للإنسان العادي من عامة الشعب، أي قدرة عليها، يتحدث ابن حبيب، عن الاحتفال الذي أقامه السلطان بمناسبة زواج ابنه آنوك، واصفاً هذه المناسبة العظيمة، وما أُقيم فيها، وما أنفق في هذا العرس، يقول: " دخل الملك آنوك بن مولانا السلطان على زوجته بنت الأمير سيف الدين بكتمر الساقى، التي كان شوارها بما قيمته ألف ألف دينار مصرية... وصُرف في كلفته ما يفوق الحصر⁽³⁾."

وتكونت طبقة العامة من متوسطي الحال، والفقراء، والمزارعين، ويُعد هؤلاء من أكثر الطبقات الاجتماعية تأثراً في سير الأحوال في الدولة، ومن أكثر الطبقات أيضاً تضرراً بالحالة السياسية والاقتصادية فيها، وقد مرّ سابقاً كيف أثر العامة في عودة الناصر إلى حكمه، ووقوفهم إلى جانبه، ورفضهم حكم غيره من السلاطين⁽⁴⁾.

وتشهد صفحات التاريخ المملوكي كثيراً من صور الارتباط الوثيق بين المجتمع والحالة السياسية والوضع الاقتصادي، حيث عمل العامة على الربط بين شخص السلطان الجديد، وما

(1) انظر الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ص 8-10.

(2) انظر ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص 346-347.

(3) انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2، ص221.

(4) انظر ابن الوردي، تنمة المختصر في أخبار البشر، ج 2، ص 366.

يحدث عند اعتلائه كرسي السلطنة من ارتفاع أو انخفاض في الأسعار⁽¹⁾، لذلك عمل الناصر محمد على متابعة الأسعار، ووَضَعَ حدًّا لها، ومعاقبة من يخرج على ذلك⁽²⁾، وتتحدث حياة ناصر الحجّي عن علاقة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالطبقات الفقيرة في المجتمع، وعن حرصه على متابعة شؤونهم، والعمل على إرضائهم، فتقول: "يعدد مؤرخو العصر المملوكي الكثير من الصفات الحميدة التي تخلّق بها الناصر محمد بن قلاوون، خاصة في علاقاته مع العامة والطبقات الفقيرة المحتاجة، فكان عطوفاً عليهم، رحيماً بهم، معيناً لهم"⁽³⁾.

وعلى الرغم من متابعة الناصر، ومحاولته الحدّ من الفقر والمعاناة، إلّا أنّ التباين في طبقات المجتمع كان ظاهراً، والفقر والجُوع محصوراً في أدنى الطبقات دون غيرها⁽⁴⁾. وشهدت دولة المماليك ظاهرة الشحاذة حيث ازدحمت طرقات المدن بهم⁽⁵⁾.

واعتمدت فئة المزارعين على الأرض والإنتاج، الذي كان يتفاوت من سنة إلى أخرى، ووجدوا في اعتناء الناصر محمد بإجراء الماء وريّ المزروعات، وبناء السدود وحفر الخلجان عوناً ومساعداً لهم⁽⁶⁾.

وكانت فئة التجّار أيسرَ حالاً، إذا سلّمت من المتسلّطين والأعوان، مثل: النشو الذي عمل كثيراً على مصادرة بعض ممتلكاتهم، ومحلاتهم، مقنعاً السلطان بأحقّيته في أموالهم، ويذكر اليوسفي أخبار المصادرات التي كانت تمارسُ ضدّ التجّار من نهب وسرقة، فيذكر حادثه للنشو مع تاجر، طلب منه خشباً بسعر قليل، فرفض التاجر ذلك، فأوشى النشو عليه للسلطان، فقال السلطان: "تسلّمهُ يا نشو، واقتله بالمقارع، وخذ مالي منه... فتسلمه وأخذ منه ألفي دينار أخرى"⁽⁷⁾.

(1) انظر ابن دقماق، الجواهر الثمين، ص 350.

(2) انظر حياة ناصر الحجّي، أحوال العامة في حكم المماليك، الطبعة الأولى، الكويت، 1984م، ص 191.

(3) انظر المرجع نفسه، ص 230.

(4) انظر المرجع نفسه، ص 213.

(5) المرجع نفسه، ص 217.

(6) انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 456.

(7) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 79، ص 353.

وتتحدث حياة ناصر الحجي، عن استدانة الناصر محمد بن قلاوون من كبار التجار في القاهرة لتوفير حاجات خاصة، وهنا يظهر الغنى الذي كانت عليه هذه الفئة، ولكنّ النشو، الذي أوكله السلطان بسدّ هذه الديون، يوهم السلطان أنّه أوفى التجار حقّهم، مع أنّه لم يفعل، وكانت هذه الأموال طائلة⁽¹⁾.

وأوقع السلطان الكثير من الظلم على من حوله من الأمراء، وأصحاب المراكز، خوفاً من وصولهم إلى مراتب عالية في الدولة، وعمّ الغلاء هذا العصر، وتحدّث اليوسفي عن ذلك، موعزاً سبب الغلاء إلى السياسة الاقتصادية التي اعتمدتها الدولة المملوكية، والمرتبطة بطبيعة النظام الإقطاعي ذي الطابع العسكري، إضافة إلى إجراءات أخرى تتخذها الدولة لجمع الأموال⁽²⁾.

اهتمّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالإعمار والبناء على كافة الأصعدة، فقد بنى القصور والقلاع، والجسور، والبيمارستانات، والمساجد، حتّى إنه كان يهدم ما يراه غير مناسب، ويقوم بالبناء مكان الهدم⁽³⁾، ويجمع من أجل إتمام الإعمار، الصنّاع والعُمّال والآلات، وتبذل الأموال كثيراً، ويحتفل بعدها بإكمال البناء⁽⁴⁾.

أما طبقة أهل الذمة، فقد وجد فيها العامة تعالياً، لذلك رفضوهم ورفضوا تعاليتهم في المجتمع، وثاروا لأجل ذلك، فأصدر السلطان محمد بن قلاوون مراسيم خاصة تحدّ من تصرف أهل الذمة في المجتمع، وتحدد لهم زياً خاصاً، وقوانين يمتثلون بها، فحصل عداءً حاد بين أهل الذمة والمسلمين، أحرق فيه النصارى مساجد كثيرة، وثارَت العامة المسلمة يداً واحدة وهدمت الكثير من الكنائس وفتحوا أبوابها ونهبوا أموالها وضج السلطان من ذلك، وبدأ بإصدار العقوبات⁽⁵⁾.

(1) انظر حياة ناصر الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك، ص 201-202.

(2) انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص 81-82.

(3) انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 460.

(4) انظر ابن حبيب، تذكرة النبیه، ج 2، ص 206.

(5) انظر المقرئزي، السلوك، ج 2، ق 1، ص 216-218.

الحياة الثقافية

ازدهرت الحياة الثقافية في العهد المملوكي كثيراً، وظهرت الكثير من المؤلفات الأدبية والتاريخية، وعُرف العديد من رجال العلم والأدب، وتميّز عصر الناصر محمد بتشجيعه للحركة العلمية، التي عرّفت درجة من العطاء تمثلت بإنتاج وفير في شتى علوم ذلك العصر، نتج عن الاستقرار السياسي الذي اتاح الفرصة لهذا الفيض من الإنتاج في كافة الميادين الثقافية⁽¹⁾.

ويتحدث أحمد حطيط عن بروز أعلام في الثقافة الإسلامية في ذلك العصر، كان من بينهم مؤرخون اكتسبوا مكانة مرموقة، وتنوعت مصنفاتهم التاريخية بين كتب في التاريخ العام⁽²⁾، وكتب في التراجم والسير⁽³⁾.

ولم يكن السلطان غافلاً عن دور الأدباء والعلماء، إذا كان يحترمهم ويُعظمهم، يقول الصفدي فيه "كان ملكاً مهيباً مطاعاً عارفاً بالأُمور، يُعظم أهل العلم والمناصب الشرعية"⁽⁴⁾، وكان يخلع عليهم، ويستمتع لقراءاتهم، خاصةً عند إقامته بعض الاحتفالات في مناسبات متفرقة⁽⁵⁾، وخاصة أولئك الكتاب الذين يعملون في ديوان الإنشاء، الذي يُعد من أهم دواوين الدولة وأوسعها، وأولئك العلماء الذين لهم تأثير قوي بين العامة، وبخاصة علماء الدين والأئمة، إضافة إلى دور المؤسسات الثقافية التي كان عمادها المدارس والجوامع ودور الحديث والبيمارستانات وغيرها حيث أدت دوراً يتلخص بتعبئة اجتماعية عامة من خلال الدعوة إلى الجهاد والإصلاح⁽⁶⁾.

(1) كالنويري، صاحب (نهاية الأرب في فنون الأدب)، وابن كثير، صاحب (البداية والنهاية).

(2) كالصفدي، صاحب (الوافي بالوفيات).

(3) كالوداداري، صاحب (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، وابن حبيب، صاحب (تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه)، والشجاع، صاحب (تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالح)، اليوسفي، صاحب (نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر).

(4) الصفدي، أعيان العصر، ج5، ص96.

(5) انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ص 445.

(6) انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص41.

وحازت طبقة العلماء والأدباء مكانة في المجتمع المملوكي، فالعلم له مكانة خاصة في النفوس لاسيما ارتباطه بالدين في تلك الفترة ارتباطاً قوياً، وكان معظم علماء ذلك العصر، يهتمون بالعلوم الدينية دون غيرها، فكان لا بدّ للسلطان من توثيق علاقته بهم، وجمعهم حوله، لعلمه بقيمتهم عند الناس، وتأثيرهم القوي عليهم.

وكان لهذه الطبقة، تأثيرٌ كبيرٌ على الناس، في دفعهم لعمل ما، أو إبعادهم عنه وكان من أهمّ المواقف التي ظهر فيها تأثير العلماء على الناس، ما ذكرته كتب التاريخ عن شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي أدى دوراً بارزاً في المجتمع المصري في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فوقع على عاتقه عبءٌ كبيرٌ في إصلاح المجتمع، ومقاومة الفساد، واستنهاض الهمم، وتعبئة الروح الجهادية ضد الفرنج، وتركزت جهوده مع غيره من علماء عصره، على مقاومة الفساد الاجتماعي، حيث عمل شيخ الإسلام ابن تيمية، في عصرٍ ساد فيه أنواع كثيرة من الفساد الاجتماعي واللّهو، وشرب الخمر، وانتشار الخمّارات، والابتعاد عن الدين⁽¹⁾، وكانت أعماله واجتهاداته مليئة بصور متنوعة من تنفيذ هذه المفاصد، والإرشاد إلى طريق الخير، يقول فيه الشيخ الإمام، عماد الدين الواسطي⁽²⁾: "تموّج الخلفاء الراشدين، والأئمّة المهتدين، الذين غابت عن القلوب سيرهم، ونسيت الأئمّة حذوهم وسبلهم"⁽³⁾.

ولم يقتصر دور العلماء على البحث والتأليف وإلقاء الخطب، بل ساهموا بنصيب وافر في الوقوف إلى جانب المسلمين في حربهم مع التتار، فكانوا خطّ الدّفاع الأوّل، عن المسلمين وأعراضهم، حيث خرج القضاة والعلماء بعد هزيمة سنة 699هـ كان منهم: قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي⁽⁴⁾، والشيخ تقي الدين بن تيمية، والقاضي نجم الدين بن

(1) انظر اليوسفي، نزّهة الناظر، ص 98. الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص 31-32.

(2) أبو العباس، أحمد بن إبراهيم الواسطي، شيخٌ، زاهدٌ، قدوة، توفي سنة 711هـ. انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1، ص 91.

(3) الكرّمى، مرعى بن يوسف، الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، ص 61.

(4) أبو عبد الله محمد بن برهان الدين بن سعد الله بن جماعة الكنانى الحموى الشافعى، كان إماماً بارعاً عالماً بالتفسير والحديث والفقه، ديناً خيراً حسن السيرة والسمعة، له التصانيف المفيدة، والمناقب العديدة، حدّث بمصر والشام، وله النظم الجيد، ت733هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبیه، ج2، ص237.

صصري⁽¹⁾، والقاضي جلال الدين القزويني⁽²⁾ وغيرهم من العلماء الزُهَّاد، لملاقاة غازان ومقابلته لطلب الأمان لأهل الشام، وكان لعملهم هذا أثر واضح على الشعب، الذي عانى أشدَّ المعاناة خوفاً من بطش التتار، وما عُرِفوا عنه من ارتكاب المجازر في الشعوب، فهدأت نفوسهم، وصمدوا في بيوتهم⁽³⁾.

وعملوا دون كلل، في استنهاض الهمم، والحثَّ على الجهاد، فهذا ابن تيمية، يعمل جاهداً، في معركة مرج الصفر، وعند اقتراب اللقاء مع التتار، ليخفف من رهبة اللقاء ويُثَبِّت قلوب الجُند "فكان يعظ الجُند، ويتلو عليهم الآيات القرآنية، ويقرأ عليهم الأحاديث النبوية، ويحثُّهم، ويثبِّتهم، ويعبِّتهم نفسياً وعسكرياً، حتى غدوا بهذا التوجيه خلقاً آخر، مُغايراً لما كانوا عليه من التخلف والخذلان والهزيمة، فارتقوا بهذه المعاني، التي نفخها فيهم شيخ الإسلام، إلى مواقع النصر والفاعلية"⁽⁴⁾.

وإلى جانب ابن تيمية، عمل بدر الدين بن جماعة، على حثِّ الناس على الصبر، وشدَّ الرباط، والتأزر، للوقوف في وجه أي اعتداء على أرض الإسلام، وكتب إلى البلاد الشاميَّة للتهيؤ للحرب⁽⁵⁾.

ووقف العلماء والقضاة إلى جانب السلطان، وكان يستشيرهم في بعض الأمور الحساسة في الدولة، "فقد استشار السلطان، تقي الدين بن دقيق العيد الشافعي، قاضي القضاة، في أمر أبي الربيع سليمان، ابن الخليفة بعد موته، هل يصلح للخلافة أم لا؟، فقال: نعم، يصلح، وأثنى عليه"⁽⁶⁾.

(1) احمد بن محمد بن سالم بن أبي المواهب، القاضي نجم الدين أبو العباس، الدمشقي الشافعي قاضي قضاة الشام، ت723هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2، ص136.

(2) محمد بن عبد الرحمن بن عمر، جلال الدين ابو عبد الله الشافعي، ولأه الناصر قضاء دمشق، ثم ولاه سنة 727هـ— قضاء الديار المصرية، عظم شأنه، ت739هـ. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص309-310.

(3) انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 404. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 123.

(4) الكرمي، الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، ص 16.

(5) انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 224.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 148.

وعند جلوس السلطان للنظر في المظالم، كان يجلس وحوله القضاة الأربعة، لاستشارتهم، والانتفاع برأيهم⁽¹⁾.

وقد شاعت أخبار علاقة السلطان بشيخ الإسلام ابن تيمية، وعُرف بينهما صداقة حميمة، وقد أحبه السلطان واحترمه، وقدره، حتى وقف للقاءه وصافحه وجالسه، وظهرها ويد الشيخ في يد السلطان⁽²⁾، إلى أن ساءت علاقتهما وتسبب الوشاة في سجن ابن تيمية والاساءة إليه، كما سنتحدث لاحقاً.

اعتنى الناصر كثيراً ببناء المدارس، وتجهيزها، والوقف عليها، ويُعدُّ المقرئ والمدارس التي عمل الناصر على إنشائها، فيجدها ثلاثاً وسبعين مدرسة⁽³⁾.

وحظي بعض الشعراء والأدباء في عصر الناصر بالإكرام والاحترام والتبجيل، في حين عانى قسم آخر من الإهمال واللامبالاة، فكان يتراوح موقفهم منه بين السلب والإيجاب، فمن وجد عنده خيراً وكرماً، مدحه وقابل عطاءه بالشكر، فهذا الأديب أبو الفداء⁽⁴⁾، صاحب المختصر، يصف كرم الناصر عليه قائلاً: "وشملني من الصدقات السلطانية ما يفوت الحصر، من ترتيب الإقامات، وكثرة الرواتب لي ولمن في صحبتي، ورجعت وأنا مغمور محبور بأنواع الصدقات السلطانية"⁽⁵⁾.

(1) انظر ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1384هـ، ص 45.

(2) انظر الكرعي، الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، ص 136-137.

(3) انظر المقرئ، تقي الدين أبا العباس أحمد بن علي المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئية، طبعة جديدة بالأوفست، مؤسسة الحلبي وشركاه، ج 2، ص 244-331.

(4) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، صاحب حماء، ابن السلطان الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي بن السلطان الملك المظفر، تقي الدين أبي الفتح محمود، يعود نسبه إلى نجم الدين أيوب، والد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، خدم الناصر محمداً في الكرك، فأعطاه حلب. كان عالماً فاضلاً، وأديباً متميزاً، توفي سنة (732هـ). انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 220-224.

(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 79.

وأعجبَ السلطان بكتاب الإنشاء الأديب صلاح الدين الصفدي⁽¹⁾، فأمر شمس الدين إبراهيم القيسراني⁽²⁾ بكتابة توقيع بزيادة له⁽³⁾.

ويحرص علاء الدين بن الأثير⁽⁴⁾، على إرضاء السلطان، ويتوجه معه إلى الكرك فوعده الناصر بكتابة السرّ، فلما قدم الناصر إلى القاهرة، قدّم له علاء الدين حلوى بمائة وعشرين درهماً، باع لأجل شرائها إكديشاً، فرسم له الناصر أن يستقر بكتابة السرّ بدمشق، وعظمه وأكرمه، ونوّه بقدره، وبلغ عنده ما لم يبلغه أحد⁽⁵⁾.

ووقف الأدباء إلى جانب السلطان في محنته عند عزله من الحكم ثم عودته إليه، فحظي بمكانة عند كثير من الشعراء، حيث انبروا في عمل القصائد الطّوال، فمنهم من هنّأه بعودته إلى حكمه بقصائد سعد الناصر لسماعها، مثل الشاعر شهاب الدين الشارمساحي⁽⁶⁾⁽⁷⁾، والشاعر ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر⁽⁸⁾، وكتب الشاعر محمد المنبجي⁽⁹⁾ أكثر من ثلاثين بيتاً، مهنّئاً الناصر بالعودة⁽¹⁰⁾.

(1) خليل بن أبيك، صلاح الدين الصفدي، من كبار الأدباء في ذلك العصر، حصل علوماً مختلفة وأبدع فيها، وُصف بالأديب البارِع، والعالم الفاضل، والشاعر الناظم، توفّي سنة 764هـ. انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 1، ص 7-24. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 11، ص 19-20. المقرئ، المقفى الكبير، ج 3، ص 767.

(2) الكاتب البليغ، شمس الدين بن القاضي جمال الدين، ابن الصاحب فتح الدين القيسراني المخزومي الخالدي، كاتب الإنشاء بالديار المصرية. انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 1، ص 83-85.

(3) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 1، ص 7-24.

(4) علي بن أحمد بن سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثير، الحلبي الأصل، المصري علاء الدين بن الأثير كان ذكياً نبهياً، حسن الكتابة، كثير البر، والمعروف، كتب في ديوان الإنشاء، توفي سنة 730هـ. انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3، ص 83-84.

(5) انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3، ص 83-84.

(6) أحمد بن عبد الدايم، ابن يوسف بن قاسم بن عبد الله بن عبد الخالق بن ساحل، شهاب الدين الكنانى الشارمساحي، أبو يوسف، شاعرٌ، هجّامٌ، (633هـ-720هـ). انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 1، ص 255-256. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص 9.

(7) انظر الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 191-192.

(8) ناصر الدين شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل الكنانى، الأديب الفاضل، الكاتب المجيد، المنشئ البليغ الضريع على كبر، له شعر حسن، ولد سنة 649هـ، ت 730هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبیه، ج 2، ص 208. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 2، ص 281.

(9) أبو عبد الله المنبجي، محمد بن أحمد بن يوسف بن سالم، أخو الحافظ قطب الدين عبد الحكيم الحلبي، وُلد سنة 654هـ توفي سنة 722هـ. انظر المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي، المقفى الكبير، ج 5، ص 291.

(10) انظر الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 193-194.

وكتب الدواداري، رسالة نثرية أسماها "أشائر البشائر"، جعل الفرحة بعودة السلطان الناصر تَعُمُّ المخلوقات جميعاً⁽¹⁾.

أما الشاعر ابن المرحّل⁽²⁾، الذي كان قد كتب قصيدة، هجا بها الناصر محمداً، ومدح أعداءه، وقال في حقّه كلمات أغضبته جدّاً، فكاد أن يفتك به، من جملتها⁽³⁾:

ما للصبيِّ وما للملك يكفُّه شأنُ الصبيِّ بغير الملكِ مألوفُ

ولولا أنَّ الشاعر استبق الأحداث، وأخرج قصيدة في مئة بيت، في وزن تلك ورويّها فأعجب السلطانُ بها، وعفا عنه⁽⁴⁾.

وهذا الشاعر علاء الدين الوداعي⁽⁵⁾، يَنْظُمُ أبياتاً بعودة الناصر، ويتغنّى بهذه العودة، مُعَبِّراً عن فرح العامّة واستبشارهم بعودة الناصر⁽⁶⁾.

ووقف الأدباء إلى جانبه أيضاً في معركته مع المغول، وانتصاره عليهم في مرج الصفر، فكتبوا مصوريّين الناصر محمداً شجاعاً، يخوض غمار المعارك، ويحقّق الانتصارات وبخاصّةً بعد تحقيقه النصر في معركة حاسمة، اهتزّت لها الأقلام، وانبرت تصف وتصور هذا السلطان،

(1) انظر الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 161-165.

(2) محمد بن عمر بن مكّي، صدر الدين أبو عبد الله الشافعي الأشعري، ابن عبد الصمد بن عطية بن أحمد القرشي، الأموي العثماني، المعروف بابن الوكيل، وابن المرحّل، وابن الخطيب، وُلد سنة 665هـ، توفي سنة 716هـ. انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 5. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 77-78.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ص 402. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص 9.

(4) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 5-13.

(5) علي بن المظفر، علاء الدين الوداعي، الكندي، الإسكندراني ثمّ الدمشقي، المعروف بالوداعي، وُلد سنة 640هـ، كان أديباً بارعاً، تلا القراءات السبع، وكان محدثاً وحافظاً للكثير من أشعار العرب وله ديوان شعر، توفي سنة 716هـ. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 22، ص 199. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 77. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3، ص 204. رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص 53.

(6) انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ص 355-357. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 94. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 770. نفسه، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 2، ص 117.

ومن أشهر مَنْ تَغَنَّى بهذا النصر، القاضي جمال الدين أبو بكر⁽¹⁾، الذي نَظَّمَ مِنْ قصائد البشارة، ومائة وخمسة عَشَرَ بَيْتاً⁽²⁾ ونَظَّمَ محمد المنبجي قصيدة تجاوزت الأربعين بيتاً⁽³⁾.

وما إنْ سَمِعَ الشاعر شمس الدين الطيبي⁽⁴⁾ بالمعركة، حتى أخذ الدواة والقلم ونَظَّمَ قصيدة تجاوزت التسعين بيتاً⁽⁵⁾ مدح فيها السلطان.

وأرسل من مصر الشاعر "الشمس ابن كبر"⁽⁶⁾، مُهنئاً بهذا النصر، قصيدة تجاوزت الأربعين بيتاً، مدح فيها الناصر محمداً، وهزئاً بالتتار وقائدهم⁽⁷⁾.

ومن الشعراء أيضاً، الشاعر شهاب الدين العزازي⁽⁸⁾، والشاعر نجم الدين القحفازي⁽⁹⁾ اللذان تغنّيا بهذا النصر، ومدحا الناصر محمداً.

(1) عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد، ابن محمد ابن إبراهيم، جمال الدين أبو محمد وأبو بكر التبريزي، الحراني الشافعي، عالم فاضل، كاتب، بارع، وُلِدَ سنة 650هـ، وُلِّيَ الحُكْمَ بدمياط، وتوفي فيها سنة 740هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 320. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3، ص 7.

(2) انظر الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 93-100، وذكر ابن حبيب في تذكرة النبيه ج 1، ص 247، بعض الأبيات.

(3) انظر الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 91-93.

(4) أحمد بن يوسف بن يعقوب بن إبراهيم بن أبي نصر، القاضي، الفاضل، الناظم، الناثر، كاتب الإنشاء بحلب، وُلِدَ سنة 649هـ، برع في النظم والنثر، توفي في شعبان سنة 717هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 85. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 1، ص 363.

(5) انظر بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص 129-131.

(6) هو القس الشمس بن كبر، مَنْ سَطَرَ وبيّض تاريخ بيبرس المنصوري مختار الأخبار، ولم أَعثر على سنة ميلاده أو وفاته. انظر بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص 129.

(7) انظر بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص 129-131.

(8) شهاب الدين أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم العزازي، الشاعر المشهور، كان مُكثراً من النظم واشتغل بالأدب، وفاق أقرانه، له في الموشحات اليد الطولى، وُلِدَ سنة 634هـ، وعمل تاجراً، توفي سنة 710هـ. انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 1، ص 269-270. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 34. ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط 2، دار الميسرة، بيروت، ج 6، ص 21-22.

(9) نجم الدين أبو الحسن علي بن عماد الدين داوود بن يحيى بن كامل البصري القرشي، القحفازي، الحنفي، كان إماماً عالماً، بارعاً في العربية، حسن الأخلاق والمحاضرة، مولده سنة 668هـ، وكانت وفاته بدمشق سنة 745هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 3، ص 75. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3، ص 116.

ولم يقتصر الأمر على الشعر، بل خَلَدَ النثر هذا الانتصار فكتب مُبشراً بهذا النَّصر العظيم، القاضي علاء الدين علي بن عبد الظَّاهر⁽¹⁾، حيث عملَ كتاباً بعد هزيمة التتار، مُصَوِّراً فيه المعركة، وشجاعة السلطان وفرسانه، أسماه "الرَّوضُ الزَّاهِرُ في غزوة الملك النَّاصر"⁽²⁾. وواكب فن السيرة عصر الناصر، ورسمَ صورة واضحة له، من السيرة الغيرية، كتبت ثلاث سير غيرية للناصر محمد هما: "نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر" لليوسفي، "وتاريخ الملك الناصر" للشجاعى، "والدَّرُ الفاخر في سيرة الملك الناصر" للدواداري. ولا يعني كلُّ هذا، أن جميع الشعراء والأدباء شعروا بالأمان في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، إذ لا يخلو الأمر من شكوى أو ظلم أو ألم طالَّ بعض الأدباء، نتيجة الوشاية بهم، أو نتيجة استياء النَّاصر من بعض تصرفاتهم، أو شكواهم هُم مما لا يعجبهم من أعمال السلطان، فهذا النويري⁽³⁾ يُضربُ بالمقارع، بسبب الوشاية به⁽⁴⁾. وهذا ببيرس المنصوري⁽⁵⁾، الأديب الذي أرَّخ وألَّف الكتب الضخمة، يُعقل بعد غضب السلطان عليه⁽⁶⁾.

وهذا الشاعر الأديب ابن الوردي⁽⁷⁾، كان "من الشعراء الذين حنقوا على الأدب حنقاً لا مزيد عليه في عصره، الذي قُبِضَتْ فيه عن الأدباء كف التشجيع"⁽⁸⁾، وظهر ذلك في أدبه، حتى قال يائساً⁽⁹⁾:

(1) علاء الدين أبو الحسن، علي بن المولى محيي الدين عبد الله بن المولى رشيد الدين، عبد الظاهر السعدي، المصري، أحد أعيان كتاب الدست الشريف بالديار المصرية، كان فاضلاً، رئيساً، حسن الإنشاء والنظم. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 84. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3، ص 109. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 6، ص 246.

(2) انظر المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1031-1032.

(3) أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم، شهاب الدين النويري، القوصي المولد، جمع تاريخاً كبيراً وهو "نهاية الأرب في فنون الأدب"، توفي سنة 733هـ. انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 1، ص 281. الوافي بالوفيات، ج 5، ص 30.

(4) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 1، ص 281. المقرئ، السلوك، ج 1، ق 2، ص 91.

(5) الأمير ركن الدين ببيرس الدوادار الخطائي المنصوري، من أكابر أمراء الدولة المنصورية ولّي نيابة السلطة بالديار المصرية، وله تاريخ حسن، توفي سنة 725هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 158.

(6) انظر ببيرس المنصوري، مختار الأخبار، ص 22. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 5، ص 30.

(7) عمر بن المظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المصري، زين الدين ابن الوردي، الفقيه الشافعي الشاعر المشهور، نشأ ببلد (689هـ-749هـ). انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3، ص 272-273.

(8) محمد رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ج 5، ص 377.

(9) ابن الوردي، الديوان، ص 278.

لا تحرصنَّ على فضلٍ ولا أدبٍ فقد يضرُّ الفتى علمٌ وتحقيقُ
ولا تُعدِّ من العقَّالِ بينهم فإنَّ كلَّ قليلٍ العقلِ مرزوقُ
أهلُ الفضائلِ والآدابِ قد كَسَدُوا والجاهلون فقد قامت لهم سُوقُ

ويقول ابن الوردي في موقع آخر، محاولاً إبداء رأيه، والتعبير عن سوء معاملة الأتراك للأدباء، وبخاصة الشعراء وهو يرمز للترك هنا بأولي الأمر من السلاطين⁽¹⁾:

سَلْ اللهَ رَبَّكَ مِنْ فَضْلِهِ اذا عَرَضَتْ حَاجَةٌ مَقْلَقُهُ
وَلَا تَسْأَلِ التُّرْكَ فِي حَاجَةٍ فَأَعِينَهُمْ أَعْيُنَ ضَيْقِهِ

وما من مثال أوضح من اعتقال شيخ الاسلام ابن تيمية، وحبسه ومنع الدواة والقلم عنه، ثم موته داخل السجن، وهو من أهم علماء ذلك العصر، ومن أهم الشخصيات المؤثرة التي تركت أثراً وأعمالاً أدبية كثيرة⁽²⁾.

(1) ابن الوردي، الديوان، ص 277.

(2) انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص 432. ابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، حقَّقه مجموعة محققين، ج 14، ص 89، 96.

الفصل الأول

الصورة الإيجابية للسلطان الناصر محمد ابن قلاوون في أدب العصر المملوكي الأول

أولاً: الإشادة بأسرة آل قلاوون

ثانياً: شجاعته

ثالثاً: هيئته بين الملوك وأمراء الدول المجاورة

رابعاً: صورته الدينية

خامساً: محبة الناس له

سادساً: ذكاؤه وحسن رأيه

سابعاً: كرمه

ثامناً: عدله

تاسعاً: صورته الإدارية

الفصل الأول

الصورة الإيجابية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون في أدب العصر المملوكي الأول

أولاً: الإشادة بأسرة آل قلاوون

يعُود نسب الناصر محمد إلى أسرة قلاوون، التي حكمت دولة المماليك أكثر من مئة عام، وهو ابن السلطان المنصور قلاوون مؤسس هذه الأسرة، تركي الأصل، ورد البلاد في أحسن جلبة، وأبهى وأتم خلقة وخلقا. "ازدحمت عليه عند وصوله -وهو ابن أربع عشرة سنة- أرباب الرغبات وبُذلت فيه الألوف من الذهب، فكان الألفي قامةً، والألفي قيمة، وأنه لأعلى وأعلى، وإن محله لأجل وأعلى"⁽¹⁾.

استلم الحكم والأكف مبسوبة لمبايعته، وكانت البلاد في تلك الفترة مهددة من التتار، فقاتلهم وانتصر عليهم، وفرح الناس بهذا النصر، وتغنى به الشعراء الذين شعروا بالأمن والأمان في ظل حكم المنصور قلاوون، وظلوا على عهدهم له ولأبنائه من بعده، الأشرف خليل، والناصر محمد⁽²⁾.

ورث الناصر محمد المجد والسُّمعة الطيبة، والمُلك والسلطنة، ذكر الدواداري ذلك على لسان أقوى الطيور -العقاب والنسر- الذين أعربوا عن ولائهم للناصر وأخيه من قبله، يقول: "وكيف نلام إذا حلقنا على صُفر الأعلام، وكيف لا يكن منا لهذا الملك الإمام غلام؟ فقال العقاب: أنا من قبلك بهذا البيت أتشرف، إذ كنت لم أزل غلام أخيه الأشرف، فعرف لي هذه الحقوق ولم يبرح باراً لا عقوق"⁽³⁾.

(1) العسقلاني، شافع بن علي المصري، الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية صيدا-بيروت 1998م، ص 25.

(2) انظر المصدر نفسه، ص 82-83.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 86.

ويُصوّر شاعرٌ آخر آل قلاوون، والسَّعد يمشي بين أيديهم، ويعربُ عن البُشرى
بقدمهم، وعن تأييد الناس لهم، مبيّناً أسباب التأييد، يقول⁽¹⁾:

ما سَمِعْنَا من قبلهم بملوكٍ	يسبقُ الرِّيحَ وفدُهم حينَ يسري
بينما قيلَ إنهم في شامٍ	فإذا هم يروُنَ في أرضِ مصرٍ
كيفَ راحوا وكيفَ جاءوا ترانا	حيرةً في أمورهم ليسَ ندري
نحنُ معَهم وليسَ معنا حديث	عنهم بالَّذي من الأمرِ يجري
أتراهم ملايكاً أم ملوكاً	في عفافٍ وفي اختفاءٍ ونصرٍ

ولا شك في أن المدح ضرورة اقتضتها حياة الشعراء، وقد جروا فيها على سُنَّة من
تقدّمهم، لينالوا العطاء الجزل، فلم تكن مدائحهم صور حديثة مبتدعة، بل كانت صوراً متوارثة
عن سبقهم من الشعراء، فمنذ القدم والإنسان يفخر بأبائه وأجداده، كي يتم المدح وتكتمل
الصورة، فإذا مدح الشخص بأجداده وعروقه فقد اكتملت الصورة وتمّ المدح⁽²⁾.

وهذا علاء الدين الوداعي الكندي، يصوّر استبشار الناس بدولة آل قلاوون، التي حازت
الرعيّة فيها على الخير والغيث من الله تعالى، فقال⁽³⁾:

يا أيُّها العالمُ بُشراكمُ	بدولةِ المنصورِ ربِّ الفخارِ
فإلَّلهُ قد باركَ فيها لكمُ	فأمطرَ الليلَ وأضحى النهارِ

ولم تغب رفعة أسرة قلاوون عن أذهان الشعراء، في مدحهم، وتهنئتهم الناصر محمداً
ابن قلاوون، فالمُلك يسمو به، كما سما بأبيه وأخيه من قبله، يقول محمد بن موسى المرعي
الداعي⁽⁴⁾⁽⁵⁾:

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص 90.

(2) انظر عمر موسى الباشا، أدب الدول المتتابعة، دار الفكر الحديث، ط الاولى، 1967م، ص 462، 482، 502.

(3) السيوطي، حسن المحاضرة، ج 2، ص 116.

(4) وجدت الاسم محمد بن موسى المقدسي، شرف الدين محمد بن موسى بن محمد بن خليل القدسي، كاتب الانشاء بالديار المصرية كان كاتباً بارعاً ناظماً ناثرأ، ت712هـ. انظر الصفدي، أعيان العصر، ج5، ص284. الوافي بالوفيات، ج5، ص94. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج5، ص38. عمر فروخ، تاريخ الادب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ج3، ص722.

(5) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 192.

تَهَنَّأتِ الدُّنْيَا بِمَقْدَمِهِ الَّذِي أَضَاعَتْ لَهُ الْآفَاقُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
وَأَمَّا سِرِيرُ الْمَلِكِ فَاهْتَزَّ رِفْعَةً لِيَبْلُغَ فِي التَّشْرِيفِ قَصْدًا وَمَطْلَبًا
وَتَأَقَّ إِلَى أَنْ يَغْلُو الْمَلِكُ فَوْقَهُ كَمَا قَدْ حَوَى مِنْ قَبْلِهِ الْأَخَ وَالْأَبَا

وَيَصَوِّرُهُ مُحَمَّدُ الْمَنْبِجِيُّ وَقَدْ وَرِثَ عَنْ أَبِيهِ الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ، خَيْرُ مُلُوكِ التُّرْكِ، الرِّفْعَةُ
وَالْمَجْدُ، يَقُولُ⁽¹⁾:

بِالنَّاصِرِ الْمَلِكِ الْعَالِيِّ الرَّكَّابِ فَتَى الْمَنْصُورِ خَيْرِ مُلُوكِ التُّرْكِ وَالْخَزَرِ⁽²⁾
وَخَيْرُ مُلُوكِ التُّرْكِ قَدْ أَوْرَثَ سِيرَتَهُ الْحَسَنَاءَ لِأَبْنَائِهِ، فَهَذِهِ السَّيْرَةُ لَمْ يَسْبِقْ لِأَهْلِ التَّوَارِيخِ
أَنْ كَتَبُوا مِثْلًا لَهَا، كَمَا يَبْدُو فِي قَوْلِ الْمَنْبِجِيِّ:

فَأَنْتَ مِنْ ذِكْرِهِ بِالْبَاسِ شَاعٍ وَبِالْإِقْدَامِ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّفْعِ وَالضَّرَرِ
وَذَكَرُ سِيرَتِهِ الْحَسَنَاءَ مُشْتَهَرٍ فَقَدْ غَدَتْ غُرَّةً فِي أَوْجِهِ الدَّهْرِ
مَا أَرَخُوا قَبْلَهَا مِثْلًا لَهَا أَبَدًا أَهْلُ التَّوَارِيخِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرِ
نَشَأَتْ فِي حِجْرِ هَذَا الْمَلِكِ مَرْتَضِعًا لَشَدِيدِهِ غَيْرِ مَفْطُومٍ مِنَ الصَّغَرِ

وَتَبْدُو هَذِهِ الْمَعَانِي فِي شَعْرِ الشَّاعِرِ نَاصِرِ الدِّينِ بْنِ النَّقِيبِ⁽³⁾، إِذْ قَالَ مُمَجِّدًا أُسْرَةَ
قَلَاوُونَ، وَجَاعِلًا النَّاصِرَ وَرِثَ هَذَا الْمَجْدِ⁽⁴⁾:

مَلِكٌ شَرَفَ الْمَمَالِكِ وَالْعَصْرِ وَأَوْفَى عَلَى الْمُلُوكِ وَزَادَا
مَنْ أَبُوهُ قَلَاوُونَ، الْمَلِكُ الْأَعْظَمُ كَانَتْ لَهُ الْمَعَالِي بِلَادَا

وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ صَفِي الدِّينِ الْحَلِّيُّ، إِذْ بَيَّنَّ أَنَّ الْمَنْصُورَ قَلَاوُونَ، قَدْ أَوْرَثَ النَّاصِرَ
مُحَمَّدًا، كُلَّ صِفَاتِ الْعِظَمِ وَالْمَجْدِ وَالشَّجَاعَةِ، فَهُمْ قَوْمٌ لَا يَهَابُونَ الْحُرُوبَ، وَلَا يَحْسِبُونَ لِلْعَدُوِّ أَيْ

⁽¹⁾ الدَّوَادَارِيُّ، كَنْزُ الدَّرَرِ، ص 195.

⁽²⁾ الْخَزَرُ: جِيلُ خَزَرِ الْعِيُونَ أَيْ ضَيْقَةُ. انْظُرِ الْمَعْجَمَ الْوَسِيطَ، أَخْرَجَهُ جَمَاعَةٌ، أَشْرَفَ عَلَى طَبْعِهِ عَبْدُ السَّلَامِ هَارُونَ،
مَطْبَعَةُ مِصْرَ، 1960م، ج 1، ص 230، بَابُ الْخَاءِ.

⁽³⁾ نَاصِرُ الدِّينِ أَبُو مُحَمَّدٍ حَسَنُ بْنُ شَاوَرِ بْنِ طَرْخَانَ الْكِنَانِيِّ، الْمَعْرُوفُ بِابْنِ النَّقِيبِ، الشَّاعِرُ الْمَشْهُورُ، لَهُ نَظْمٌ كَثِيرٌ،
ت 687هـ. انْظُرِ ابْنَ حَبِيبٍ، تَذَكُّرَةُ النَّبِيِّ، ج 1، ص 117.

⁽⁴⁾ الدَّوَادَارِيُّ، كَنْزُ الدَّرَرِ، ج 9، ص 195.

حساب، يخوضون الحروب ويُقبلون عليها إقبال المتلهف المشتاق، فهم الشجعان البواسل وهذه الصفة من أهم صفات المدح عند جميع الشعراء، في كل العصور، يقول⁽¹⁾:

أَبْقَى قَلَاوُونَ الْفَخَارَ لَوْلَدِهِ	إِرْتَاءً، وَفَازُوا بِالْتَّئَاءِ مَكَاسِباً
قَوْمٌ إِذَا سَنِمُوا الصَّوَّافِينَ صَيَّرُوا	لِلْمَجْدِ أخطَارَ الْأُمُورِ مَرَاكِباً
عَشَقُوا الْحُرُوبَ تَيْمَنًا بَلَقَى الْعِدَا	فَكَأَنَّهُمْ حَسَبُوا الْعُدَاةَ حَبَائِباً
وَكَأَنَّمَا ظَنُّوا السُّيُوفَ سَوَالِفاً	وَاللَّدُنْ قَدًّا، وَالْقَسَى حَوَاجِباً

ولم يكن أحد يغفل آل قلاوون، وسيرتهم المشرفة، فكانت تصل السلطان الناصر محمداً الرسائل، مقترناً فيها مدح والده، ذاكرين صفاته مطيلين بها، ففي مطلع كتاب وارد عن صاحب فاس، أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق⁽²⁾، إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وبعد أن عدّد مناقب السلطان، وصفاته المشرقة، قرّن صفاته بصفات والده، حيث قال: "ابن السلطان الكبير، الجليل، الشهيد، الشهير، الخطير، العادل، الفاضل، الكامل، الحافظ، الحافل، المؤيد، المظفر، المعظم، المبجل، المكبر، الموقر، المعزّز، المجاهد، المرابط، المثابر، الأوحد، سيف الدين قلاوون، أدام الله فضل عزمه بتأييده"⁽³⁾.

ويفخر ابن عبد الظاهر، بالسلطان محمد بن قلاوون، بعد تحقيقه النصر على التتار، فيكتب مصوراً شجاعته، ومُصَوِّراً فرح والده به، وفخره بمن خَلَفَ وراءه، وانشراحه بهذا الخلف، يقول واصفاً الناصر أمام قبر والده يبشّره بهذا النصر، ويُعَلِّمه أنْ أمله به ما خاب: "وصعد -خَلَدَ اللهُ مُلْكَهُ- تربة والده، وأنوار النصر على أعطاف مجده لائحة، ودخلها فلولاً خرقُ العوايد لنهض من ضريحه وصافحه وشكر مساعيه، التي اتّصلت بها أعماله، وكيف لا، وهي أعمالٌ صالحة، وقصّ مولانا السلطان -خَلَدَ اللهُ مُلْكَهُ- عند قبره المبارك، من غزوته أحسن القصص، وأسهم له في بركة جهاده أوفر الحصص، فلو استطاع -رحمه الله- أن ينطق لقال:

(1) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 97-100.

(2) هو السلطان المنصور بالله، سيد بني مرين على الإطلاق، بربري، من أصل عربي، انقضت على يده دولة الموحدين بني عبد المؤمن، وكان قد استقل شر الإفرنج، في الأندلس، فقام لإنجاده بنفسه، توفي بقصره في الجزيرة الخضراء في الأندلس ولم يذكر الفلقشندي سنة وفاته. انظر الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 8، ص 89.

(3) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 8، ص 89.

"هذا الولدُ البارُّ، والملك الذي خلفني، وزاد في نصرة الإسلام، وكسر التتار، ولو تمكن -رضي الله عنه- لأخبره بما وجده من ثواب الجهاد"⁽¹⁾.

وكان الناصر محمد الابن الذي أَرْضَى والده بأعماله، فهو صورة أبيه والغرس الطيّب ينبت طيباً، فهو من غرس طيّب، والابن امتداد لوالده، ورث عنه المجد والملك والشجاعة والكرم، كما صورّه الشاعرُ، قائلاً⁽²⁾:

تَرَبُّ العُلا ابن أبيه سَطْوَةٌ وندى	أبو الوُفودِ أخو الغُرِّ المناجيدِ
أغر يُعربُ في أفعالِ نائله الحُسنى	ويعربُ عن طيبِ المواليدِ
زاكي المغارس، نهابُ الفوارس	وهَابُ النَّفائسِ ما شئتُ بتعديدِ

فكيف لا يحوز هذا الابن على رضى والده، وهو الذي سارَ على هداه، ورفع سيرة بيت قلاوون، بهذا يتابع صفي الدين الحليّ شعره مصوراً الناصر، بقوله⁽³⁾:

أَحْيَيْتَ يَا ابْنَ الشَّهيدِ المَلِكَ مَفْخَرَةً	فيا رِضى والدٍ عَن خَيْرِ مَوْلودِ
وَشَيَّدْتَ بَيْتَ قَلاوونَ فَعِشْ لَهُ	في ظِلِّ مُلْكٍ عَلَى الْآفاقِ مَمْدودِ

أعرب الأدب عن أحقية الناصر محمد بالملك والحكم، لأنه لم يأخذ هذا الملك بالقوة، بل ورثه عن أبيه وأخيه، فلا يجوز لأحد أخذه منه، لذلك نرى الأدباء يركزون على ذِكرِ أحقيّته بالملك، ويبرّرون هذا الحق، ويوضحون هذه السيادة، فهم يرونه جدير بهذا، وإلى الأبد، يقول الشاعر محمد موسى الداعي⁽⁴⁾:

يا وارِثَ المُلْكِ المُعظَّمِ تَهَنّهُ	واعلَمَ بأنَّكَ: لم تَسُدْ فيه سُدَى
مِنْ صِنوِ أَسلافٍ ورثتَ سَريرَهُ	فوجدتَ مَنْصِبَهُ السَّميَّ مُمَهّدا
يا ناصراً مِنْ خَيْرِ مَنْصُورٍ أَتى	كمُهَنّدٍ خَلْفَ الغداةِ مُهَنّدا

(1) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1039.

(2) العيني، عقد الجمان، ج 3، ص 456.

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 456.

(4) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 192-195.

ولهذا هاجم الأدباء من اغتصبوا الملك منه، وصوروا الملك موحشاً بغيبته، ويتابع محمد موسى الداعي تصوير موقف الناس الذين بايعوه وينتظرون عودته الى حقه المغتصب، يقول: (1)

آنست ملكاً كان قبلك موحشاً وجمعت شملاً كان منه تبدداً
فالناس أجمع قد رضوك مليكهم وتضرعوا أن لا تزال مخلداً

ويرى الحاكم بأمر الله، أحمد بن أبي الربيع سليمان⁽²⁾، الناصر محمداً، مؤهلاً لمهمة السلطنة وهو الأحقُّ بها من غيره، فما الذي أهله في نظره؟ يذكر ذلك في كتاب العهد مؤكداً أنه ورث المجد والكرم والشجاعة، وكيف لا؟ وهو ابن السلطان الأعظم، الذي ترك مجداً لا يمكن أن ينسى، يقول: "الحمد لله الذي أقام ناصر الإسلام وأهله، بخير ناصر، وأحل في السلطنة المعظمة، مَنْ استحقها بذاته الشريفة، ووضع الإصر⁽³⁾ مِمَّنْ كُثِرَتْ منه، ومن سلفه الكريم على الرعايا الأواصر⁽⁴⁾، وعقد لواء الملك لمن هو واحد في الجود، ألف في الوعى، ففي حاله تُعَقَّدُ عليه الخناصر... وارث البلاد والعباد، صفوة ذرية ورثوا السيادة كابراً عن كابر... كنت أيُّها السيّد، العالم، العادل، السلطان الملك، الناصر... أولى الأولياء بالملك الشريف، لما لسلفك من الحقوق، وما أسلفوه من فضل لا يحسنُ له التناسُ ولا العقوق، ولأنك جمعت في المجد بين طارق وتالد، وفقت بزكي نفس وأخ ووالد وجلالة، ما ورثتها عن كلاله وخلال، مالها بالسيادة إخلال ومفاخر، تكاثر البحر الزاخر، ومآثر أعجز وصفاها الناظم والناثر"⁽⁵⁾.

ويُتابع مُصَوِّراً عظمة هذا البيت الحاكم، فكُلُّ ما ذهب منهم بطل، خَلَفَهُ أبطال، وكلما غاب منهم نجم، تبعته أقمار، كيف لا؟!، وهم ذُرِّيَّةٌ صالحة، انتقاها الله تعالى، و مَنْ فيها على المسلمين، فكيف لا يخضعون تحت ظلال سيوفهم، وهم مُغمَرونَ بكرمهم وعطائهم، ويعيشون

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص195.

(2) أمير المؤمنين، أبو الربيع، المستكفي بالله، ابن الحاكم بأمر الله، الهاشمي العباسي البغدادي الأصل، المصري المولد، سليمان بن أحمد بن الحسن بن أبي بكر بن علي شهد معركة شقحب مع السلطان الناصر محمد، وحنق عليه السلطان، وأسكنه وأولاده القلعة، ثم نفاه إلى قوص، ت740هـ. انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 2، ص 419-421.

(3) الإصر: العهد المؤكد. انظر المعجم الوسيط، ج1، ص19، باب الهمزة.

(4) الأواصر: المنن والعطايا، والأواصر: المرتفع من الأرض. انظر المعجم الوسيط، ج2، ص1048.

(5) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 10، ص 61-62.

في حمايتهم، ويفخرون بمهابتهم، ويستتيرون بنور ضيائهم، يقول: "لأن البلاد فتوحاتُ سيوفكم، رعاياها فيما هم فيه من الأمن، والخير بمنزلةِ ضيوفكم، ولأنَّ العساكر الإسلامية، أسترَقَهُم ولاؤُك، ووالوُكَ لأنَّهم أرقاؤُك.... وعرفك سريرُ المُلِك، وعرفَ فيك من أبِيكَ شمائل، لتَعْلَمَ أَنَّ الله قد جعل الأيَّامَ الشريفةَ الحاكيمةَ أدامها الله تعالى، فلَكَ أبدى سالفاً، من البيت الشَّريف المنصوري، أقماراً وأطلع منهم أنفاً بدرأ، ملأ الخافقين أنواراً، فكَلَّمَا ظهرت لسلفه مآثرِ بَدَتِ مآثرُ خلفه أظهر، ومَنْ شاهدَهُمْ، وشاهدَ شمسَ سعادته المنزهة عن الأفول، قالَ هذا أكبر، وكلَّمَا ذُكِرَ لأحدهم فضلٌ، عَلِمَ أَنَّهُ في أيَّامه متزَيِّدٌ، وَأَنَّهُ إن مضى منهم سيِّدٌ في سبيله، فقد قامَ بأطراف الأُسنة منهم سيِّدٌ وصيِّرَ الدولة الشريفة الخليفةَ غاباً، إن غاب منهم أُسود، خَلَفَهُمْ شِبْلٌ بِشَّرت مُخايلُهُ أَنَّهُ عليها يَسُودُ"⁽¹⁾.

فأَيُّ سعادة تسود المسلمين في ظلال هذه الاسرة المالكة، وأَيُّ أَمْنٍ يسود البلاد وهي محروسة بأسود بني قلاوون، هكذا يستمر الأدب بعرض هذه المآثر والفضائل لبني قلاوون.

فمن مظاهر الافتخار بآل قلاوون، التي ذكرها الأدب شعراً ونثراً، صورة الأبطال المجاهدين، المؤيدين من الله تعالى، المنصورين والناصرين لدين الإسلام، ولهذا صوَّرهـم الشاعر جمال الدين أبو بكر، وقد نصَّروا من الله تعالى، لأنَّهم اشتروا الولاء والإيمان، وأخلصوا العمل لوجه الله، وهذه ايضاً صورة أخرى يسقطها الأدب على آل قلاوون، وهي صورة الايمان والولاء للمسلمين ودينهم، وهذا ما له أكبر الأثر في نفوس الرعية، يقول⁽²⁾:

وقاهم الله ما أوفاهم نفرُ	وفاكم بعزيرِ النصر في نفرِ
من أجلِ ذا ظَهَرَ الإسلامُ مَدْ ظَهَرُوا	قد أَبْطَنُوا أَنَّهُم جادوا بأنفسِهِم
وكابدُوا في مَجالِ الموتِ واصْطَبَرُوا	كم فرَجُوا مآزِقاً ضَنْكاً بمعتَرِك
فإنَّهُم بالأَيادي البِيضِ قد غَمِرُوا	فبِيضَ الله مِنْهُم أَوْجُهاً كَرَمَتْ
في ذِمَّةِ الله إن غابُوا وإن حضرُوا	وحاطَهُم أَيْنِما كانوا ولا بَرِحُوا

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 10، ص 63-64.

(2) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 100.

وهذا الخليفة أحمد بن أبي الربيع سليمان، يُذكر الناصر محمداً بالجهاد وما كان لأسلافه فيه من ذكرٍ جمٍّ، ويدّ طولى، حاثّاً إِيَّاه على متابعة خط السلف، ومواصلة الجهاد، يقول: "وقد عَرَفْتُ سُنَنَ السُّلْطَانِينَ الشَّهِيدِينَ، والدِّكَ وأخِيكَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُمَا- في الاعتناء بجهاد الكُفَّار، وغزوهم في عَقْرِ الدَّار، وموقف أحدهما في موطن زَلَّت فيه الأقدام عن الإقدام، واجتمع فيه الكُفْرَ على الإسلام، وشاب من هوله الوليد... وَأَنَّ والدَكَ وأخاك سَدَا على المشركين الفِجَاج، وطَهَّرَا من أرجاسهم العَذَبَ الفرات، والملح الأجاج، فالكتائب المنصورية، أبادت التتار بالسيوف المشرقية، والممالك الإسلامية، زَهَتْ نظاماً بالفتوحات الأشرفية، فاجتَهَدُ في إعلاء كلمة الدِّين أتمَّ اجتِهَاد، وعزَّزَها بثالث في الغزو والجهاد"⁽¹⁾.

ويصور علاء الدين عبد الظاهر، آل قلاوون، مُؤدِّين فرض الجهاد من أوّل الزّمان إلى آخره، كما يصور الناصر محمداً وقد سار على درب أسلافه، قائلاً: "الحمد لله الذي أَيْدَ الدِّين المُحمَّدي بناصره وحمل حماه بمن مضى هو وسلفه، بأداء فرض الجهاد، في أوّل الزمان وآخره، وجعل من الذريّة المنصورية مَنْ يُجَاهِد في الله حقَّ جهاده، ويسهر في سبيل الله، فيمنع طرف السيِّف أن يغفى في أغماده"⁽²⁾.

ويربط علاء الدين بين البطل الناصر محمد، وبين أبيه المنصور، ليؤكد أنّ الانتصارات متجدّدة مستمرة، وأنّ القادة يرثون القوّة والشجاعة عن آبائهم، فالعقيدة واحدة، والهدف واحد، يقول: "وبعد: فإنّ الوقائع التي عَظُمَتْ آثارُهَا.... وسَطَّرَهَا اللهُ تعالى في صحائف مولانا السلطان، الملك الناصر... فأورثه به ظَفَرًا مُخَلِّدًا لا يفنى، وإن طالَ المدَا والأمد، واشتبه في وَثْبَاتِهِ وَتَبَاتِهِ بها أبَاه رضي الله عنه، والشَّيْلُ في المجد مثل الأسد"⁽³⁾.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 10، ص 67.

(2) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1027.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1027.

وَيَصَوِّرُ الشَّاعِرُ نَاصِرَ الدِّينِ بْنِ الْعَسْقَلَانِيِّ⁽¹⁾ آلَ قَلَاوُونَ وَقَدْ ازدهر الإسلام في ظل حكمهم، يقول⁽²⁾:

لَخَيْرٍ أَرَادَ اللَّهُ مُلْكَ قَلَاوُونَ فَأَحْيَا بِهِ الْإِسْلَامَ وَالْمِلَّةَ الْغَرَّ

هكذا أشاد الأدب بآل قلاوون، وأظهر الفخر باعتلائهم كرسي الحكم، مظهرًا فضلهم على الإسلام والمسلمين، من المنصور قلاوون مؤسس دولة آل قلاوون إلى باقي سلاطينهم، مروراً بالناصر محمد، الذي كان من أبرزهم، وأعظمهم، حتى جعله الأدب وارثاً هذه العظمة من والده، "المنصور قلاوون"، ومورثها إلى أبنائه من بعده، وبيّن أنهم يستحقون هذا المجد، وهذه السيادة، لدورهم الفاعل في حماية الإسلام وديار المسلمين، ومدحهم الأدب بذكر فضائلهم فكان العقل، والشجاعة، والعدل والعفة أمهات المدح⁽³⁾.

ثانياً: شجاعته

تصّف الملك الناصر بالشجاعة، فقد أشاد به المؤرخون قبل الأدباء فكانت أول جملة تُكتب عنه: "السلطان الأعظم"، "من أعظم ملوك الأتراك"، وقيل فيه أيضاً: "كان ملكاً عظيماً، دانت له البلاد، وأطاعته العباد"⁽⁴⁾.

يقول فيه الصفدي: "استقرّ في الملك، ولم يُشهر في وجهه سلاح....."⁽⁵⁾.

(1) القاضي ناصر الدين شافع بن علي بن حسن بن العسقلاني الكناني، باشر الانشاء بمصر الى أن أضر، لإصابته بسهم فعُمي، له نظم كثير، ونثر كبير، وله ديوان شعر، ت730هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2، ص208. مأمون فريز جرار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع الى القرن التاسع للهجرة، مكتبة الأقصى عمان - الأردن 1983م، ص59.

(2) مأمون فريز، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص123.

(3) انظر إحسان عباس، تاريخ النقد عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري. دار الشروق للنشر والتوزيع. عمان - الأردن 1986م.

(4) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج5، ص73. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2، ص323-324. الدواداري، كنز الدرر، ج8، ص352.

(5) الصفدي، أعيان العصر، ج5، ص75.

ويقول فيه محمد شاكر الكتبي: "كان ملكاً عظيماً، دانت له البلاد، وملك الأطراف بالطاعة"⁽¹⁾.

ظهرت شجاعة الناصر في معظم قصائد المدح والثناء، وكانت من أكثر الصفات بروزاً في الأدب، إذ كانت هي الصفة المطلوبة والمرجوة في سلطان المسلمين على مر العصور، إضافة إلى الحكمة والذكاء، التي طلبها الأدباء لتكتمل الصورة، فهذا الدواداري يجعله كاملاً في الشجاعة، وهذا الكمال هبة من الله تعالى عليه، قال فيه: "لم يُعَدَّ قَطُّ إِلَّا فِي طبقات أبناء الملوك وإخاء الملوك، وطبقات الملوك، فكان مبتداه منتهى غيره من الملوك، فهو الذي قيل فيه:

مَلِكٌ بِدَايَتِهِ نَهَايَةُ غَيْرِهِ كَالْبَدْرِ أَوَّلُ مَا يَكُونُ هِلَالاً
كَمَلِ الشَّجَاعَةِ وَالْفَصَاحَةِ وَالْحَجَى فَاللهُ يَكْفِيهِ الزَّمَانَ كَمَالاً"⁽²⁾

وجعله صاحب جأش وقوة وشجاعة، بحيث لا تتغلب عليه المصاعب، ولا تهينه الشدائد، وهو ذو ثبات ورسوخ في أشدّ المواقف، يقول فيه⁽³⁾:

لِلَّهِ صَدْرٌ لِلْإِمَامِ كَأَنَّمَا أَقْطَارُ طَاعَتِهِ بِهِ قَطْمِيرٌ⁽⁴⁾
تَتَرَاخَمُ الْأَضْدَادُ فِيهِ وَتَتَنَبَّى عَنْهُ وَلَيْسَ لَوْفَعِهَا تَأْثِيرُ
وَأَثَبْتُ مَا تَرَاهُ نُهًا وَجَاشًا إِذَا دُهِشَ الْمَشَاوِرُ وَالْمُشِيرُ

وأظهر الشعراء إعجابهم بهذه الخصلة المطلوبة في سلطان المسلمين، وأشادوا كثيراً بها، فرسموا ضروباً من الصور الشعرية الصادقة، مبينين مظاهر هذه الشجاعة وتجلياتها، فكانت ساحات الحرب، أسمى المواقف التي ظهرت فيها الشجاعة، وبخاصة إذا حقق الناصر نصراً، بعد هزيمة، وأنقذ المسلمين من ويلات السيطرة، وهذا ما حدث في "معركة مرج الصفر"، سنة 702هـ، حيث حقق الناصر فيها نصراً عظيماً، على قوة التتار، فشئت شملهم،

(1) الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، ج4، ص 35.

(2) الدواداري، كنز الدرر، المجلد الثامن، ص 353.

(3) نفسه، كنز الدرر، الجزء التاسع، ص 236.

(4) القطمير: القشرة الرقيقة على النواة كاللّفافة لها. انظر القاموس المحيط، مادة قطم.

وأفنى جُودَهم، ممّا جعل الشعراء والأدباء والمؤرّخين، يلتفّون حول الناصر، مشتركين في تقدير هذا النصر وتسجيل هذه البطولة، مصوّرين السلطان، والجيش، والمعركة والأحداث.

فهذا الشّاعر إبراهيم بن علي بن خليل، المعروف "بعين بصل"، يصوّر الناصر محمداً وقد تطلّعت إليه الأنظار، لترى تفنّنه في الشجاعة، وتشهد له المعركة، فلا رمى رمحاً إلاّ وأصاب، ولا سلّ سيفاً، إلا واستقرّ في قلب العدو، ويطلب من المتلقي أن يسأل موقع المعركة لعلّه يُخبره بهذه الشجاعة التي لم يشهد لها مثيلاً، يقول⁽¹⁾:

سَلِ الْمَرْجَ يَوْمَ الْحَرْبِ عَنْ حِمْلَاتِهِ وَقَدْ شَخَصَتْ فِيهِ إِلَيْهِ النَّوَاطِرُ
فَلَا رُمَحَ إِلَّا وَهُوَ لِلصَّدْرِ طَاعِنٌ وَلَا سَيْفَ إِلَّا وَهُوَ لِلْهَامِ بَاتِرٌ

ولم يكن السلطان إلاّ في موقع قلب المعركة، حتى إذا حمي الوطيس تراه يُبدي بطولته، ويتفنّن بالقتال، يصول ويجول بين صفوف المقاتلين، وقد شهد له ابن حبيب، عندما وصف المعركة وأحداثها، فقال: "وكان في القلب، الملك الناصر محمد بن قلاوون"⁽²⁾.

ويصوّر الشاعر علي بن أبي سودة الحلبي⁽³⁾، شجاعة الناصر في المعركة، وقد حمل على الأعداء، فحلّ بهم البلاء، وتشتّتوا وتفرّقوا، وتحقّقوا من الموت، يقول: "وتقدّمت العصائب، وحمل عليهم السلطان، فحلّ بهم البلاء من كلّ جانب، وانقلبوا على أعقابهم خائبين، وزلزلت أقدامهم، وأيقنوا بالهلاك، وحلول الأجل..."⁽⁴⁾.

(1) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 250. انظر مأمون فريز جزار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 229.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 246.

(3) بهاء الدين أبو الحسن، علي بن أبي سودة الحلبي، صاحب ديوان الإنشاء بحلب كان رئيساً فاضلاً، وله يد في النظم والنثر، توفي في رجب سنة 714هـ، وهو في السبعين من العمر. انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 2، ص 485. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 59. رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص 43.

(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 248.

ويُتابع مُصَوِّراً شجاعة السلطان، الذي جعل سيفه في أعناق العدا، ليكون أول الشجعان الطاعنين، يوم يشتد القتال، وينذرُ الرِّجال، مستخدماً الفعل "يفني" ليتوصل إلى المعنى الذي أراده، وهو الفناء والهلاك، بسيف الناصر، يقول⁽¹⁾:

ضربَ أعناقَ العدا فحسامه	للمعتدي ونواله للمجتيدي
وتراه أول طاعن يوم الوغى	والخيل يعثر بالوشيح الأملد ⁽²⁾
الناصر المنصور دام مؤيداً	يفني المغول بلهزم ومهتد

وقد استخدم غيرُ شاعر الفعل "أفنى" للتعبير عن أثر حروب الناصر في أعدائه ومنهم الشاعر صفي الدين الحلّي، يصوِّرُ الناصرَ، وقد أفنى الأعداء، بسيفه الصارم البتّار، الذي لا يعود إلى غمده إلا بعد أن يسلب أرواح الأعداء، يقول⁽³⁾:

لا ينفَعُ التجريبُ خصمك بعدما	أفنت من أفنى الزمان تجارباً
صرمت شمل المارقين بصارم	تبديه مسلوباً فيرجع سالباً

وكان لثبات الناصر في المعركة صورةً بطولية، ومظهرٌ من مظاهر شجاعته صوّرها علاء الدين علي بن عبد الظاهر، الذي جعل السلطان يخوض غمار المعركة ولم يصحب معه إلا سيفه البتّار، يقول: "والسلطان قد ثبت، في موقف المنايا، حتى كأنه في جفن الردى وهو نائم... وقابل العدوَّ بصدّره وقاتلَ حتّى أفنى حديد بيضه وسمره، وخاطرَ بنفسه، والموت أقربُ إليه من حبل الوريد.... ولم يستصحب إلا سيفه المبيد.... ويرى غمرات الموت ثم يزورها..."⁽⁴⁾، وهو هنا أيضاً يستخدم الفعل "يبيد" ليتوصل إلى المعنى نفسه، الذي توصل إليه غيره من الشعراء، وهو الفناء والهلاك بسيف الناصر.

ويتابع ابن عبد الظاهر، تصوير السلطان، وكأنه وحده في المعركة، يجول ويصول، يقتل هذا، ويذبح ذاك، ويقتحم هذا الجمع فيُشتتُه، ويرتدّ إلى تلك الرؤوس، فتسقط على الأرض

⁽¹⁾ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 250.

⁽²⁾ الأملد: السفينة المشحونة والذي ملئ من خير أو شر. انظر القاموس المحيط، ج 1، ص 25.

⁽³⁾ صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 96.

⁽⁴⁾ المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1031. وانظر جلال يوسف حسن العطاري، النثر الفني في العصر المملوكي الأول، (648-784هـ)، إشراف الدكتور محمود إبراهيم، الجامعة الأردنية، 1995، ص 94-95-117-119.

جماعاً، يقول: "مولانا السلطان، يصطحب من دمائهم كما اغتبق، ويرميهم عزماً ينثر عِقدَ اجتماعهم الذي انتظم وأنسق، ويُفهمهم أنه لا مردَّ له عن مُراد الصوارم، وأنه لا يُفارق الخيل حتى يجعل عوض الحجارة جماجم"⁽¹⁾.

ويستخدم المعنى نفسه الشاعر ببيرس المنصوري، إذ صورَّ الناصر محمداً وقد شتَّت جَمْعُ الأعداء، وفرَّق شملهم بضرباته، وطعناته التي جعلت دماءهم تلون رايات جيشه الصفراء لتصبح حمراء، يقول⁽²⁾:

وشتَّت شَمْلَهُمْ ضَرْباً وَطَعْناً مَلِكٌ يَنْشُرُ الْأَعْلَامَ صُفْراً
إِذَا مَا أَوْرَدَ الرَّايَاتِ صُفْراً صَدَرَتْ مِنَ الدَّمَاءِ الْحُمْرِ حُمْراً

ويُفخر صفي الدين الحلِّي بشجاعة الناصر، مصوراً إياه وقد خاض المعارك واعتلى منابرها وركب الأخطار، واعتلى منابر المعارك، مسيطراً على مجرياتها محركها لصالحه، يقول⁽³⁾:

وَجَعَلَتْ هَامَاتِ الْكُمَاةِ مَنَابِراً وَأَقَمْتَ حَدَّ السَّيْفِ فِيهَا خَاطِباً
يَا رَاكِبَ الْخَطَرِ الْجَلِيلِ وَقَوْلُهُ فَخْراً بِمَجْدِكَ، لَا عَدِمْتُ الرَّكْبَا
صَيَّرَتْ أَسْحَارَ السَّمَاحِ بَوَاكِراً وَجَعَلَتْ أَيَّامَ الْكِفَاحِ غَيَاهِباً⁽⁴⁾

ومن مظاهر شجاعة الناصر خوف الأعداء منه، حتى صاروا يرمون بعضهم بسهامهم من شدة الخوف في ساحات المعركة، فهذا الشاعر شمس الدين الطيبي يفخر بمصرية الناصر، ويعتزّ بأن هذا الرجل الشجاع، سلطان مصر، يخوض المعركة، والأعداء في خيفة عجيبة، من قوته، يقول⁽⁵⁾:

(1) المقرئ، السلوك، ج1، ق1، ص 1032.

(2) ببيرس المنصوري، مختار الأخبار، ص 131.

(3) صفي الدين الحلِّي، الديوان، ص 98.

(4) غَهَبَ عَنْهُ غَهَبًا، غفل عنه ونسيه والغيهبة: الجَلْبَة في القتال. انظر القاموس المحيط، ج2، ص671.

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 363. رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص 147-

زَلَّتْ عَلَى كَتِفِ الْمِصْرِيِّ أَرْجُلُهُمْ فَلَيْسَ يَدْرُونَ أَنِّي تُؤْكَلُ الْكَتِفُ
رَامُوا سِهَاماً وَلَكِنْ بَالْتَرَاكِشَ وَالْقَسِيَّ (1) خَيْفَةً رَامِيَهُمْ فَهُمْ لَهُ هَدَفُ

ومن مظاهر شجاعته استعداداه الدائم للقتال، فهذا الشاعر شهاب الدين محمود، يجعل الناصر محمداً دائماً الاستعداد للقتال، لا ينزع عنه درع الحرب إلا من أجل الإحرام، يقول فيه عندما توجه للحج بعد المعركة (2):

ظَفِرْتُ بِأَجْرِ الْغَزْوِ وَالْحَجِّ فِي عَامٍ فَلَمْ يُنْضِ دِرْعَ الْحَرْبِ إِلَّا لِإِحْرَامٍ

وظهرت شجاعة الناصر، في رده على رسالة غازان، التي أرسل بها مهدداً متوعداً المسلمين (3)، وبعد النصر تفنن علاء الدين علي بن عبد الظاهر، وتفانى بإظهار شجاعة السلطان وقوته، مصوراً الناصر لا يهابُ المواقف، ولا يُبالي في مواجهة الأكاسر. مستخدماً جميع المعاني التي تؤدي إلى تلك الصورة، هازئاً بغازان وجيشه المنهزمين، يقول مخاطباً غازان: "إنَّ سجية الغدر للهلاك، ومصرع البغي ليس منه فكاك،... فلم تغرب الشمس، حتى فرقناهم على أديم الأرض.... فعندما ندموا حيث لا ينفعهم الندم.... فبادر أيها الملك، إلى حمد الله العادل، الذي لم يُر عينيك هذه المحافل، ومرورها على سمعك أهون من العيان، ونظرك إلى عورات أصحابك يغنيك عن البيان" (4).

ومن مظاهر شجاعة الناصر، انتصاره في مرج الصفر على قوة كبيرة، وجيش عظيم معد بأعظم عتاد وأقواه، لذلك نرى الأدباء قرنوا شجاعة الناصر بشجاعة الأعداء وكثرة عددهم، وعُدَّتْهم، واستعدادهم الدائم للقتال، رغبةً منهم في إظهار قيمة الشجاعة وقيمة النصر، فالشجاع من ينتصر على الشجاع، لذلك نجد علاء الدين علي بن عبد الظاهر يسرُّ أخبار المعركة، ويبالغ في وصف شجاعة التتار، ليتوصل في النهاية إلى أنهم على الرغم من قوتهم، لم ولن

(1) القَسِيّ: ثياب من كتان وحرير كانت تصنع بمصر والشام، مضلعة مزينة. انظر القاموس المحيط، باب القاف.

(2) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 46.

(3) انظر رسالة غازان والرد عليها، نهاية الأرب، ج 31، ص 427-443. القلقشندي، صبح الأعشى، ج 7، ص 266-272.

المقريزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1016-1023. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 136-168.

(4) انظر الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 119-122. جلال يوسف العطار، النشر الفني في العصر المملوكي الأول،

ص 85.

يحرزوا النصر، والناصر مع جيشه، في استعداد دائم، وشجاعة كبيرة، يقول مصوراً قدوم الأعداء إلى ساحة المعركة: "ولما كان بعد الظُّهر أقدم العدو، كالسيوف الحِداد، وجاء كَقَطْع اللَّيْلِ المظلم بهم، لا تكادُ لولا دفعُ الله عن بُزاتها تُحْجَم، متوهماً أنَّ جيشه الغالب، وعزمه القاهر، متحقِّقاً أنَّه منصور، وكيف ذاك ومعنا الناصر..."⁽¹⁾.

ويجعل الدواداري جيش الأعداء، على الرغم من كثرته، وعظم تجهيزاته، إلا أنه هُزم هزيمة نكراء، وأي هزيمة، فهي هزيمة على يد بطلٍ شجاع، لا يُباريه بطل، فلو وقف غازان موقفهم ذاك، لطلب من الناصر محمد الأمان، ولرضخ تحت سيوفه، ورماحه، يقول: "فلما نظروا ما حلَّ بهم من الويل، وقد انحدرت عليهم الجيوشُ الإسلامية، اندارُ السَّيْل، وتحقَّقوا أنَّ لا مَنَاصَ، ولا مِنَ الموتِ خلاصَ، ولاموا بعضهم بعضاً وقالوا: لو كان غازان، بهذا المكان، لطلب الأمان، من سيِّد مُلوك الزَّمان"⁽²⁾.

و يجعل الأعداء منهزمين، حتى في أحلامهم، فهيبة السلطان وشجاعته، وشدة وقع هيئته في نفوسهم، جعلهم لا يستطيعون النوم، وهم في فزع دائم، يقول: "لا زالت أعاديته من هيبة سلطانه، مرتدِّين ضالِّين، غير مهتدين قد سلَّت سيوفُهُ عليهم في اليقظة والأحلام، حتَّى عادوا لا يتلذَّذون بلذِذ المنام"⁽³⁾.

ومن أجمل صُور الشجاعة، التي رسمها الأدب للناصر محمد، صورة الأسد، هذه الصورة الأصْدَق تعبيراً، لبيان شجاعة سلطان المسلمين، ومقارنتها بشجاعة ملك الغابة، وهي صورة تقليدية متوارثة للممدوح يقول ابن إياس: "لما حصلت هذه النصره عمل الأمير بيبرس الفارقاني، القصيدة في الملك الناصر، وقد صورّه "ضرغاماً"، يخوض المعركة، ولا يهاب الموت"⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ انظر النويري، نهاية الأرب، ج 32، ص 31. المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1031.

⁽²⁾ انظر الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 121..

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج 9، ص 130.

⁽⁴⁾ انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 415.

وجعل الدواداري الأسد ملك الغابة، وأشجع الحيوانات، يرى نفسه صغيراً، أمام شجاعة الناصر محمد وثباته، يقول: "ما فعله ذلك اليوم، الملك الناصر، لما نظر الأسد إلى صبره وثباته، صَغُرَتْ عنده نفسه وثباته، وعلم أن ثباته بإقدامه أعظم من وثباته وأقدامه"⁽¹⁾.

وليس الأسد حسب، بل جعل الدواداري الذئب يعترف بضغفه والضبع يشهد على شجاعة هذا السلطان، عندما يمرُّ على جُثث القتلى من الأعداء، فيأكل ويشكر سيف السلطان الذي أقام هذه الوليمة، يقول: "ولمّا عاين الذئب هذه الجسارة، علم أن جسارته بعدها خسارة، فقال الضبعان: لسان حالي يقصر، عن وصف شجاعة هذا السلطان، وإنما أدعو له إذا مشيت، وأنا من وليمة أسيافه شعبان... قال لسان الحال:

ذو راحة وكفّت ندى وكفّت ردى تقضي بهلك عداته وعداته
كالغيث في أروايه وروايه والليث في وثباته وثباته"⁽²⁾

أما محمد المنبجي فقد صور الليث يرضخ رُعْباً من هذا السلطان الشجاع، والسيف يتوارى من حدته، وهو ثابت في مواقف يصعب فيها الثبات، يقول⁽³⁾:

يا مُخْجَل السَّيْفِ عَزْماً وهو مُنْصَلِتٌ والمرعب الليث بأساً وهو مُنْتَصِرٌ
والثَّابِتُ الجَّاشِ والإقدام في دَحْضٍ فيه التَّثَبُّتُ إلا أنه عَسِرٌ

ويصوره الشاعر جمال الدين أبو بكر أسداً، في معرض مقارنته بغازان ملك التتار، هازئاً منه، يقول⁽⁴⁾:

قولوا لغازان يا ذا ما لعلك أن تروغ من مخلب الرتبال يا بقر

وصور الأدب جيش السلطان وشجاعته، وجعل له نصيباً وإفراً من المدح والثناء، كيف لا؟! وهم جيش السلطان محمد بن قلاوون الذي عمل جاهداً لإعداده، وتجهيزه، لتأتي صورة الجيش استكمالاً لصورة القائد المثالية، فقائد شجاع، يملك جيشاً شجاعاً مجهّزاً. فهذا الشاعر

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 85.

(2) المصدر نفسه، ج 9، ص 86.

(3) المصدر نفسه، ج 9، ص 92.

(4) المصدر نفسه، ج 9، ص 95. انظر بيبيرس المنصوري، مختار الأخبار، ص 128. وفيه: "يانغر".

القاضي جمال الدين أبو بكر، يُصوّر أفراد الجيش، ويجعلهم أسوداً تَزْأَر، ورحى الحرب قائمة، شجعاناً يطيّب لهم القتال ويحلو، يقول⁽¹⁾:

لها السَّنَابُكُ في الميدانِ قد حُنِيَتْ	صوالجاً ولها رؤوسُ العدا أكرُ
حتّى أتوا جَلَقاً في يومٍ ملحمة	فيه الأسودُ أسودُ الغابِ تهتَصِرُ
وكوثرُ الحربِ قد رافَتِ مشارِبُهُ	تحت العِجاجةِ والأبطالُ تعتَكِرُ

ويصور محمد المنبجي فناء جيش التتار، على يد الناصر وجيشه الأسود، الأبطال الذين يصعب قتالهم، والتغلب عليهم، يقول ساخراً من جيش المغول، مصوراً إياهم حميراً أمام جيوش المسلمين⁽²⁾:

قابَلَتْهُمْ بِجُيُوشٍ ما لَهُم قَبْلُ	بِبأسِها فَلَقَد قَلَّوا وإن كَثُرُوا
أَفْنَيْتَهُم بليوثٍ مِنْكَ باسِلَةٍ	وهل تقاومُ أَسَادَ الشَّرَى الحُمُرُ

ويصور الشاعر ناصر الدين شافع، ثبات الناصر وجيشه، في المعركة، سبباً أساسياً لتحقيق النصر، والقضاء على الأعداء، يقول⁽³⁾:

ثَبَتَ المَلِيكُ النَّاصِرُ الشَّمَهُمُ	الَّذِي ما زالَ ذا حَزَمٍ وذا ثَبَتٍ
وغَزَا التَّتارَ خَميسُهُ فأبادَهُمُ	لَمّا اعتَدَوْا وأتَوْهُ في السَّبَتِ

ويتناول شمس الدين الطيبي، شجاعة جيش الناصر، فقد أذاقوا جيش الأعداء مرارة الهزيمة، يقول⁽⁴⁾:

دارَتِ عَلَيْهِمِ مِنَ الشُّجْعانِ دائِرَةٌ	فما نَجّا سالماً مِنْهُمْ وقد زَحَفُوا
ونَكَسُوا مِنْهُمْ الأَعْلَامَ فأنهَزَمُوا	ونكصوهم على الأعقاب فأنقصُوا
ساقوهم فسَقُوا شَطَّ الفِراتِ دَمًا	وطمَّهم بِعِبابِ السَّيْلِ فأنجَرُوا

⁽¹⁾ النويري، نهاية الأرب، ج 32، ص 49-50. انظر ابن حبيب، تذكرة النبیه، ج 1، ص 248.

⁽²⁾ الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 92. انظر مأمون فريز جرار، الغزو المغولي، ص 162.

⁽³⁾ ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ج 2، ص 430.

⁽⁴⁾ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 361. ابن حبيب، تذكرة النبیه، ج 1، ص 251. انظر مأمون فريز جرار،

الغزو المغولي، ص 160. راند مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص 132.

ويصفُ الدواداري جيشَ الناصرِ محمداً، عند قدومه الشام لملاقاة التتار، وقد منحهم الله تعالى النصر، وأطلق عليهم "العساكر المحمّديّة"، تيمناً، وتبرُّكاً بالنبيِّ محمّد صلى الله عليه وسلم، ويجعلها تملأ السهل، وتساند ببيرس الجاشنكير⁽¹⁾، الذي شعر بالأمان، عندما رأى هذه الجيوش القوية، يقول الدواداري: "ظهرت السناجق المنصورة، التي عليها آياتُ النصر بالتلاوة مقصورة، ولماً شاهد -ببيرس الجاشنكير- العساكر المحمّديّة، حمدَ الله تعالى، ربّ الفلق، وزال ما كان اعتراه من القلق، والجيوش المنصورة، قد طبّقت سهول الأرض مع جبالها"⁽²⁾، وتقترن في هذه الصورة الشجاعة، والكثرة، والدين مع بعضها البعض لتكون هذه الجيوش مؤهلة للنصر.

ويعترف الشعراء، ويصرحون بقوة جيش السلطان وشجاعته، وقدرته الفائقة على القتال وهزيمة الأعداء، ويجعلونه لا ينتصر إلا إذا قاده الناصرُ محمداً، لأنَّ شجاعة الناصر هي التي تجلب النصرَ للمسلمين، فهو قادر على ملاقاته الأعداء وحده، ولو كانوا أشدَّ الأعداء وأقواهم، يقول ببيرس المنصوري⁽³⁾:

وما سارت ركابك في جيوش	فعدا بخيبة أو خاف كسرا
ولا وليت عن حرب هزيمة	ولو كان اللقاء بجيش كسرى
ولا صاحبت ركبا في مسير	فقال مشقة أو ذاق عسرا
وجدك سعدة أبداً جديداً	وسعدك جالب للترك نصرا

وفي تصوير الأدب لشجاعة جيش السلطان، لا يغفل تصوير شجاعة الخيل المشاركة في المعركة، فهي خيول الناصر، حيث ذكر الأدب حبّه اقتناء الخيول الأصيلة، والاعتناء بها، فكان أول من اتخذ من ملوك الأتراك ديواناً للإسطبل عمل له ناظراً وشهوداً وكتّاباً لضبط أسماء الخيل، وشيائها (أي لونها)، وكلّ أحوالها، وكانت له معرفة بالخيّل، وأنسابها، وذكر من أحضرها، وأثمانها وكان إذا أراد فرساً يقول للأمير: "هات الفرس الفلانية، التي أحضرها فلان،

(1) ببيرس البرجي العثماني، الملك المظفر، كان من مماليك المنصور قلاوون، وكانت له في واقعة شقحب اليد البيضاء، وبأشر القتال بنفسه، فأبلى بلاءً حسناً. انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 2، ص 36-37.

(2) انظر الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 96، ص 84.

(3) ببيرس المنصوري، مختار الأخبار، ص 129-130.

واشتريناها بكذا وكذا"، وكان يقول في الفرس: "هذه فلانة، بنت فلانة، أو فلان ابن فلانة، عمرها كذا، وشراء أمها بكذا، وشراء أبيها كذا"⁽¹⁾. لذا كان مدح صفى الدين الحلي للسلطان، مقرونًا بمدح الخيل، لأنه على علم أن شجاعة هذه الخيول، إنما هي من شجاعة سلطانها، الذي دربها حتى أصبحت بهذه الخفة، وساسها حتى أصبحت بهذه الشجاعة، فيصيب الشاعر في الوصف، ويرسم أجمل صورة لخيول السلطان، وهي تسرع به نحو المعركة، كسرعة الطلقات دون خوف ولا تراجع، وهي حريصة كل الحرص على فارسها: فهي خيول أصيلة مدربة، تصول بفارسها بخفة ورشاقة، يقول⁽²⁾:

وَبَرَزْتَ تَلْفِظُكَ الصُّفوفُ إِلَيْهِمْ	لَفْظَ الزَّيَادِ سَوَاطِعَ النَّيِّرَانِ
بَأَقْبٍ يَعْصِي الْكَفَّ ثُمَّ يُطِيعُهُ	فَتَرَاهُ بَيْنَ تَسْرُعٍ وَتَوَانٍ
قَدْ أَكْسَبَتْهُ رِيَاضَةٌ سَوَاسُهُ	فَتَكَادُ تَرْكُضُهُ بَغِيرَ عَنَانٍ

وهذا الشاعر محمد المنبجي، لما رأى شجاعة السلطان الناصر، وشجاعة جيشه وخيله، يطلب منه أن يغزو العدو في بلادهم، ويجعل هذا أمله وأمل المسلمين جميعاً، فهذا السلطان وهذا الجيش قادرٌ على هزيمة القان، وهذه الصورة المثالية التي يرسمها الأدب للسلطان المنتصر، تبتُّ الثقة في نفسه وفي نفوس جيوشه، حتى تظلُّ كما عهدتها الشعراء قوية مستعدة، تستطيع تلقين العدو درساً لن ينساه أبداً، فهزيمته النكراء أذاقته مرارة وكأنها عذاب يوم القيامة، يقول⁽³⁾:

هُوَ الْقَائِدُ الْجَيْشِ الْعَرَمِمْ خَلْفَهُ	إِلَى الْقَانِ فِي مَوْغَانٍ يَطْلُبُهُ جَهْرًا
عَسَاكِرُ مَلِكِ الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ	تَجْمَعْنَ حَتَّى فَاقَتِ الْعَدَّ وَالْحَصْرًا
بِخَيْلٍ رَأَى مِنْهَا الْقِيَامَةَ مُثَلَّتْ	لِعَيْنَيْهِ فِي دُنْيَاهُ وَالْعَرْضَ وَالْحَشْرًا

ومن مظاهر شجاعة السلطان ما تحدّث عنه اليوسفي على صعيد علاقات الدولة المملوكية بما يجاورها من العربان قائلا: "على الرغم من اعتماد السلطان سياسة الترغيب لاستمالة العربان، لم يتردد في استعمال الشدة ضدهم في حال تعرضهم لأمن الدولة،

(1) انظر المقرئزي، السلوك، ج 2، ق 2، ص 525-530.

(2) صفى الدين الحلي، الديوان، ص 97-102.

(3) مأمون فريز جزار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 129.

ومصالحها⁽¹⁾، ويرسم الأدب صورة أخرى للسلطان، وهي الترويح عن النفس، في الجانب الترفيهي في حياته فكما هي الشجاعة في الحروب، واصطياد الفرسان، هي أيضاً في الصيد والترويح عن النفس، وانتقاء الفهود والضواري واصطيادها، وفي هذا كان للناصر محمد بن قلاوون، نصيب وافر، حيث دَبَّح القاضي "تاج الدين البارنباري"⁽²⁾، رسالة في وصف عادة السلطان في الصيد أيام استراحته من الحروب، بلغ بسطورها نحو مئتين، صور فيها شجاعة السلطان في الصيد، وكيف يخترق الظلام باحثاً عن صيده، ليفاجئ الطيور التي أصبحت تهابه، يقول فيها: "يسرح والطير جائمة في وكورها، ويخرج في أغباش السحر وعليه سواد، فيهابه الصّادح في الجوّ، والباغم في الواد، ويأمر -خَلَدَ اللهُ سُلْطَانَهُ- أمراءه، فيضربون على الطير، حلقة وهي لاهية، في النّقاط حبّها، غافلة عما يُراد بها..."⁽³⁾.

وتبقى ذكرى الشجاعة بعد وفاة الناصر، لتكون مادة رثاء، وعتاب على الدّهر، الذي حرّم الأمة من هذا السلطان الشجاع، فكان لبكاء صفي الدين الحلّي أثرٌ واضح لرسم أجمل معاني الشجاعة، مُجَمِّلاً صور البطولة، ليرسم له ولجيشه صورة البطولة، فهو لشجاعته لم يقدر عليه أحد، إلا الموت الذي هو قدر كل إنسان، والشاعر في رثائه يُذكر المتلقي بقيم الشجاعة التي كانت للسلطان وجيشه والتي لا يمكن أن تُنسى، لأنها تركت أثراً عميقاً في تاريخ الدولة الإسلامية، يقول⁽⁴⁾:

دَهَتْهُ الْمَنَايَا، وَهِيَ مِنْ دُونِ بَأْسِهِ	كَذَا الصَّارِمِ الصَّمْصَامِ يَقْنِيهِ مِبْرَدُ
وَكَمْ أَرْسَلْتَ يُمْنَاكَ فِي الْحَرْبِ لِلْعَدَى	سَحَابَ نِكَالٍ بِالصَّوَاهِلِ يَرْغُدُ
إِذَا مَا وَنَى مَسْرَاهُ ثَقُلًا يَحْنُهُ	جَوَادٌ وَعَضْبٌ: أَجْوَدٌ وَمَجْرَدُ
فَيَنْظُمُ فِيهَا الرُّمْحُ مَا السَّيْفُ نَاثِرُ	وَيَنْثُرُ فِيهَا الْعَضْبُ مَا اللَّذْنُ يَنْضُدُ
فَمُفْرَدُهَا مِنْ نَثَرِ سَيْفِكَ تَوَامُ	وَتَوَامُهَا مِنْ نَظْمِ رُمْحِكَ مُفْرَدُ

(1) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 90.

(2) القاضي الكاتب الناظم الناصر، تاج الدين أبو سعد السعدي محمد بن محمد البارنباري، صاحب ديوان الإنشاء في الدولة الناصرية سنة (713هـ)، توفي سنة (756هـ) بالقدس الشريف. انظر الصفي، الوافي بالوفيات، ج 1، ص 249.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 14، ص 165-172. انظر محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الخامس، ص 235-237.

(4) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 342.

ويرسم له تاج الدين البارنباري، صورةً خاصّة، إذ جعله متفرداً في الشجاعة والظفر يخافه الأعداء قبل أن يلتقوا به، فسيرةً شجاعته بين الناس ظاهرة، يقول فيه⁽¹⁾:

فكأنّه في عزٍّ موكبه	بدرٌ تألّق في سنا خفره
ما في البريّة مثله ملكٌ	أوتي الذي أوتيّه من ظفره
يسري إلى أعدائه رهّب	مما يبثُّ النَّاسُ من خبره

هذه صورة الشجاعة التي رسمها الأدب شعره ونثره، للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، الذي تجلّت شجاعته في حربه مع التتار، وانتصاره عليهم انتصاراً أسعد الناس جميعاً، وأنطق الألسن المبدعة، لتبدأ برسم أجمل صور الشجاعة التي ظهرت فيه، أو التي تمناها المسلمون لبطلهم التاريخي، كما تجلّت صورة الشجاعة عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون في إرساء قواعد دولته، وتأمين حدودها، وتدعيم أركانها، وجعلها ذات وضع سياسي متميّز بين الدول في تلك الفترة. يقول فيه اليوسفي: "إن الناصر محمداً كان بمثابة النموذج الأمثل لرجل الدولة"⁽²⁾.

ثالثاً: هيئته بين الملوك وأمراء الدّول المجاورة

صوّر لنا التاريخ علاقة وهيبة السلطان محمد بن قلاوون بين الملوك، وأمراء الدّول المجاورة، فظهر ذا عظمة وقدر كبيرين، حتّى دانت له ملوك الأطراف، أصدقاء وأعداء، يقول فيه الصّدي: "دانت له ملوك الأرض، وهادنه الفرنج والتتار، وسالمة حتّى زنج الليل وروم النهار"⁽³⁾.

وتراوحت علاقة السلطان مع غيره، بين علاقة ودّ ومحبة ومهاداة، وعلاقة هيبة وخوفٍ ومسالمة، فهذا الصّفي يُصوِّره وقد عظّمته الملوك وخافته، يقول: "دانت له الملوك، وأذعنت له

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 14، ص 172.

(2) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 99.

(3) الصّفي، أعيان العصر، ج 5، ص 74.

الرعايا.... وكان ملوك الأطراف يهادونه، ويعظّمونه ويخافونه"، ويقول أيضاً فيه: "وكان كتابه ينفذ حيث توجه".⁽¹⁾

ويصفُ الصفدي هيبتَهُ واتّساعَ تعظيمه في البلاد، حتى كلما ابتعد الإنسان أكثر زادت هيبتُهُ أكثر، يقول: "وكَلَّمَا بَعَدَ الإنسان عن بلاده، وجد مهابتَهُ أعظم، ومكانتَهُ في القلوب أعظم"⁽²⁾.

وتنتشر هيبة السلطان، وتتسع دائرة نفوذه، ويذيع صيط شجاعته بين ملوك الدول المجاورة، فيتسابقون لنيل رضاه، سواء بتقديم الهدايا، أو بتقديم الولاء والمسالمة، يقول ابن دقماق: "وسالمتُهُ الأيَّام، وهدأته سائر ملوك الدنيا من المشرق والمغرب...."⁽³⁾.

ويصف الدواداري الناصر محمداً وقد ذلَّ له سلاطين الأرض قاطبة، وهذا فضل من الله تعالى عليه، يقول: "سُبْحَانَ مَنْ أَدْلَّ لِمَوْلَانَا السلطان، رِقَابَ الأُمَم، من ملوك العرب والعجم"⁽⁴⁾.

ويفتخر الناصر محمد بهذه الميزة، ويُعلم مَنْ حَوْلَهُ بها، ويُذكّرهم دائماً بلزوم الطاعة، مغترّاً بما أعطاه الله سبحانه من ملك، وعظمة، جعلت ملوك الأطراف يطلبون عفوه ويرغبون في ولائهِ، خوفاً من سطوته، وطمعا في الإلتجاء إلى ظله، وفي كل هذا رسالة موجهة إلى متملك سيس، ليبذل هو الآخر الجهد حتى ينال عفو السلطان ويدخل تحت لوائهِ، كتب شهاب الدين محمود الحلبي "تقليداً" على لسان الناصر إلى متملك سيس، يقول فيه: "فإنه لما أتانا الله ملك البسيطة، وجعل دعوتنا بأعنة ممالك الأقطار مُحيطَةً، ومكّن لنا في الأرض.. وألّفَت إلينا ملوك الأقطار السِّلْم، وبذلت كرائم بلادها وتلاذها، رغبةً في الإلتجاء من عفونا إلى ظلِّ أعلى مَنْ

(1) الصفدي، أعيان العصر، ص 96-97.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 370.

(3) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص 366.

(4) المصدر نفسه، ص 379.

علم، وتوسّل مَنْ كان منهم يُظهرُ الغِلْظَةَ، بالدِّلَّةِ والخُضوع، وتوصّل مَنْ كان منهم يُبدي القُوَّةَ، بالإخلاص الذي رواه لهم أقوى الجنن، وأوقى الدُّرُوع⁽¹⁾.

وهذه السيادة والهيبة، يُقرُّ بها للناصر الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الرِّبيع سليمان، ويصف شخصَةً، في كتاب التولية، فيقول فيه: "سلطان الإسلام والمسلمين، سيّد الملوك والسلاطين، فاتح الأمصار، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك..."⁽²⁾.

ولم يكن أحد من الملوك والسلاطين يقصد الحج، إلا ويرسل مستأذناً السلطان محمداً ابن قلاوون، وإعلامه بتلك الرحلة، وأخذ موافقته عليها، وشرح وتفصيل للرحلة ومَنْ يقوم بها من الأشخاص وهدفها⁽³⁾.

ومن مظاهر مكانة السلطان الناصر، سَعْيُ الملوك والسلاطين، لإرضائه، ومسالمة، وتقديم الهدايا الثمينة لتزدد المحبة، وتتوثق الصلة، فلم تخلُ سنة من الوفود حاملين الهدايا الثمينة، يتحدث المقريري عن هذه الوفود، فيذكر وفداً من جهة ملك المغرب⁽⁴⁾، ووفداً آخر من ملك القسطنطينية، ومعه رسول الكرج حاملاً الهدايا الثمينة، ومعلنًا طاعة الكرج للسلطان⁽⁵⁾.

وعن هذه الهدايا، وهذه الوفود يتحدث المقريري واصفاً اجتماع الرسل بالسلطان وكلهم يبذلون الطاعة، يقول: "أما في سنة ست عشرة وسبعمئة، قدمت رُسُلُ أذربك بهدايا، واجتمع في هذه السنة ثمانية رسل، هم: رُسُلُ جوبان⁽⁶⁾، وأبي سعيد⁽⁷⁾ وأذربك⁽⁸⁾،

(1) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الخامس، ص 135.

(2) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 10، ص 59.

(3) انظر المصدر نفسه، ج، ص 100-104.

(4) المقريري، السلوك، ج2، ق 1، ص 9.

(5) المصدر نفسه، ص 17.

(6) جوبان النوباني الكبير نائب المملكة القانية، تمكن من المملكة وأباد عدداً كبيراً من المغل، كان صحيح الإسلام، بطلاً، شجاعاً، مهيباً شديد الوطأة كبير الشأن كثير الأموال، قُتل سنة 728هـ. انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص78.

(7) أبو سعيد، بن خرتندا بن أرغون بن أبغا بن هلاكو المغلي ملك التتار، صاحب العراق والجزيرة، وخراسان والروم، كان حسن الإسلام، جيد الخط، جواداً عارفاً بالموسيقا، توفي سنة 737هـ، وتأسف الناصر لموته. انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص34.

(8) أذربك بن طقطاقي القان أحد ملوك المغل في جهة الروم، كان جيد الإسلام شجاعاً عابداً، صاهر الناصر، توفي سنة 742هـ. انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1، ص376-377.

وطُغاي⁽¹⁾، وصاحب برشلونة، وصاحب اسطنبول، وصاحب النوبة وملك الكرج، وكلُّهم يبذلون الطاعة، ولم يتفق في الدولة التركية مثل ذلك، وأكثر ما اجتمع في الأيام الظاهرية⁽²⁾ خمسة رؤس⁽³⁾.

ويرسل ملك التتار كتاباً وهدايا، يخبر الناصر بجلوسه على تخت الملك ويسأل إخماد الفتن، يقول: "عفا الله عما سلف، ومن عادَ فينتقم الله منه...."⁽⁴⁾.

وتذكرُ المراجع الكثير من رسائل المودة والتمنُّ للسلطان الناصر محمد بن قلاوون منها رسالة من سلطان تلمسان، يشكر الناصر محمداً، ويتقرَّب منه، ويتمنُّ إليه، ويصرح بالمحبة والمودة القائمة بين الطرفين، معترفاً بفضل الناصر عليه الذي يوجب الشكر والتقدير، ومما جاء في رسالته: "... وَجَبَ شُكْرُكُمْ عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ، وَاتَّصَلَتِ الْمَحَبَّةُ وَالْمُودَّةُ طُولَ الْحَيَاةِ.... ونحن والحمد لله أعلمُ الناس بما يجب من حقوق ذلكمُ المقام الشَّريف، ولنا القُدرة على القيام بواجبكم، والوفاء بكرم حقِّكم...."⁽⁵⁾.

ويتابع مخبراً الناصر محمداً، أنه أرسلَ رسوله ليُشافِه السلطان، بما يعجز الكتاب عن الإبانة عنه، ثمَّ يطلب منه أن يخبر الرسول بما يُريد من بلاده، حتَّى يُرسله إليه على الفور، حتَّى تدوم الصلة بينهما وتتوثق العلاقة، يقول بشأن الرسول: "وغرَضنا أن تُعرِّفوه، بجميع ما يصلح لذلِك المقام الشَّريف ممَّا في بلادنا ويصلكم إن شاء الله في أقرب الأوقات، ولكم بذلك علينا المنةُ العُظمى، والمرتبةُ القُصوى"⁽⁶⁾.

(1) طُغاي بن سوتاي صاحب ديار بكر، قام مكان أبيه، فحاربه علي باشا خال بو سعيد، فلم تزل يقاومه حتَّى قُتِل سنة 743هـ. انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص322.

(2) أي دولة الظاهر بيبرس.

(3) المقرئزي، السلوك، ج2، ق1، ص164. انظر ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمَّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مراجعة الدكتور سهيل زكار، الجزء الخامس، ص493.

(4) المقرئزي، السلوك، ج2، ق1، ص6.

(5) القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرحه وعلَّق عليه، محمد حسين شمس الدين، ج8، ص87.

(6) المصدر نفسه، ص88.

ومن مظاهر قدرة السلطان إقامة علاقات حميمة مع الملوك والسلاطين المجاورين لسلطنته وصول العديد من كتب التقرب والتمنن وبيان المحبة والألفة إلى السلطان، فهذا صاحب فاس بن أبي يوسف يعقوب⁽¹⁾، يُرسل مُمَجِّداً الناصر محمداً، مُشيداً بصفاته العظيمة، ورتبته الشَّماء، يقول: "... لا زِلْتُ تُشَرِّعَ نَحْوَكُمُ الْبَشَائِرَ، وَتُقَرِّعُ بِذِكْرِكُمُ الْمَنَابِرَ، وَتُرْفَعُ لاجْتِلَاءِ أَثَارِ أَمْرِكُمُ السَّائِرَ، وَاسْتِجْلَاءِ أَخْبَارِ سَيْرِكُمُ الْبَاهِرَةِ الْنَوَاطِرَ، وَتَجْمَعُ لِسَجَايَاكُمُ السُّنِّيَّةِ الْقِلَاءِ، وَمَزَايَاكُمُ الْعَلِيَّةِ السَّنَاءِ، ثَوَاقِبِ الْمَنَاقِبِ وَقَوْلُ خَيْرِ الْمَفَاخِرِ"⁽²⁾.

ويتحدّث ابن حبيب، عن الهدايا التي تصل السلطان الناصر محمداً، ويجعل قبول الناصر لها، جبراً لخطر مُهديها، ومِنَّةً عليه، ويذكر أبياتاً لصفيّ الدين الحلّي بهذا المعنى، تقول⁽³⁾:

بِاللّهِ أَلَا مَا قَبِلْتُ هَدِيَّتِي وَجَعَلْتَ لِي فَضْلاً عَلَى الْأَقْرَانِ
وَالْبَحْرُ تَصْدُرُ عَنْهُ كُلُّ سَحَابَةٍ نَشَأَتْ وَيَقْبَلُ فَاضِلُ الْغُدْرَانِ

وتبين الأبيات رغبة صفي الدين الحلّي في الحصول على رضى السلطان.

ويصف الدواداري علاقات السلطان الناصر، وقُدوم الوفود عليه، مُحمِّلين بالهدايا الثمينة، من أموال وتُحَف، وحيوانات، من: نُمُور وفُهود، وخيل، إضافة إلى الخدم⁽⁴⁾.

ومن مظاهر هيئته خضوع ملوك الدول المجاورة له، فهذا الصفدي يبالغ في الوصف، مصوراً تلك العلاقة القائمة على الهيبة وطلب المسالمة، راسماً صورة الملك الذي تخضع له الملوك مُقَبَّلَةً بِسَاطَةٍ، مقتبساً أبياتاً من قصيدة للمتنبّي يجعل الملوك تهاب ممدوحه وتَقْبَلُ الأرض بين يديه، يقول⁽⁵⁾:

تُقَبَّلُ أَفْوَاهُ الْمُلُوكِ بِسَاطَةٍ وَيَكْبُرُ عَنْهَا كُفُّهُ وَبِرَاجِمُهُ

(¹) علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، السلطان أبو الحسن بن أبي سعيد بن أبي يوسف المريني، صاحب مراكش وفاس، صادق الناصر محمداً، وهاداه ولم تكن هداياه كأبي هدايا، عن خبر تلك الهدايا النفيسة، انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 3، ص 387-388.

(²) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 8، ص 99-100. انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 3، ص 387-403.

(³) انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 263.

(⁴) انظر الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 217.

(⁵) الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 74-75.

وهذا صفي الدين الحلّي يجعل ملوك الأرض يشهدون للناصر بالرفعة والسمو والفضل، خوفاً من بطشه، فلو حاولوا غير ذلك لتلقاهم الناصر بشجاعته، ولألحق بهم الهزيمة، يقول⁽¹⁾:

إلى بابهِ تَسْعَى المُلُوكُ فَإِنْ عَدَّتْ تَعْدَى إِلَيْهَا القَتْلُ والنَّهْبُ والأسْرُ
لَقَدْ شَهِدَتْ أَهْلُ المَمَالِكِ أَنَّهُ مَلِكٌ لَهُ مِنْ فَوْقِ قَدَرِهِمِ قَدْرُ

ويصوره شمس الدين الطيّبي، وقد توافدت عليه السلاطين، معترفةً بعلوه عليهم، لما علمت بشجاعته وقوته التي فرضها على الجميع، يقول⁽²⁾:

محمَّدُ ناصر الدِّين الذي طَفَّأتْ لَهُ السَّلاطينُ بالتَّقديمِ تعْرِيفُ

ويجعله الشاعر شرف الدين بن الوحيد⁽³⁾، أجلّ ملوك الأرض، يسمو ويعلو قدراً، حتى نال منزلةً رفيعة، فاقت علوّاً على نجوم السماء، ولم يحصل على هذه المنزلة، إلا بشجاعته وقوته التي جعلت الأقدار تحت تصرّفه، فهو للأعداء مقاتلٌ ومحاربٌ وضاربٌ للرقاب بينما يجده واسع الصدر رحباً لرعيته، يقول⁽⁴⁾:

أَجَلُّ مُلُوكِ الأرضِ والنَّاصِرِ الذي أَذَاقَ العَدَى ضيقاً وأوسَعَنَا صَدْرًا
فلا زَالَتْ الأَقْدَارُ تَحْتَ مُرَادِهِ ولا زَالِ يَعْلُو فَوْقَ هامِ السُّهَى قَدْرًا

ولم يتأخّر بيبرس الفارقاني، بجعل ملوك الأرض قاطبة، تسعى لخدمته، وتسعدُ لإرضائه، حتى أنّه شبّههم بالعبيد، فقال⁽⁵⁾:

ولا زَالَتْ مُلُوكُ الأرضِ طَرًّا لَهُ ما عاشَ أَمْثالُ العَبِيدِ

ويجعل الشاعر إبراهيم بن علي بن خليل الحراني⁽⁶⁾ أعظم ملوك الأرض وأشجعهم تخشى الناصر، وتهابه، يقول⁽⁷⁾:

(1) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 378.

(2) الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 74.

(3) محمد بن شريف بن يوسف الكاتب، كان صاحب خط فائق، له مشاركة في النظم والنثر، ت 711هـ. انظر الكتبي، فوات الوفيات، ج 3، ص 390.

(4) الدواداري، كنز الدرر، المجلد التاسع، ص 90.

(5) ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 415.

(6) المعروف "بعين بصر الحراني" أو "عين بصل الحائك"، كان حاكماً أمياً، وله شعر جيد، توفي سنة 709هـ. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 58. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 23.

(7) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 250.

أَتَى بِهِمْ سُلْطَانُ النَّاصِرِ الَّذِي تَخَافُ وَتَخْشَاهُ الْمُلُوكُ الْأَكْأَسِرُ

وَلَمَّا رَأَى هَيْبَةَ هَذَا السُّلْطَانِ، وَعَظَمَتَهُ، أَدْرَكَ أَنَّهُ سُلْطَانٌ لَيْسَ كَغَيْرِهِ مِنَ السُّلْطَانِينَ، فَهُوَ الْأَعْظَمُ وَالْأَكْبَرُ، وَكُلٌّ مِنْ حَوْلِهِ يَنْتَظِلُّونَ بِظِلِّهِ وَيَسْتَمْدُونَ الْقُوَّةَ مِنْهُ، يَقُولُ⁽¹⁾:

وَهَلْ هُوَ سُلْطَانٌ أَمْ الْبَدْرُ قَدْ سَرَى وَمِنْ حَوْلِهِ تَسْرِي النُّجُومُ الزَّوَاهِرُ

وَتَبَرَّزُ الصُّورَةُ نَفْسُهَا عِنْدَ جَمَالِ الدِّينِ التَّبْرِيزِيِّ⁽²⁾، إِذْ صَوَّرَ الْمُلُوكَ مُصْطَفِينَ حَوْلَهُ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِرجَاعَ أَبْصَارِهِمْ عَنْهُ، فَهُوَ صَاحِبُ هَيْبَةٍ عَظِيمَةٍ، لَا تَجْرُؤُ الْعَيُونَ غَضَّ الْبَصَرِ عَنْهُ، يَقُولُ⁽³⁾:

تَرَى الْمُلُوكَ صُفُوفًا حَوْلَهُ زَمْرًا مِنْ فَرَطِ هَيْبَتِهِ لَا يَرْجِعُ الْبَصَرُ

وَيَصُورُهُ الصَّفْدِيُّ سُلْطَانِ السُّلْطَانِينَ، وَمَلِكِ الْمُلُوكِ، يَخْدُمُونَهُ وَيَقْدُمُونَ لَهُ الطَّاعَةَ وَالْوَلَاءَ وَيَحْتَمُونَ بِشَجَاعَتِهِ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَيَرْجُونَ مِنْهُ الْعَوْنَ وَالْمُسَاعَدَةَ، فَهُوَ الْمَلْجَأُ وَالْمَلَذُ لَهُمْ، فَكَيْفَ لَا يَذْلُونَ لَهَيْبَتِهِ، يَقُولُ⁽⁴⁾:

أَصْبَحْتَ سُلْطَانَ أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً	سَارَتْ بِأَنْبَائِكَ الْوَحَادَةُ ⁽⁵⁾ الرُّسْمُ ⁽⁶⁾
تَخَافُ بِأَسْكَ أَمْلاكِ الْإِنَامِ فَمَا	تَسْعَى لَهُمْ فِي سَوَى طَاعَاتِكَ الْقَدَمُ
يُبَادِرُونَ إِلَى مَا كُنْتَ تَأْمُرُهُمْ	كَأَنَّهُمْ عِنْدَمَا تَخْتَارُهُ خَدَمُ
مَتَى يَخَفُ مَلِكٌ مِنْهُمْ فَلَيْسَ لَهُ	إِلَّا ظِلَالُكَ فِي هَذَا الْوَرَى حَرَمُ

وَيَصِفُ الْحَلِيُّ مَلُوكَ الْأَرْضِ خَاضِعِينَ، رَاضِينَ بِهَذَا الْخُضُوعِ لِلْسُّلْطَانِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ، الَّذِي ذَاعَ اسْمُهُ وَاشْتَهَرَ رَسْمُهُ فِي الْأَرْجَاءِ، وَعِلْمُ الْجَمِيعِ مَا فَعَلَتْهُ شَجَاعَتُهُ وَقُوَّتُهُ،

(1) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ص 250.

(2) عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد بن محمد بن إبراهيم بن موسى التبريزي، ثم الحراني، نزيل دمشق، الأديب جمال الدين، قاضي عجلون، توفي سنة 740هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 247.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 248.

(4) الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 103.

(5) الوخادة: الإبل، وخذ البعير، وخذاً أي أسرع ووسع الخطو فهو واخذ ووخاد ووخود. انظر القاموس المحيط، مادة وخذ.

(6) الرُّسْمُ: المؤثرة في الأرض، من شدة الوطء. انظر القاموس المحيط، مادة رَسَمَ.

وأصبحوا يضربون به المثل في الشجاعة، حتى أنستهم شجاعته وقوّته أعظم أحداث التاريخ، فخرّوا ساجدين عند سماع اسمه، يقول⁽¹⁾:

مَلِكٌ إِذَا اكْتَحَلَ الْمُلُوكُ بِنُورِهِ	خَرُّوا لِهَيْبَتِهِ إِلَى الْأَذْقَانِ
وَإِذَا جَرَى بَيْنَ الْوَرَى ذِكْرُ اسْمِهِ	تُغْنِيهِ شُهْرَتُهُ عَنِ ابْنِ فُلَانٍ
مَلِكٌ تَعَبَّدَتِ الْمُلُوكُ لِأَمْرِهِ	وَكِذَاكَ دَوْلَةٌ كُلُّ رَبٍّ قِرَانٍ
يَا ذَا الَّذِي شَغَلَ الزَّمَانَ بِنَفْسِهِ	فَأَصَمَّ سَمْعَ طَوَارِقِ الْحِدْثَانِ

هذه الصور التي رسمها الأدب للسلطان الناصر محمد بن قلاوون من مظاهر هيئته وسطوته، وعظيم منزلته وحسن علاقاته مع الأمراء والولاة حتى تحدث المقرئ عن بعض أعمال السلطان، وكيف قلّد من الأمراء، لأنّه قدوتهم، وكبيرهم، فيتحدث عن معافاة السلطان من وعكة ألمّت به، فدخل الحمام، وحلق رأسه، فلم يبقَ أحد من الأمراء والمماليك الناصرية، إلّا وحلق رأسه، ومن يومئذٍ بطل إرخاء العسكر، ذوايب الشعر، واستمرّ إلى اليوم⁽²⁾.

ومن مظاهر محبة الملوك والولاة له، قلقهم عليه عند علمهم بوعكة ألمت به أو مرض، ويرسلوا له بعد شفائه كتب التهئة، معربين عن سعادتهم الكبيرة، لشفاء السلطان، شاكرين الله عزّ وجلّ على هذه المنّة، من هذه الكتب، ما وصل السلطان من صاحب ماردين طالباً الاطمئنان على صحّة السلطان، فأجيب وأعلم أن السلطان بخير، وهذا من فضل الله تعالى⁽³⁾.

وكانت الفاجعة الكبرى، التي أصيب بها الجميع، وفاة الناصر محمد بن قلاوون، التي اهتزّت لها القلوب، وحزنوا لفقد هذا السلطان، فعبروا عن حزنهم، بإرسال كتب التعزية، كان من بينها ما أرسله نائب طرابلس معزياً، ومصوراً هذه الفاجعة، مما جاء فيه: "... المصاب الذي كادت لوقوعه الأرض تتزلزل بأهلها، والعقول تتزيّل عن محلّها، وبلغت القلوب الحناجر، واستوحشت القصور، واستأنست المقابر، وتصدّعت له صدور السيوف، ورؤوس المنابر،

(1) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 100-101.

(2) انظر المقرئ، السلوك، ج 2، ق 1، ص 148.

(3) انظر الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 8، ص 361.

وشيّب السود من الشعور....، وأجرى المملوك عوض الدموع دماً، وتغيّر البدر المنير لفقده فأمسى مُظلماً...⁽¹⁾.

هكذا صوّر الأدب الناصر محمداً، عظيماً معظماً، ذا هيبة كبيرة وقدر عظيم بلغت عظمته مشارق الأرض ومغاربها، وشملت بلاد الأصدقاء والأعداء، فكان ملجأ الخائف، وتقدير العُظماء، كما كان صديقاً حميماً، وفيّاً مخلصاً لمن يرجو صداقته، ويعمل جاهداً لإقامة العلاقات الحميمة معه، فكانت له علاقات واسعة مع ملوك وسلاطين وأمراء الدول المجاورة، هاداهم وقبل هداياهم، واستقبل وفودهم وأكرمهم.

رابعاً: صورته الدينية

"سعى سلاطين المماليك إلى المحافظة على الدين، بشتى الوسائل، وذلك أنهم أحسوا دائماً بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها، وبأنهم في حاجة إلى دعامة يستندون إليها في حكمهم، ويستعينون بها على إرضاء الشعب، وطبيعي أنهم وجدوا هذه الدعامة في فئة العلماء، بحكم ما للدين ورجاله، من قوة وسطوة في النفوس"⁽²⁾.

لذلك حرص الناصر محمد على تمثّل الدين، في كل موقف وأمر من أمور السلطنة، مما جعل الأدب يصوّره بصور دينية متعددة، فكان عند كثير ممّن ترجموا له "ناصر الدين"، كما قال الصفدي فيه: "السلطان الأعظم، الملك الناصر، ناصر الدين، ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين الصالحي"⁽³⁾، وهذه الصورة مستمدة من التراث حيث كان الشعراء يضمنون مدح الخلفاء والأشراف بعض النعوت الدينية⁽⁴⁾.

وهو ما يتجلّى في قول الشاعر محمد المنبجي، مخاطباً الناصر محمد⁽⁵⁾:

(1) الفلقشندي، صبح الأعشى، ص 383.

(2) بهاء حسب الله، في الأدب المملوكي، الطبعة الأولى، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، ص 27.

(3) الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 73.

(4) انظر عمرو موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، دار الفكر الحديث، ط1، 1967م، ص 462.

(5) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 93. انظر: مأمون فريز جزار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص

يا ناصر الدين يا منْ حُسْنُ دَوْلَتِهِ أُمِست على دُولِ المَاضِينَ تَفْتَحِرُ

وأظهر آخرون صورة تدينه، مثبتين هذه الصورة، بما قام به من أعمال، تعود على الإسلام والمسلمين، بالخير والنفع، ويُثابُّ عليها السلطان من الله تعالى، يقول ابن إياس فيه: "هو أول من اتخذ التذكير يوم الجمعة على المآذن، لتستعدَّ الناس للصلاة، وذلك في سنة سبعمائة، واستمرَّ ذلك إلى الآن"⁽¹⁾.

ويتحدَّث المقرِيزي عن حرِّص السلطان الناصر محمد، على تعليم ممالِيكه القرآن الكريم، وأمور الدِّين، من أول يوم يستلمهم فيه من التجار، يقول: "أول ما يُبدَأُ به تعليم المملوك ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، ومعرفة الخطِّ، والتَّمَرُّنُ بآداب الشريعة، ومُلازمة الصَّلوات والأذكار، وكان الرَّسْمُ أن لا تجلب التجار إلا الممالِيك الصغار، حتَّى يُنشِؤهُ السُّلطان كما يُريد"⁽²⁾.

أما اليوسفي، فيورد حادثة غريبة، لا بدَّ من ذكرها هنا، مع عدم التأكيد على صحتها، ولكنها تبقى إشارة ممَّن ترجم للسلطان محمد بن قلاوون لإظهار صورته الدينية، وهذه الحادثة عبارة عن رؤيا، رأى فيها "مهنا بن عيسى"⁽³⁾ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقول له: "يا مهنا، قد قُربَ موتُك فلا تَمُتْ وأنتَ عاصٍ، فقال مهنا: يا رسول الله وما عصاني؟ قال: عصيت أن تطأ بساط الملك الناصر، فقال: يا رسول الله: أنا خائف منه، قال: لا، روح إليه وطأ بساطه وضمأنك علي"⁽⁴⁾.

وأقبل مهنا من عيسى على السلطان، بعد أن كان قد رفض كلَّ توجهات السلطان إليه ليفد عليه، وشرع السلطان بعد ذلك يُعرِّف الأمراء، رؤية مهنا ويفتخر بها، ويذكر لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذاته أمر مهنا أن يفد عليه، وجعل عصيان السلطان، عصياناً لله

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 483.

(2) المقرِيزي، المواعظ والاعتبار، ج 2، ص 213.

(3) حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع ابن حذيفة، كان أميراً جليلاً كبيراً، ذا رأي وسيادة، ونجدة وحماسة، توفي سنة 735هـ. انظر بن حبيب، تذكرة النبیه، ج 2، ص 264.

(4) اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص 205-207.

تعالى⁽¹⁾، وكانت مثل هذه القصص سمة العصر في ذلك الوقت، يفخر السلطان بها، ويجعلها مادة تدعم ملكه وحكمه، وتجعله مؤيداً من الله تعالى، على الرغم من كونها ضعيفة، لكنها تدل على تعلق الناس بالدين، واتكائهم عليه.

ويصور الأدب السلطان الناصر محمداً حريصاً على إقامة حرمة الدين، فيعاقب كل من سمع عنه مخالفة الدين، ويقيم الحدّ عليه⁽²⁾.

فنراه يستفتي بقتل رجل، شهد عليه جماعة، أنه يقول: أنّ السجود للصنم ليس بمكروه، وبعد وصول خبره للسلطان، يقول: "إذا ثبت على هذا الرجل شيء يوجب القتل، عرفوني به، واطلبوه"⁽³⁾.

ومن مظاهر تدينه، وحرصه على اتباع الشرع، والابتعاد عن الشبهات ما ذكره عنه اليوسفي، قائلاً: "كره السلطان الناصر محمد بن قلاوون المنجمين والسحرة، وكره مهنتهم، فنسمع عن رجل منجم حضر، فطلبه السلطان، وأوقفه قدامه، ورسم بقتله، فقتل في حبسه"⁽⁴⁾.

وتأثر السلطان كثيراً بالفتنة الواقعة بمكة، سنة 737هـ التي أوجبت القتال في وسط الحرم حتى إنه امتنع عن الطعام أياماً، وجهّز جيشاً وسيّره إلى مكة لإخماد الفتنة⁽⁵⁾.

أما عن متابعته تطبيق الشرع، والابتعاد عن الحرام، وإبعاد الرعية عنه، ما قام به سنة 721هـ، حيث رسم السلطان الناصر، بخراب البازار بمدينة بغداد من أوله إلى آخره، وتوبّوا الخواطي، وزوجوهن، حتى لم يبق في البلد خاطية، وأريق الشراب، حتّى لو صبّ في دجلة، لأغرق بغداد كثرة، ومنع الناس من عصر العنب، وأمر بالنداء، أن من تخلف عنده شيء من

(1) انظر اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص 208.

(2) انظر أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 74-75. المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 923-925.

(3) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 339-340.

(4) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 264. انظر الشجاع، تاريخ الملك الناصر، ص 4.

(5) انظر الشجاع، تاريخ الملك الناصر، ص 32. انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج 14، ص 159.

الشَّرَاب يكون ماله ودمه للسلطان، وقتل بسبب ذلك جماعة، وَذَكَرَ أَنَّ هَذَا شَيْءٌ لَمْ يَجْرَ مِنْ زَمَنِ الْخُلَفَاءِ مِثْلَهُ وَإِلَى الْآنَ⁽¹⁾.

وتذكر المصادر الكثير من الحوادث الدّالة على مَقْتِ السلطان شرب الخمر، وإنكاره ذلك أشدَّ الإنكار، فكان إذا سمع عن أحد شرب الخمر، عاقبه أشدَّ العقاب، ولو كان من أَجَلِّ المقربين إليه⁽²⁾، وكذلك يضرب رقبة كل شخص يعرف عنه الكفر والزندقة والتلاعب بالدين⁽³⁾.

ووقف الناصر موقفاً متشديداً من أهل البدع والضلال وأصحاب الأهواء من أهل المذاهب الإسلامية، ولا يتخذ قراراً فردياً، لكنه يستشير أهل الشرع والأحكام، ويعمل على ترجيح الآراء العاملة لصالح المسلمين، فعندما قَدِمَ البريد من دمشق، بأنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية، تتازع مع أهل دمشق في الصخرة التي بمسجد النارنج بجوار مُصَلَّى دمشق، وأنَّ الأثر الذي بها هو قدم النبي صلى الله عليه وسلم، وأنَّ ما يفعله الناس، من التبرُّك به وتقبيله لا يجوز، فقطع الشيخ الصخرة، وأنكر الناس عليه ذلك، فأجيب: "إذا كان الأمر ما زعم، فقد فعل الخير، وأزال بدعة"⁽⁴⁾.

ومن صُور قضائه على المنكرات، ومحاربه البدع وأهل الضلال، ما صدر عنه سنة 717هـ عندما وصل إلى مسامعه استفحال أمر الطائفة النصيرية⁽⁵⁾ في منطقة طرابلس، وأن فيها من المنكرات، ما لا يرضاه الدين، فقرّر السلطان إعادة تنظيمها، كما رسم أن يُبنى بقرى النصيرية في كل قرية مسجدٌ، ومما جاء في المرسوم: "ولمّا اتَّصل بعلومنا الشريفة، أنَّ بالمملكة الطرابلسية آثار سوء، ليست في غيرها، ومواطن فسق لا يقدرُ غيرنا على دفع ضررها وضيرها، ومظان آثام يجدُ الشيطان فيها مجالاً فسيحاً، وقرى لا يوجد بها من كان إسلامه

(1) انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 81.

(2) انظر ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج 1، ص 131. المقرئ، السلوك، ج 2، ق 1، ص 14.

(3) انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 401، 160.

(4) انظر الحادثة عند المقرئ، السلوك، ج 2، ق 1، ص 9.

(5) النصيرية: فرقة من غلاة الشيعة، ينتسبون الى نصير غلام علي بن أبي طالب، وهم يعتقدون ألوهية علي بن أبي طالب، انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 81.

مقبولاً، ولا من كان دينه صحيحاً، وخموراً يتظاهراً بها، ويتصل بسبب الكبائر بسببها، وتُشاع في الخلائق مجهرًا، وتُباع على رؤوس الأشهاد، فلا يوجد لهذا المنكر مُنكر...⁽¹⁾.

ويتابع المرسوم، بإنكار جميع الفواحش والآثام، وتفنيدها وبذل الجُهد لإبطالها، مصورًا الناصر حريصاً على ذلك، باذلاً جهده لعمل ما يُرضي الله ويُبقي ذكره مفخرةً على مرّ الأيام.

وتثبت الأخبار الواردة عن الناصر، مراعاته أحكام الإسلام، وتقديم مصلحة المسلمين وحرصه على تولية من يعرف الشرع والأحكام، في المناصب الحساسة فهو لم يقبل شفاعة بعض الأمراء المقربين، لدعم مرشح غير كفؤ لمنصب الحسبة، وقد دفعهم بقوله: "هذا المنصب، منصب كبير، ما يمكن أن يكون فيه، إلا من يعرف الشرع والأحكام"⁽²⁾.

ومن مظاهر تدينه وصورته الدينية، ما أثبت في الأدب، وكتب السير والتراجم من حرصه الدائم على الدفاع عن دين الله، وقتال الكفرة ومحاربتهم، وقد حرص الكتاب على إظهار هذه الصورة، عند كتابتهم رسائل السلطان الناصر إلى غيره من الملوك والسلاطين، ومثال ذلك ما كُتب على لسانه، ردًا على رسالة غازان، بعد أن انتهك حرمة المسلمين، تهديدًا ووعدًا، مركزًا على إظهار الصورة الدينية والجهادية، دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، يقول مخاطبًا غازان: "فلما تحققنا خبركم، وقضونا أثركم، بادرنا نقد أديم الأرض سيراً، وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضرراً وضيراً، ونؤدي من الجهاد السنة والفرض ونعمل بقوله تعالى: [وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ]⁽³⁾، فأكابرهم يعلمون وقائع الجيوش الإسلامية التي كم وطنت موطناً يغيب الكفار، فكتب لها عمل صالح، وسارت في سبيل الله ففتح عليها أبواب المناهج..."⁽⁴⁾.

(1) المقرئ، السلوك، ج 2، ق 3، ص 935-941.

(2) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 80.

(3) آل عمران، آية رقم 133.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 7، ص 268. المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1016-1023.

وما كتب أيضاً من رسائل، تثبت وتؤكد عمل الناصر المستمر والمتواصل لإعلاء كلمة الدين، وحرصه على اشتغال جيش المسلمين، لمحاربة الكفر والطغيان، وتثبيت دعائم الإسلام، ومما ورد عنه في هذا، رسالة إلى صاحب اليمن، جاء فيها: "رأينا أنَّ اشتغال جيش الإسلام بجانب الكفر هو المهمّ المقدم على ما سواه، والفرص الذي نيتنا فيه إنقاذ أهل الإسلام، من كلمة الكفر وتحكمه..."⁽¹⁾.

ويرى الكثير من دارسي أدب العصر المملوكي، أنَّ الصراع العقائدي الذي حرص الشعراء على إبرازه في شعرهم، كان دافعاً قوياً للمسلمين كي ينضموا إلى صفوف الجهاد، ويرون أنَّ الشعراء الذين واكبوا في قصائدهم حروب المسلمين، أبرزوا عقيدة المغول، ووصفهم بكل صفات الكفر والطغيان، تحريضاً للمسلمين على قتالهم، والقضاء عليهم⁽²⁾.

وهذا أيضاً ما حرص عليه السلطان محمد بن قلاوون، الذي عمل على إبراز الصورة الدينية له، ولجنوده وجيشه وسلطته، حتى يستطيع الدخول إلى قلوب المسلمين، وحكمهم بالطاعة.

وأيد الأدب بذلك، إذ ركز على الصورة الدينية لجيوشه، وأكد حرصهم الدائم على قتال الكفرة والابتعاد عن قتال من أظهر إسلامه، وأظهر العذر لهم، في هزيمة سنة 699هـ، مُعلنًا أن ادعاء غازان وجنوده الإسلام، والعمل لدين الله، جعل جيش المسلمين يمتنع عن قتالهم، ذكر ذلك في رسالة السلطان إلى غازان، جاء فيها: "أنه -أي غازان- لما رأى أنه ليس له بجيشنا قبل في المجال، عاد إلى الخديعة والاحتيال، وتظاهر بدين الإسلام، واشتهر به في الخاص والعام، حتى ظنَّ جيوشنا، أن الأمر كذلك، فلما التقينا معه، كان معظم جيوشنا يمتنع عن قتاله، ويبعد عن نزاله، يقول: "لا يجوز لنا قتال المسلمين، ولا يحلَّ قتل من يتظاهر بالدين"⁽³⁾.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 8، ص 374. انظر جلال يوسف العطار، النشر الفني في العصر المملوكي، ص 80.

(2) انظر رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص 47-54.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 143-144.

وَيَرى السلطان محمد بن قلاوون أَنَّ الجِهَادَ فريضةٌ على كُلِّ مسلمٍ، ولا يقتصر الجِهَادُ على المشاركة في المعركة بالنفس فقط، بل هو بالنفس والمال واللِّسان فيهِدّ ويتوَعَّد مكتتزي الأموال من أهل اليمن، الذين لا يجعلون في أموالهم نصيباً لتجهيز جيش المسلمين، فيأمر أن يُكْتَبَ لَهُمْ، ما يَرَدُّعُهُمْ عن ذلك، ممَّا جاء في هذا الكتاب: من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي⁽¹⁾: "... وأحكام الجِهَادِ عِنْدَهُمْ مرفوضة، حتى كأنَّ الجِهَادَ لم يبلُغْهُمْ...، بل كأنَّه على غيرهم وَجَبَ...، وتفرَّقت الأموال، وما لجُندُ الله فيما احتَوُوا عليه من ذلك سهم ولا نصيب، وأيُّ عُدْرٍ عند الله لِمَنْ جَعَلَهُ مُؤْتَمِناً على ماله، فلم يكن له في سبيل الله إنفاق، وأيُّ حُجَّةٍ لِمَنْ لم يقِفْ موقفَ جهاد، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ، مَاتَ على شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ"⁽²⁾.

وصوّر الأدب الناصر محمداً حريصاً على تعزيز المجاهد في سبيل الله، ومدحه، وبيان أثر جهاده في الإسلام، والمسلمين، كما بيّن الأجر والثواب الذي يناله المجاهدون، وهذا ما ورد في الردّ الصادر عن السلطان، لأبي الحسن المريني⁽³⁾ صاحب فاس المغرب، بعد أن جاهد في سبيل الله، وحقق النصر، فأرسل الناصر يُثني عليه ويُعظّم عمله، جاء فيه: "... وَأَنَّ المَقَامَ العَالِي، قام الله وغار وأنجد جُنُودَهُ في طلب الثار، من أهل النار وأغار... وأرسل عِقبانَ فُرسانه مُحَلِّقَةً إلى ذلك الجبل الشَّامِخِ الذُّرِّي...، وهذه عِزَّةٌ إسلاميّةٌ جَدَّدَ اللهُ على يد المَقَامِ، بذلك القُطر صدورَها، وسَطَّرَ في صحائف حسناته أَجورَها، وأبقى له مَذخورَها، وأعدّها له ليوم تَجِدُ فيه كُلَّ نفسٍ ما عَمِلَتْ من خَيْرٍ مُحَضَّرًا، وَمِنَّةً من الله، أُرَبَّتْ على العَدِّ، وتجاوزتَ الحَدَّ...."⁽⁴⁾.

(1) شهاب الدين ابو التناء محمود ابن الشيخ زين الدين أبي الغنائم سلمان بن فهد الحلبي الحنبلي، صاحب ديوان الإنشاء بدمشق سنتين ثم نقل إلى القاهرة، حسن السيرة والسلوك، كاتماً أسرار الملوك، ت 725هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2، ص152.

(2) الفلقشندي، صبح الأعشى، الجزء السابع، ص 374.

(3) أبو الحسن علي بن الملك أبي سعيد عثمان، ابن الملك أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق بن محي الدين حمادة المريني، كان جليل القدر، له سطوة ومهابة، ومعرفة وخبرة، وفيه إحسان وخير، ت 752هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج3، ص150.

(4) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 7، ص 427-430.

وتتابع الرسالة لتبيّن أن الناصر لا يُرسل جنوده إلا لمحاربة الشُّرك، لا هدَف له سِواه وأنه يختار مَنْ حَسَنَ دينه، ليكون مُحارباً ومُدافعاً عن حرمة الإسلام، ومما جاء في الرِّسالة في وصف الجيش: "تسَنَّم رَاكِبُهَا لِذَرْوَةِ الْعِزِّ مِنْ ظُهُورِهَا... بِسُيُوفٍ تُبَدِّدُ الْأَوْهَامَ، وَتُزِيلُ الْإِيهَامَ، وَتُطَهِّرُ بِمِيَامِينِهَا نَجَسَ الشُّرْكِ وَدَنَسِهِ، قَدْ تَسَرَّبَلُ كُلُّ مِنْهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ دِرْعاً حَصِيناً، وَاتَّخَذَ لُبْسَهُ جُنَّةً وَلَكِنْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْإِسْتَبْرَقِ لِيَكُونَ لِفَضْلِ اللَّهِ مُظْهِراً، وَلِإِحْسَانِنَا مُبِيناً...، لَمْ يَسْلُكُوا شِعْباً، إِلَّا سَلَكَ الشَّيْطَانُ شِعْباً سِوَاهُ، وَلَا وَطِنُوا مَوْطِناً إِلَّا وَكَلُّ كَافِرٍ يَأْبَاهُ، وَلَا نَالُوا مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ كَمَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ"⁽¹⁾، وفي هذا يتضح إصرار السلطان على محاربة الكفر ونُصرة الإسلام وتعظيم مَنْ يقومُ على ذلك من أوليائه وجنوده.

إنَّ إظهار الصورة الدِّينية للقائد المسلم وجيشه، كان غاية الشعراء في مدحهم، ويرى مأمون فريز جرار أن الشعراء "جسّدوا في ذلك المدح، المثل الأعلى الذي كان المسلمون يتطلّعون إلى تجسيده فيمن يحكمهم، وكأنّهم بذلك يستحثّون القائد على التمسك بما عنده من الصفات التي مدحوه بها، والتخلّق بما لم يكن عنده منها"⁽²⁾.

وظهرت هذه الصورة وبرزت في شعر المديح وقصائد الجهاد التي واكبت انتصارات الناصر محمد حيث اجتهد الشعراء في رَسْمِ صورة الناصر وجنده مجاهدين، يَمامون عن الإسلام، ويجدّدون عزّه، فهذا الشاعر شمس الدين الطيّبي، يقول عقب انتصار مرج الصفر سنة 702هـ متأثراً بآيات القرآن الكريم: ⁽³⁾

يَقِي بِهِمْ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ نَاصِرُهَا	كَمَا يَقِي الدُّرَّةَ الْمَكْنُونَةَ الصَّدْفُ
قَامُوا لِقَوَّةِ دِينِ اللَّهِ مَا وَهَنُوا	لَمَّا أَصَابَهُمْ فِيهِ وَلَا ضَعُفُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَانْتَصَرُوا	مِنْ بَعْدِ ظُلْمٍ وَمِمَّا سَاءَ لَهُمْ أَنْفُوا

⁽¹⁾ الفلقشندي، صبح الأعشى، ص 431.

⁽²⁾ مأمون فريز جرار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 121.

⁽³⁾ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 363. ابن حبيب، تذكرة النبیه، ج 1، ص 251. مأمون فريز جرار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 80.

يجعل الشاعر الملك الناصر وجنده جداراً يحيط بالإسلام ويحميه، ويأبى إلا الصمود أمام أية قوة، فهم أقوىاء في سبيل الله. وهذا الشاعر ببيرس المنصوري، يصوّر الناصر متجهاً في جهاده لإرضاء ربّه، عاملاً عملاً خالصاً لوجه الله، ينويه في السرّ والجهر، مبيعاً نفسه على الجهاد، فإمّا النصر وإمّا الشهادة، فتقبل الله عمله، وأيّده بنصره، وخلّص الناس من الطغاة المشركين، يقول⁽¹⁾:

وَقَصْدٌ خَالِصٌ لَا غَشٍّ فِيهِ نَوَاهُ لِرَبِّهِ سِرّاً وَجَهْرًا
وَبَايَعَ نَفْسَهُ بَيْعاً صَاحِحاً لِيُشْرِيَ جَنَّةً بِالرُّوحِ تُشْرَى
وَصَمَّمَ لَا بَرَّاحَ لَهُ فِيمَا نَجَاحاً أَوْ يُنِيلَ النَّفْسَ عُذْرًا
فَعَامَلَهُ إِلَهُهُ بِمَا نَوَاهُ وَأَذْهَبَ عَنِ جَمِيعِ الْخَلْقِ شَرًّا

ويصفّ شهاب الدين العزازي، جهاد الناصر وجيشه، أنه جهادٌ ضدّ الكفر والطغيان، ودفاعٌ عن دين الإسلام، ورغبة في الحصول على الأجر والثواب، يقول⁽²⁾:

أَمَالُوا عُرُوشَ الْكَافِرِينَ وَكَافَحُوا عَنِ الدِّينِ يَرْجُونَ الْمَثُوبَةَ وَالنَّصْرَا
وَيَصُورُهُمْ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَلِيٍّ بِنَ خَلِيلٍ⁽³⁾، حُماة الدّين، أبادوا الكفار بسيف الإسلام، حتى استطاعوا استئصال شأفة الشرك، يقول⁽⁴⁾:

حَمَوْا عَنْ حَمَى دِينِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ فَلَمْ يَبْقَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْأَرْضِ كَافِرٌ
وَحَرِصَ الْأُدْبَاءُ أَيْضاً، بعد تحميس السلطان، ودفعه لمقاومة الكفر، على تهدئة روع السلطان، وطمأنة قلبه، ليزداد ثباته، وتقوى عزمته، وذلك بوصفهم إياه مؤيداً من الله ورسوله، محفوظاً برعايتهم، يقول الدواداري: "نَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ، وَالْعَسَاكِرَ النَّاصِرِيَّةَ

(1) ببيرس المنصوري، مختار الأخبار، ص 130.

(2) رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص 48.

(3) إبراهيم بن علي بن خليل الحراني المعروف بعين بصل، كان حاكماً أمياً، وله شعر جيد مقبول، توفي سنة 709هـ.

انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص70. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص23.

(4) مأمون فريز جزار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 80.

المحمديّة، وأيد الله الإسلام، ودخل مولانا السلطان خلد الله ملكه، مؤيداً بالنصر والظفر، على رغم أنافي التتر... وأيده الله بالقرآن، وعاد إلى مصر، وأقام الفرّح والسُرور⁽¹⁾.

ويكشف عن تأييد الله لهذا السلطان، رعايته له، فكل ما تمناه حصل عليه، حتى علا قدره وسما فوق ملوك الأرض، وما ذلك إلاّ لأنه يسعى إلى رضا الله وإعلاء دينه، يقول: "إنّ هذا ملك لله به عناية، وله فيه إرادة، ما رام عزّاً إلاّ وصل إليه، ولا شام جليلاً إلاّ قدره الله عليه، فدانت له سائر الملوك... إذ عزمته الشريفة بتأييد الله له بالقُدرة عليهم محيطّة"، ثم يورد أبياتاً من الشعر، تؤكد تأييد الله للسلطان، يقول الشاعر في الناصر:

فإنّك أمسيّت المعزّ لديّنا بك الشّرْع يسطو حيث ما هو ذاهبُ
وأيدت بالتّوفيق والنّصر منحةً من الله إذ ما زلتَ بالله غالبُ⁽²⁾

ويدعم محمد المنبجي هذا الرأي، ويرى أن السلطان مؤيّد من الله تعالى، ولولا هذا التأييد، لما حاز المسلمون في عهده على الأمان، يقول عقب مرج الصفر مصوراً أثر الانتصار في المسلمين⁽³⁾:

لولا يُثبّتُك الله العزيزُ به لم يبقَ للنّاس لا سمعٌ ولا بصرُ
قرّت به أعينُ الإسلامِ وابتَهجت به القلوبُ وكادت قبلُ تنفطرُ

وصور الشاعر إبراهيم بن علي (عين بصل الحرّاني) السلطان الناصر محمّداً، وقد نال من ربّه كل ما تمنّى، وأهمّ ما تمنّى، وهو النصر، يقول⁽⁴⁾:

لقد نصر الرّحمن سلطاننا الذي أتى وأتت تسري إليه العساكرُ
وعاد إلينا وهو من عند ربّه نبيل المنى والسّعد، والنّصر ظافرُ

وهذا شيخ الإسلام، ابن تيمية، يؤكّد تأييد الله سبحانه وتعالى، للسلطان الناصر محمد، ويُقرّ أنّ الإسلام في عهده علاّ وسما على الأديان، يقول في رسالة وجهها إليه: "من الدّاعي

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 88-89.

(2) المصدر نفسه، ص 398.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ص 92.

(4) مأمون فريز جرار، أصدااء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 229.

أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين، ومن أيد الله في دولته الدين، وأعز بها عباده المؤمنين وقمع فيها الكفار والمنافقين، والخوارج المارقين⁽¹⁾.

ويتابع ابن تيمية، فيبين أن سبب تأييد الله لهذا السلطان، ونصره له على أهل الشرك والطغيان، هو تقواه واقامته حدود الشرع حتى قرن عهده بعهد الخلفاء الراشدين، فيقول فيه: "ذلك أن السلطان - أتم الله نعمته - حصل للأمة بئمن ولايته، وحسن نيته، وصحة إسلامه وعقيدته، وبركة إيمانه ومعرفته، وفضل همته، وشجاعته، وثمرة تعظيمه للدين وشرعته، ونتيجة إتباعه لكتاب الله وحكمته، ما هو شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين، وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين"⁽²⁾.

ولم يكتفِ ابن تيمية بذلك، بل يتابع بوصفه أنه هو المبشر به من رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، عندما وعد بناصر للدين على رأس كل مئة عام، ولم يكن هذا إلا أثراً من آثار تقواه وتأيد الله له واقامته حدود الشرع. "عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة، على رأس كل مئة سنة، من يجدد لها دينها"⁽³⁾، يقول ابن تيمية في الناصر: "وتحقق في ولايته خبر الصادق المصدوق، أفضل الأولين والآخرين، الذي أخبر فيه عن تجديد الدين، في رؤوس المنين والله تعالى يوزعه والمسلمين، شكر هذه النعم العظيمة، في الدنيا والدين"⁽⁴⁾.

وبهذا التأييد الإلهي، رسخ السلطان الناصر ملكه، ودعمه بأهم الدعائم وأقواها، فهو مسنودٌ محفولٌ برعاية الله تعالى لأنه الحق الظاهر، بهذا يخاطبه الشاعر ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر، فيقول⁽⁵⁾:

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، المجلد الثامن والعشرون، ص 398.

(2) المصدر نفسه، ص 399.

(3) هذا الحديث خرجه أبو داود، في كتاب الملاحم، باب ما يُذكر في القرن المائة، الجزء الرابع، صفحة 178. انظر البيهقي: معرفة السنن والآثار، ص 52.

(4) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، المجلد الثامن والعشرون، ص 399.

(5) المصدر نفسه، المجلد 28، ص 190.

أَيَا مَلِكًا قَدْ مَكَنَ اللَّهُ مُلْكُهُ وَأَضْحَى بِهِ الْحَقُّ الْمُبِينُ مُبِينٌ

ولأنَّ الناصر محمدًا، مُعَزِّ لِدِينِ اللَّهِ، مُذِلُّ لِلْكَفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَمُؤَيِّدٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى قَرْنَهُ الشُّعْرَاءُ وَ الْأُدْبَاءُ بِالرُّسُلِ، فَتَارَةً نَجْدٌ وَصَفَ جُنُودَهُ بِالْعَسَاكِرِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، كَمَا قَالَ الصَّفْدِي:
"وَوَقَعَتِ الظُّهْرُ بِطَاقَةِ بُوَصُولِ السُّلْطَانِ، وَاجْتِمَاعِ الْعَسَاكِرِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِمَرْجِ الصُّفَرِ"⁽¹⁾.

وَعِنْدَ عَوْدَتِهِ إِلَى الْحُكْمِ، صَوَّرَهُ عِلَاءُ الدِّينِ الْوُدَاعِي، وَقَدْ عَادَ إِلَى كُرْسِيِّهِ مِثْلَ عَوْدَةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَقُولُ⁽²⁾:

عَادَ إِلَى كُرْسِيِّهِ مِثْلَ مَا عَادَ سُلَيْمَانُ إِلَى الْكُرْسِيِّ

وَمِنْ صُورِ تَقْوَاهُ تَصْوِيرُ الشُّعْرَاءِ وَالْأُدْبَاءِ فَتُوحَاتِ النَّاصِرِ، وَانْتِصَارَاتِهِ، وَجَعَلَهَا امْتِدَادًا لِفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلَى، مُسْتَعْدِمِينَ "الْتِنَاصَّ الْقِرَآئِيَّ" مَصُورِينَ فَتُوحَاتِهِ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ، فَتَحَ مَكَّةَ، الَّذِي كَانَ فَاتِحَةً خَيْرٍ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَنَقْطَةً تَحَوَّلٍ كَبِيرَةٍ فِي تَارِيخِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ زَمَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِتَكُونَ انْتِصَارَاتِ النَّاصِرِ مُحَمَّدٍ نَقْطَةً تَحَوَّلٍ فِي تَارِيخِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ زَمَنِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ بْنِ قِلَآوُونَ، يَقُولُ الشَّاعِرُ شَرْفُ الدِّينِ ابْنُ الْوَحِيدِ عَقِبَ مَعْرَكَةِ مَرْجِ الصُّفَرِ⁽³⁾:

لَقَدْ تَمَّتِ النُّعْمَى وَأَوْضَحَتِ الْبُشْرَى	وَقَدْ أَعْبَقَ الْفَتْحُ الْمُبِينُ لَنَا نَشْرًا
حَبَانَا إِلَهَ الْخَلْقِ بِالنَّصْرِ وَالْهُدَى	عَلَى الشَّرِّكِ وَالْإِيمَانُ قَدْ غَلَبَ الْكُفْرًا
فَحَمْدٌ لِسُلْطَانِ الزَّمَانِ مُحَمَّدٍ	وَشُكْرٌ لِمَوْلَى قَدْ أَبَادَ الْعِدَا قَسْرًا

وَتَتَجَلَّى هَذِهِ الصُّورَةُ فِي الشُّعْرِ، حَيْثُ يَصُورُ الشُّعْرَاءُ النَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ الْإِلَهِيَّ لِهَذَا السُّلْطَانِ وَجُنْدِهِ الَّذِينَ هُمْ جُنْدُ اللَّهِ يَقُومُونَ بِحِمَايَةِ الدِّينِ، فَهَذَا الشَّاعِرُ جَمَالُ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ يَصُورُ، نَصْرَ السُّلْطَانِ وَجَيْشِهِ قَائِلًا⁽⁴⁾:

(1) الصَّفْدِي، الْوَافِي بِالْوَفَايَاتِ، ج 4، ص 359.

(2) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ص 357.

(3) الدَّوَادَارِي، كَنْزُ الدَّرَرِ، ج 9، ص 88-89. انْظُرْ مَأْمُونُ فَرِيزِ جَرَارُ، أَصْدَاءُ الْغَزْوِ الْمَغُولِيِّ فِي الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ، ص 77.

(4) الدَّوَادَارِي، كَنْزُ الدَّرَرِ، ج 9، ص 94.

وأبرزَ القَدَرَ المَحْتومَ بارِئُهُ سُبْحَانَهُ بِيَدَيْهِ النَّفْعُ وَالضَّرَرُ
وَهَوْنُ الصَّعْبِ بِالْفَتْحِ المَبِينِ لَكُمْ رَبُّ يَهْوَنُ عَلَيْهِ المَقْفَلُ العَسِيرُ
كِنَانَةُ اللَّهِ مَصْرٌ جَنْدَهَا ثَبَتَتْ لَا رَيْبَ فِيهِ وَجُنْدُ اللَّهِ تَنْتَصِرُ

وقرن الشعراء انتصارات الناصر بانتصارات الرسول محمد (\$) إذ جعلوه ينتصر
بالرعب، وصوروه منصوراً من الله تعالى، يقول الشارمساحي مصوراً حاجة المسلمين إلى هذا
السلطان⁽¹⁾:

يَا أَيُّهَا النَّاصِرُ المَيِّمُونَ طَائِرُهُ نَصِرْتَ بِالرُّعْبِ والأَعْدَاءُ قَدْ قَهَرُوا
فَاللَّهُ يُبْقِيكَ فِي خَيْرٍ وَعَافِيَةٍ فَالْمُسْلِمُونَ إِلَى بُقْيَاكَ تَفْتَقِرُ

ويورد الدواداري أبياتاً من الشعر، تشير إلى نصر السلطان محمد بن قلاوون بالرعب،
يقول⁽²⁾:

هُوَ النَّاصِرُ المَنْصُورُ بِالرُّعْبِ إِذْ غَدَا وَقَدْ فَرَّ مَنْ قَدْ خَانَهُ وَهُوَ هَارِبُ

ويتابع الشعراء، بذكر أعمال هذا السلطان، التي عادت على المسلمين بالخير، و جعلته
ينال محبة الشعراء ومدحهم، حتى شبهوه بعمر بن الخطاب، وما قام به من فتوحات عظام،
ونصر أكيد، يقول الشاعر محمد المنبجي، في أثر النصر الذي أحرزه الناصر في مرج
الصفير⁽³⁾:

بَشَائِرُ طَارَ بالإِقْبَالِ طَائِرُهَا لَمِثْلِهَا كَانَتْ الأَيَّامُ تَنْتَظِرُ
فَتَحَّ عَلَى جِبْهَةِ الإِسْلَامِ أَسْعَدُهُ بِالْجَدِّ والسَّعْدِ، والتَّأْيِيدِ مُنْتَظِرُ
مَا شَاهَدَ النَّاسُ فَتَحًا مِثْلَهُ أَبَدًا إِلَّا فَتُوحًا تَوَلَّى أَمْرَهَا عَمَرُ

ومن أثر النصر الذي لمسّه المسلمون، خاصّة الشعراء الذين صوروا الناصر وقد رفع
علم الإسلام، وكسر شوكة الكفار، يقول الشاعر نفسه⁽⁴⁾:

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص 192.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص 398.

(3) المصدر نفسه، ج9، ص 92.

(4) المصدر نفسه، ج9، ص 92.

رَفَعْتَ بِالنَّصْرِ أَعْلَامَ الْهُدَى وَلَقَدْ جَرَدْتَ لِلشَّرِّكَ كِسْرًا لَيْسَ يَنْجَبِرُ

وأبرز الأدب تقوى الناصر محمد وأداءه للفرائض التي هي عماد الدين، فهو على الرغم من انشغاله بالدفاع عن أرض الإسلام وأعراض المسلمين، لا ينسى ما فرض الله تعالى على الإنسان المسلم ليكمل دينه ويُتم نعمة الله عليه، فهذا الشاعر صفي الدين الحلي يصوره مواظباً على أداء الفرائض، حريصاً عليها، يقول⁽¹⁾:

وَبَذَلْتَ لِلْمُدَّاحِ صَفْوَ خَلْقٍ لَوْ أَنَّهَا لِلْبَحْرِ طَابَ مَشَارِبًا
فَرَأَوْكَ فِي جَنْبِ النَّصَارِ مُفَرِّطًا وَعَلَى صَلَاتِكَ وَالصَّلَاةِ مُوَظِّبًا

وعَنْ حِرْصِ السُّلْطَانِ عَلَى أَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ، الَّتِي هِيَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، ذَكَرَتْ الْمَصَادِرُ مُدَاوِمَةَ السُّلْطَانِ عَلَى أَدَاءِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ، وَصَوَّرَتْهُ طَائِفًا حَوْلَ الْكَعْبَةِ، مُتَّجِهًا إِلَى رَبِّهِ يَدْعُوهُ بِكُلِّ خُضُوعٍ، فَمِنْ أَقْوَالِهِ: "لَا زِلْتُ أُعْظِمُ نَفْسِي، إِلَى أَنْ رَأَيْتُ الْكَعْبَةَ، وَذَكَرْتُ بَوْسَ النَّاسِ الْأَرْضَ لِي، فَدَخَلْتُ فِي قَلْبِي مَهَابَةً عَظِيمَةً، مَازَلْتُ حَتَّى سَجَدْتُ لِلَّهِ تَعَالَى". وَحَسَنَ لَهُ بَذَرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ جَمَاعَةَ أَنْ يَطُوفَ رَاكِبًا، كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ: "وَمَنْ أَنَا حَتَّى أَتَشَبَّهُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاللَّهِ لَا طُفْتُ إِلَّا كَمَا يَطُوفُ النَّاسُ". وَمَنْعَ السُّلْطَانِ الْحُجَّابِ مِنْ مَنْعِ النَّاسِ أَنْ يَطُوفُوا مَعَهُ، وَصَارُوا يُزَاحِمُونَهُ وَيَزَاحِمُهُمْ فِي مُدَّةِ طَوَافِهِ وَفِي تَقْبِيلِهِ لِلْحَجَرِ"⁽²⁾.

ويذكر ابن إياس حجة السلطان، وأنه طاف ومشى على قدميه حافياً وغسل الكعبة بيديه⁽³⁾.

ويصف الياضي حجة السلطان محمد بن قلاوون سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، فقال: "رَأَيْتُهُ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ، وَعَلَيْهِ ثِيَابُ إِحْرَامٍ مِنْ صُوفٍ، وَهُوَ يَعْرُجُ فِي مَشْيِهِ، وَحَوْلَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ رَكَعَ خَلْفَ الْمَقَامِ، ثُمَّ دَخَلَ الْحَجَرَ فَصَلَّى فِيهِ"⁽⁴⁾.

(1) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 101.

(2) انظر المقرئزي، السلوك، ج 2، ق 1، ص 197.

(3) انظر ابن إياس، بدائع الزهور، الجزء الأول، القسم الأول، ص 450.

(4) الياضي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج 4، ص 251-252.

وصَوَّرَهُ المؤرخون حريصاً على الإكثار من أعمال الخير في أثناء فريضة الحج، عاملاً على تسهيل طرق الحج، وتوفير احتياجات الحجاج، وقد حجَّ السلطان ثلاث مرَّات في عُمره كلَّ مرة يُقدِّم أشياء كثيرة⁽¹⁾.

ومما قدَّمه السلطان للكعبة الشريفة، خالصاً لوجه الله تعالى، منقرباً إليه بالطاعات "في سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة، عمل السلطان للكعبة باباً من الأبنوس، عليه صفائح فضة"⁽²⁾.

ويتحدَّث الرَّحالة ابن بطوطة، الذي زار مصر في عهد الناصر، عن اهتمام الناصر بأداء فريضة الحج، وحرصه الدائم على تحسين وتسهيل زيارة البيت الحرام، وتسهيل طرق الحج، يقول: "للملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة، والفضائل العظيمة، وكفاه شرفاً انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين، وما يفعله في كل سنة من أفعال البر، التي تُعين الحجاج، من الجمال التي تحمّل الزاد، والماء للمنقطعين والضُعفاء، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي، في الدربين المصري والشامي"⁽³⁾.

ويتحدث عن إعمارهِ للمسجد الحرام، وإمداده لما يحتاج، يقول: "وأمرَ بعمل منبر عظيم مُحكَم الصنعة بديع الإنشاء". "وكان يُكثر من الصدقات في الحج، وعند زيارة المساجد"⁽⁴⁾.

وتذكر المراجع مراقبة السلطان لأعمال الحجاج، مبطلاً جميع البدع في الحج، عندما علم أنَّ المسلمين يتمسكون بالعروة الوثقى، ويمسئون المسمار في الكعبة، وما يحدث في ذلك من مفاصد قبيحة، وكل البدع التي تعيق أداء فريضة الحج، أمر بإبطال ذلك⁽⁵⁾.

(1) انظر ابن الجزري، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري القرشي، تاريخ حوادث الزمان وأنبأه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري، حققه عمر عبد السلام تدمري المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ج2، ص532. انظر ابن دقماق، الجواهر الثمين، ص 359. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 99.

(2) انظر السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 772. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 246-247.

(3) ابن بطوطة، الرحلة، ص59.

(4) المصدر نفسه، ص 59-66. انظر الشجاع، تاريخ الملك الناصر، ص 11. انظر المقرئ، السلوك، ج 2، ق 1، ص 200-201.

(5) انظر المقرئ، السلوك، ج 2، ق 3، ص 937-952. عبده عبد العزيز قلقيلة، النقد الأدبي في العصر المملوكي، ص 14.

وكان للقدس حظٌ وافر من اعتناء السلطان، حيث زارها، وقَدَّم من الإكرامات فيها سنة سبع عشرة وسبعمائة⁽¹⁾.

واهتمَّ الناصر محمد بن قلاوون بالوقف، الذي كان له أثرٌ واضحٌ على مجتمع مصر، محققاً بهذا النظام الدقيق، أنموذجاً فريداً من الاكتفاء الذاتي المعيشي والوظيفي، وكان عصره هو العصر الذهبي لازدهار نظام الوقف، والاستفادة منه في مختلف المجالات الحياتية، وكانت وثيقة وقف "سرياقوس"، نموذجاً واضحاً لازدهار نظام الوقف في عصر الناصر واستفادة العامة منه⁽²⁾.

ومن مظاهر تدنيته التي بدت على مناشيره للجند والأمراء، ما ذكره المقرئ في المواعظ والاعتبار، ما يعبر عن تطلع السلطان الدائم لوجه الله تعالى، حيث قال: "وَجَدْتُ العادة أَنَّ السلطان، يكتب خطّه على كلّ ما يأمر به، فأما مناشير الأمراء والجند، وكلّ مَنْ له إقطاع، فإنّه يكتب عليه علامته، وكتبها الملك السلطان الناصر محمد بن قلاوون "الله أُملي" وعمل ذلك الملوك بعده إلى اليوم"⁽³⁾.

أما الصفدي، فقد ذكر أحداث مرض السلطان قبل موته سنة أربعين وسبعمائة، وذكر حادثةً على لسان السلطان، يعجب مَنْ يقرؤها، حيث قال: "أُغمي عليه في بعض أيّام مرضه وظنُّوا أنّه مات، ثمّ أفاق، وقال: "كنت عند ربّي، وأراني مقعدي في الجنة، والخور والولدان، ورأيتُ قصوراً عالية، وأنهاراً جارية، فسألت: لمن هذا المكان؟، فقالوا: لمحمد بن قلاوون"⁽⁴⁾.

من هذا يتبين حرص السلطان الدائم على إظهار الصورة الدينية العظيمة له أمام رعيته، حتى وهو في حالة النزاع ولا نستطيع الجزم بصحة هذا المنام، ولكنه على الأقل يبين أن السلطان يعظم الدين، ويحترم الإسلام، ويتطلع إلى الله تعالى راجياً أن ينال رضاه.

(1) انظر المقرئ، السلوك، ج2، ق 3، ص 172. انظر: حياة ناصر الحجي، السلطان الناصر ونظام الوقف في عهده، ص 34.

(2) انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 401. حياة ناصر الحجي، السلطان الناصر محمد ونظام الوقف في عهده، ص 51.

(3) المقرئ، المواعظ والاعتبار، الجزء الثاني، ص 211.

(4) الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 74.

ويُجمل اليوسفي، صفات الناصر الدينية، موجّهاً هذا الدعاء لله تعالى، مُصوّراً الناصر بأجمل الصُّور، قائلاً: "اللهم انصرُ السلطانَ ابنَ السلطان، الملكَ الناصرَ الذي أقمْتَ به منارَ الإسلام في البرِّ والبحر، وملكتَهُ سننَ الأحكام في الفِطر والنَّحر، وقرنتَ اسمه في الخطبتين، ووليتَهُ الحرَمينَ الشَّريفين، ونفدتَ أوامره باللين والحيف، وأقامَ بقاءَ سيفه على كُلِّ شامخٍ للكُفر، علماً باسمه يُذكر ويُيسَّر، اللهم أدخلِ سراياه في بركته"⁽¹⁾.

هذا ما كشف عنه الأدب، من صور السلطان الناصر محمد بن قلاوون الدينية، فكان ناصر الإسلام والمسلمين، أمده الله تعالى بنصره وتأييده، عمل جاهداً من أجل القضاء على كل مظهر من مظاهر الفسوق، من شرب الخمر، وأماكن اللهو، وحافظ على أداء فرائض الإسلام، من صلاة وحج، وغيرها. وجعل الله أمله دائماً.

خامساً: محبة الناس له

عبّر الأدب عن محبة الناس للسلطان محمد بن قلاوون، وصوّر هذه المحبة صوراً متنوعة، تجلت وظهرت معظمها بعد أن جرّب الشعب حكم غيره من السلاطين، بعد عزله لصغر سنّه، وإبعاده إلى الكرك، فشعروا بالظلم الواقع عليه، ولم يسعدوا لذلك، لأنهم على علم بأحقّيته للحكم والسلطنة التي ورثها عن أبيه وأخيه، إضافةً إلى أنهم لم يشعروا بالأمان في عهد من جاء بعده، واستلم الحكم، بل على العكس من ذلك، حلّ الجذب، وقصر النيل، في سنين غيبة الناصر، لذلك آزره الناس، ورجبوا بعودته، حتى "سار إليه جماعة من المماليك، وهو في الكرك وأعلموا السلطان بما الناس عليه من طاعته ومحبته، ووصلته مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه، وكذلك مكاتبات من حلب"⁽²⁾.

وعبّر الأدب كثيراً، عن حبّ الناس قاطبةً للسلطان الناصر محمد، ومأزرتة، والحُزن الشديد لغيابه، والاشتياق العميق لعودته، حتّى قدّم الدواداري النذور، بالصوم الطويل، إذا عاد الناصر إلى حكمه، قائلاً⁽³⁾:

(1) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 404.

(2) ابن الوردي، تنمة المختصر في أخبار البشر، ج 2، ص 366. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 17.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 174.

لَقَدْ نَذَرْتُ بِأَنْ رَأَيْتَكَ سَالِمًا وَنَظَرْتُ وَجْهَكَ أَنْ أَصُومَ شُهُورًا
حَذَرًا عَلَيْكَ مِنَ الزَّمَانِ وَغَدْرِهِ حَتَّى تَعُودَ مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا

وكان لغيبة الناصر أثرٌ في عامة الشعب، الذي حلَّ عليه الجَدْبُ، وفَشَت فيهم الأمراض، ولم يتأخروا عن نصرته، والوقوف إلى جانبه، "حَتَّى سُمِعَت صِيحَةٌ فِي الْقَلْعَةِ، سَبِّهَا أَنَّ الْعَامَّةَ، كَانَ جَمْعُهُمْ قَدْ كَثُرَ، وَكَانُوا شَدِيدِي الْمَحَبَّةِ لِلنَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قِلَافُونَ، فَلَمَّا عَلِمُوا مُحَاصِرَتَهُ فِي الْقَلْعَةِ، حَنَقُوا مِنْ ذَلِكَ، وَصَرَخُوا، ثُمَّ حَمَلُوا يَدًا وَاحِدَةً عَلَى الْأُمَرَاءِ، وَهُمْ يَقُولُونَ: "يَا نَاصِرُ!... يا منصور"، ..، اِشْتَدَّ صِيَاحُهُمْ: "يَا نَاصِرُ! يَا مَنْصُورُ"، وَتَكَاثَرَ جَمْعُهُمْ، وَهُمْ يَدْعُونَ لِلسُّلْطَانِ: "اللَّهُ يَخُونُ الْخَائِنَ، اللَّهُ يَخُونُ إِلَيَّ يَخُونُ ابْنَ قِلَافُونَ"⁽¹⁾.

وَبَدَأَ الْعَامَّةُ بِتَرْيِيدِ أَغَانِي الشُّوقِ لِلسُّلْطَانِ، وَالسَّخَرِيَّةِ مِنْ أَعْدَائِهِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْ اسْتِيَائِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ، فَأَنْشَدَ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ مُنْشِدٌ يُقَالُ لَهُ مَسْعُودٌ، مُعْرَبًا عَنْ الْحَبِّ الَّذِي يَحْمِلُهُ النَّاسُ لِلنَّاصِرِ، وَتَحَوَّلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ الْمَسَافَاتُ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْوَصُولَ إِلَيْهِ، يَقُولُ⁽²⁾:

أَحِبَّةُ قَلْبِي إِنَّنِي لَوَحِيدٌ أُرِيدُ لِقَاكُمْ وَالْمَزَارُ بَعِيدٌ
كَفَى حُزْنًا إِنِّي مُقِيمٌ بِبِلَدَةٍ وَمَنْ شَفَّ قَلْبِي بِالْفِرَاقِ فَرِيدٌ
أَجُولُ بِطَرْفِي فِي الدِّيَارِ فَلَا أَرَى وَجُوهَ أَحِبَّائِي الَّذِينَ أُرِيدُ

وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْ حُلُولِ الْجَدْبِ وَالْوَبَاءِ عِنْدَ ابْتِعَادِ النَّاصِرِ عَنِ الْحُكْمِ، وَاسْتِلَامِ غَيْرِهِ رَدَدَ الْعَامَّةُ أَيْضًا هَذِهِ الْأَبْيَاتَ، وَذَكَرَهَا الْكَثِيرُ مِمَّنْ أَرَّخَ لِهَذِهِ الْفَتْرَةِ، تَقُولُ⁽³⁾:

سُلْطَانَانَا رَكْنَيْنِ⁽⁴⁾ وَنَائِبُو دَقْنَيْنِ⁽⁵⁾

يَجِينَا الْمَاءَ مِنْ أَيْنِ

⁽¹⁾ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 138-139. المقرئ، السلوك، ج 2، ق 1، ص 35.

⁽²⁾ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص 12.

⁽³⁾ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 243. السيوطي، حسن المحاضرة، ج 2، ص 257. ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 425.

⁽⁴⁾ ركنين: لقب لبيرس الجاشنكير لقبه به العامة، حيث كان لقبه "ركن الدين" فحوّلوه إلى ركنين تهكمًا. انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 425.

⁽⁵⁾ دقنين: لقب لقبت به العامة أتابك ببيرس الجاشنكير من قبل التهكم، حيث كان أجرد في حنكه بعض شعرات. انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 425.

يجيبوا لنا الأعرج⁽¹⁾ يجي الماء يدحرج

ويصورّ الشارمساحي، ما حلّ في البلاد من جذب ومحلّ ووباء في عهد بيبيرس الجاشنكير، بعد أن ابتعد الناصر عن الحكم وغادر البلاد، حتّى إن الخير ولّى معه، والأخضر أصبح يابساً، وكل ذلك حصل في دولة بيبيرس، لأنها لم تقم على الحق، بل قامت على الخداع والغشّ وسلب حقوق الآخرين، يقول⁽²⁾:

فَقُلْ لِبَيْبِرْسِ إِنَّ الدَّهْرَ أَلْبَسَهُ	أَثْوَابَ عَارِيَةٍ فِي طَوْلِهَا قِصَرُ
لَمَّا تَوَلَّى تَوَلَّى الْخَيْرَ عَنْ أُمِّ	لَمْ يَحْمِدُوا أَمْرَهُ فِيهِمْ وَلَا شَكَرُوا
فَمَا مَشَى لِلْوَرَى حَالٌ بِدَوْلَتِهِ	وَلَا اسْتَقَامُوا عَلَى الْحُسْنَى كَمَا أَمَرُوا
وَكَيْفَ تَمْشِي بِهِ الْأَحْوَالُ فِي زَمَنِ	لَا النَّيْلُ وَافِي وَلَا وَفَاهُمُ الْمَطَرُ
وَكُلُّ خَضِرَاءَ أُمْسَتْ وَهِيَ يَابِسَةٌ	وَالرِّزْقُ تَيْسِيرُهُ لِلْمُرْتَجَى عَسِرُ

وسيطرت فكرة حلول الجذب عند ابتعاد الناصر، وحلول الغيث والرخاء أينما حلّ، لذلك تطلع الناس إلى عودته، وكرهوا ابتعاده عنهم، فهذا علاء الدين بن عبد الظاهر يُصوِّره، بصورة الغيث المُغيث لبلاد الشام وبصورة النيل الذي يجي مصر عند قدومه إليها⁽³⁾، يقول⁽⁴⁾:

أَنْتَ غَيْثٌ إِذَا وَرَدْتَ إِلَى الشَّامِ	وَنَيْلٌ إِذَا تَيَمَّمْتَ مِصْرَا
أَطْلَعَ اللَّهُ مِنْ جَيْبِكَ شَمْسًا	لَيْسَ تَخْفِي وَمِنْ مَحِيَّاكَ بَدْرَا

ويؤكد هذه الصورة ويدعمها الشاعر جمال الدين أبو بكر، في مدحه للناصر محمد، فيقول⁽⁵⁾:

مَلِكٌ أَيَّمَا تَوَجَّهَ تَلْقَاهُ	سَحَابٌ وَرَحْمَةً وَرَخَاءُ
فَهُوَ غَيْثُ الثَّرَى وَغَوْتُ الثُّرَيَّا	أَيَّمَا حَلَّ حَلَّتِ النِّعْمَاءُ

(¹) الأعرج هو السلطان محمد بن قلاوون حيث كان يعاني من عرج خفيف بساقه. انظر ابن اياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص425.

(²) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص8. السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص118. ابن اياس، بدائع الزهور، ص432.

(³) انظر مأمون فريز جزار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص132.

(⁴) المقرئ، السلوك، ج1، ق3، ص1036. مأمون فريز جزار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص132.

(⁵) الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص193.

ويصور الشاعر ببيرس المنصوري، الناصر محمداً غيثاً، حلَّ على الحجاز عند ذهابه للحج، فكان خيراً عليها، أطفأ شرارة الفتن، وأقام العدل، يقول فيه⁽¹⁾:

نَهَدْتَ إِلَى الْحِجَازِ فَكُنْتَ غَيْثاً فَكَمَ أَطْفَأْتَ حِينَ أَطْفَأْتَ جَمْرًا
وَسَرَّتَ إِلَى الشَّامِ فَكُنْتَ غَوْثاً رَفَعْتَ مَذَلَّةً وَوَضَعْتَ إِصْرًا

وهذا الغيث وهذه النعماء، حُرِّمَتْ حَقُّهَا فِي الْحُلُولِ عَلَى مَوْطِنِهَا، وَسَلَطْتُهَا، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ شَمْسَ الدِّينِ الطَّيِّبِي، يَرَى أَنَّ هَذَا الْحَرَمَانَ لَنْ يَطُولَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَعُودَ الْحَقُّ إِلَى أَصْحَابِهِ، يَقُولُ⁽²⁾:

الْحَقُّ مُرْتَجِعٌ إِلَى أَرْيَابِهِ مِنْ كَفٍّ غَاصِبِهِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى

وَيُصَوِّرُ الشَّاعِرُ نَاصِرَ الدِّينِ شَافِعَ، حَزْنَ النَّاسِ وَبُكَاءَهُمْ فِي غِيَبَةِ النَّاصِرِ مُحَمَّدٍ، وَاسْتِیَاءَهُمْ مِنْ حُكْمِ أَعْدَائِهِ، وَرَغْبَتَهُمُ الشَّدِيدَةَ بِعُودَتِهِ، وَالتَّعْبِيرُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ عَنْ حُبِّ النَّاسِ لِهَذَا السُّلْطَانِ الْمَرْغُوبِ وَكَرْهِهِمْ لَغَيْرِهِ، يَقُولُ⁽³⁾:

بَكَتْكَ عَيُونٌ حِينَ وَلَّيْتَ مُعْرِضاً وَقَرَّتْ وَقَدْ وَافَيْتَهُنَّ عَيُونٌ
تَوَلَّتْ أَعَادِيكَ الْهُمُومَ فَأَصْبَحُوا وَجَلُّ مُنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ مَنُونٌ
وَحَارُوا وَجَازُوا مِنْ سَطَاكَ وَكُلُّهُمْ بِمَا كَسَبُوا بِالْمَيْلِ عَادَ رَهِينٌ
لِيَهْنِ الْوَرَى إِنْ عُدْتَ لِلْمُلْكِ سَالِماً يُجَمِّلُهُ مِنْكَ الْعُلَا وَيَزِينُ

وَفِي أَثَرِ عُودَةِ النَّاصِرِ إِلَى حَقِّهِ، نَظَّمَ الْأَدَبُ مَعَانِي الْفَرَحِ وَالسَّرُورِ، وَصَوَّرُوا فَرَحَ النَّاسِ وَاسْتِقْبَالَهِمُ النَّاصِرِ مُحَمَّدًا، بِالتَّرْحِيبِ وَالتَّهْلِيلِ، فَذَكَرَتِ الْكَثِيرُ مِنَ الْمَرَاجِعِ كَيْفِيَةَ اسْتِقْبَالِ النَّاصِرِ وَكَيْفَ زَيَّنَتِ الْقَاهِرَةُ فَرَحاً بِهَذِهِ الْعُودَةِ، يَقُولُ الْعَيْنِي فِي عَقْدِ الْجَمَانِ: "وَخَرَجَ الْأَمْرَاءُ، وَالنَّاسُ قَاطِبَةً لِلِقَائِهِ، وَكَادَتْ الْقَاهِرَةُ وَمِصْرُهَا أَلَّا يَتَأَخَّرَ بِهِمَا أَحَدٌ، فَرَحاً بِقُدُومِهِ، وَأَظْهَرَ النَّاسُ مِنَ السَّرُورِ مَا لَا يُوصَفُ، وَزَيَّنَتِ الْقَاهِرَةُ وَمِصْرُهَا بِأَفْخَرِ زِينَةٍ، وَأَبْطَلُ النَّاسُ مَعَاشِيَهُمْ، وَضَجُّوا لَهُ بِالذِّعَاءِ وَالشُّكْرِ لِلَّهِ عَلَى عُودَتِهِ إِلَى الْمُلْكِ، وَاسْتَمَرُّوا فِي الْفَرَحِ وَالسَّرُورِ إِلَى يَوْمِ جُلُوسِهِ عَلَى

(1) ببيرس المنصوري، مختار الأخبار، ص 130.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص 8.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 19.

تخت الملك، قال الشاعر: مبيناً أن الناصر صاحب حق في السلطة، وليس هناك من هو أحق منه، ويظل رغم عزله سيفاً حاداً، يستطيع الأخذ بثأره واستعادة حكمه:

قد رَجَعَ الحقُّ إلى نصابِهِ وأنتَ من دون الوريِّ أولى به
ما كُنْتَ إلَّا كالسَّيفِ سلَّته يدُ ثمَّ أعادتُهُ إلى قِرابِهِ⁽¹⁾

ويصور الشاعر شمس الدين محمد بن علي الراعي، عودة الناصر ونصره على أعدائه أنه نصرٌ سرٌّ محمداً، صلى الله عليه وسلم، لأنه نصرُ الحقِّ على الظُّلم والعدوان، يقول⁽²⁾:

الملك عادَ إلى حماه كما بدا ومُحمَّدٌ بالنَّصرِ سرٌّ مُحمَّداً
وإيابه كالسَّيفِ عادَ لغمِّه ومعاده كالوردِ عاوده النَّدَى

وهذا ما يراه أيضاً الصلاح الصفدي، الذي صور فرحة مصر بأسرها، عند قدوم الناصر منصوراً، وذلَّ أعداؤه وهزيمتهم، يقول⁽³⁾:

تثنى عطفُ مصرٍ حين وافى قدوم الناصر الملك الخبير
فذلَّ الجشَنكير بلا لقاء وأمسى وهو ذو جأشٍ كبير

هكذا تصور كتب التاريخ والأدب، ما لحق ببيرس عند عودة الناصر محمد وما لقيه من الناس، "حيث اضطرب بعد سماعه بتخلق الأمراء والشعب، والجيش حول الناصر، فقرّر عزل نفسه، وهمّ بالخروج من القاهرة فلحق به العامة، وأخذوا بالعدو خلفه، وخلف عسكره، وهم يسبّون ويصيحون... واستمروا بملاحقته ورجمه بالحجارة"⁽⁴⁾.

وكما عبر الأدباء عن فرحتهم، وفرحة الناس جميعاً بعودة الناصر إلى حقه المغتصب، هاجموا أعداءه ووصفوه بصفات الضعف، لأنهم في الموقف الأضعف، فهذا الدواداري يصور الناصر محمداً "عقاباً" ينقضُّ على "البومة"، التي صورها "ببيرس الجاشنكير" رغبة في إظهار

⁽¹⁾ العيني، عقد الجمان، ج 3، ص 455. انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 401-402.

⁽²⁾ الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 67-73.

⁽³⁾ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 18. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 285. السيوطي، حسن المحاضرة، ج 2، ص 117. انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 431.

⁽⁴⁾ الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 192. انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 67-73.

انتصار الناصر على أعدائه، يقول: "فكان الرَّمزُ الظاهر، أنَّ هذا العُقاب الكاسر، هُو المَلِك النّاصر، وأنَّ هذا اليوم المكسور، ببيرس الباغي المقهور، وذلك مُطابق لقياس الجنسيّة، فإنَّ جنس مولانا السلطان الملك الناصر، أشرف جنوس التّرك، وجنس ببيرس أبدأ وأنجس جنوسها وأخبثها"⁽¹⁾.

وهذا الشاعر ناصر الدين بن النقيب يصوّر، الفرحة في عودة الناصر بعد صبر النّاس وانتظارهم، يقول⁽²⁾:

كَمْ دَعَوْنَا حَتَّى رَجَعْتَ إِلَيْنَا وَصَبَرْنَا حَتَّى بَلَغْنَا الْمُرَادَا

ويتغنّى بهذه العودة منشداً أجمل أبيات الترحيب بالناصر، معرباً عن عودة الفرحة والهناء، وازدياد النعمة وعمومها عند عودته، بعد انقطاعها النعمة، وقلّة الأرزاق في عهد غيره، يقول⁽³⁾:

عَادَ لِلْمُلْكِ صَاحِبُ الْمُلْكِ عَادَا	ثُمَّ أَبْدَى النِّعْمَا لَنَا وَأَعَادَا
مَرْحَباً مَرْحَباً بِأَوْفَى مَلُوكِ الْأَرْضِ	قَدَرَا فِي مُلْكِهِ وَسَدَادَا
أَيُّ بَشَرِي بِعُودَةِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ	سَرَّتْ فِي الْخَافِقِينَ الْعِبَادَا
عُودَةً جَدَّدَتْ هَنَاءً وَأَفْرَاحاً	وَرَدَّتْ أَيَّامَنَا أَعْيَادَا

ويصوّر عودته بعودة البهجة والسرور على هذه الدولة، وملكه كملك سليمان الذي ساد وعمّ حتى ملك كل الكائنات، وأصبحت تحت إمرته، وهذا ما يريده الشاعر للناصر محمد، يقول⁽⁴⁾:

أَعَدَّتْ لِلدَّوْلَةِ الْغُرَاءَ بِهَجَّتِهَا فَاْمَلِكْ كَمُلِكْ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدُ

ويرى الشعراء أن الأقدار أساءت عند ابتعاد الناصر محمد عن حكمه، وأنّ الزمان ظلم الناس عندما مكّن غير الناصر في الحكم، والآن يأتي هذا الزمان، ويقدم اعتذاره، فتذهب

⁽¹⁾ (الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 161-162.

⁽²⁾ (المصدر نفسه، ص 195.

⁽³⁾ (المصدر نفسه، ص 194.

⁽⁴⁾ (العيني، عقد الجمان، ج 3، ص 456.

الأحزان ويعُمُّ السرور، فهذا الشارمساحي يصوّر الإعتذار الذي قدمه الزمن، ويشكر الله سبحانه وتعالى على هذه الفرحة التي عمّت الجميع، قائلاً⁽¹⁾:

الله أذهب عنا الحزنَ فانفَرَجَتْ	عن القلوبِ كروبٌ صفوها كدرُ
إنَّ الزَّمانَ الذي عمَّتْ إساءتهُ	على البريةِ أمسى وهو مُعتذرُ
وقد أتى يستردُّ الآنَ ما غَظَّتْ	به عليه ليالٍ دأبها الغررُ
هيئات قد دَهَمَتْهُ كُلُّ نايبةٍ	لقدرٍ كلِّ عَظيمٍ عندها صغرُ

وهذا الشاعر محمد المنبجي، يجد الأيام قد راقت وهدأت وابتسمت وزالت الآلام بعد عودة الناصر محمد، يقول⁽²⁾:

يا مَنْ راقَتِ الأيامِ وابتَسَمتْ بعدَ العبوسِ فما في صفوها كدرُ

ويعرب الخليفة أبو الربيع سليمان، عن سعادته بعودة الناصر محمد إلى سلطته وملكه الذي هو أهلُّ له، لما له في نفوس الناس وقلوبهم من محبة، يقول: "وكان ركابك العالي، قد سارَ إلى الكرك المحروس، وقعدت عنك الأجسام، وسافرت معك النفوس، ووثقت الخواطر بأنك إلى السلطة تعود، وأنَّ الله تعالى يجددُ لك صعوداً إلى مراتب السُّعود... ودُعيت للعود المبارك... وفعلت الجيوش المنصورة من طاعتك كلَّ ما سرَّ"⁽³⁾.

ولم يقتصر حبُّ الناصر على البشر، كما صور ذلك الأدب، بل تعدّاه إلى الجمادات من بلادٍ وقلاعٍ وأنهار، كل ذلك استبشر خيراً لعودته، وسعى إلى لقائه، والاحتفال بقدومه، فتقام الاحتفالات في أيِّ بقاع يصل إليها، وقد أطنب القاضي علاء الدين علي بن عبد الظاهر، بتصوير فرحة الأرض ومنَّ عليها فيقول: "أبدلت الأرض غير الأرض، أو صارت سماءً، وإلاّ فما هذا القمر حوله النجوم الزواهر، وعادت المآتم بدمشق أفراحاً وأعراساً... والقلعة بآلات

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 192.

(2) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 91. انظر مأمون فريز جرار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 229.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 10، ص 62-63.

حصارها مُزينة، قائلة: كيف يُستَباح حماي، وأنا بهذا السلطان محصّنة... والأقاليم قد تاهت بسُلطانها بهجةً وسروراً...⁽¹⁾.

ويعبر الأدب عن عموم حب الناصر المخلوقات جميعاً، البلاد والعباد، فمصر حزينة لفراقه، ولا يُصبرُّها إلا إيمانها بعودته، وكرسي الحكم يتمنى لو تبعه أينما حلّ، وفي اشتياق أرض مصر، واشتياق كرسي الملك لهذا السلطان العظيم، يصور ابن عبد الظاهر مصر، وقد أرسلت رسائل الشوق، وطلب العودة، فيقول: "ومصر تبعثُ إليه مع النسيم رسائل، وتبذلُ له في تعجيل عوده وسائل، وكرسي سلطنتها يودُّ لو سعى من شوقٍ إليه، أو شافهه بالهناء بالنعمة التي أتمّها الله عليه... فلنّى دعوتها، ولم يُطلِ جفوتها..."⁽²⁾.

أما النيل، الذي قصرَّ عند غياب الناصر حزناً وأسفاً، يصورُّه ابن عبد الظاهر، وقد رغبَ في لقائه، وهمّ أن يجري في طريقه، ولكنه استحي أن يقابل هذا السلطان العظيم، وهو فيما عليه من التقصير، فهذا لا يليق بمقامه، يقول: "وهمّ نيلها أن يجري في طريقه، لكنه أخّره النقص والتقصير، واستحي أن يقابله وهو في دون غاية التمام، أو يسير من مواكب أمواجه، في عدد يسير.. وكان عمود مقياسه قد آلى ألا يأتي بزيادة إلا بعد مقدمه..."⁽³⁾.

ويُنطق الدوادي أيضاً الجمادات، ليصور حبّها واشتياقها لهذا السلطان فيجعل النيل ينطق فرحاً، قائلاً: "وعزّة الرحمن، ومن أجراني من الجنان، لولا شيوخ رُكّع وأطفال رُضّع، لتوقّفتُ ولم أطلع، ولو علمت أن مصر بلا ناصر، وخالية من نورها الباصر، لما استبشّرت مني بجريان"⁽⁴⁾.

ويُتابع الدوادي مصوراً الذلّ الذي حصل للبلاد في غيبة السلطان، حتى إنّ القاهرة أوشكت على الزوال، لولا استبشارها، وفرحها بعودة الناصر التي اعادت لها العزّ والشموخ،

(1) المقرّبي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1035.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1039.

(3) المصدر نفسه، ص 1039.

(4) الدوادي، كنز الدرر، ج 9، ص 163-164.

فقال: "وقالت القاهرة، وهي كالوالهة الحائرة، وحقّ من أذلّني بعدَ عزّي، وأعزّني بناصري بعد مُعزّي، لولا أدين بالرجعة، لما أبقيت من معلمي على بقعة، وكنت أطبق أسواري...."(1).

ويوضح الشاعر محمد المنبجي ما حصل للكائنات جميعاً، من اشتياقٍ للناصر، وفرحة بعودته، بعد الحزن والفتور لبعده، فهذا الحبّ هبة من الله تعالى، من كل من يحيط به، لأنه في نظر الشاعر يستحق هذه الهبة والكرامة، يقول(2):

ألقى الإلهُ عليه من محبّته فاشتاقه كلُّ ذي سمعٍ وذو بصرٍ
وأسكنَ الحبَّ في كلِّ القلوبِ له بين البريّة من أنثى ومن ذكرٍ

ويتضح أثر عودة الناصر على الجميع، ويعمُّ السرور الكون، ويصبح ذلك اليوم عيداً، مع العلم أن الناصر عاد في عيد الفطر، فأصبح العيدُ عيدين، يوضحهما الشاعر شمس الدين بن سواده، قائلاً(3):

وجيتَ بعيدينَ في شهرنا فعيدُ القُومِ وعيدُ الفُطورِ

ويجعل الشاعر محمد بن موسى الداعي، هذا العيد مختلفاً عن كل عيدٍ مرّ على البشرية، التي سعدت بالعيد وبالعودة معاً، يقول(4):

فتَهَنَّ عيداً لم يجد مثلاً له في الدَّهرِ خلقُ صامٍ قبلَ وعيداً
وتباركوا بسناءِ غرَّتكَ التي وجدوا على أنوارِ بهجتها هدى

وكما ظهرت محبة الناس في محنة السلطان عند عزله، ظهرت وازدادت هذه المحبة عندما حقق السلطان نصراً على أعداء الأمة، وفرّج عن العالم الشدائد التي لحقت بهم، إثر الهزائم العديدة، التي عانى منها المسلمون، فكان من أعاد القوة والشباب للدولة الإسلامية، بعد عجزها وهرمها، يقول جمال الدين أبو بكر فيه(5):

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص 164.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص 194.

(3) المصدر نفسه، ج9، ص 190-191.

(4) المصدر نفسه، ج9، ص 193.

(5) المصدر نفسه، ج9، ص 99-100. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 248.

ملك أعيد به عصر الشباب لكم مستورداً صافياً واستوقف العمر

فهذا السلطان العظيم، جدير بمحبة رعيته، وجدير باحترامهم، وتظهر هذه المحبة أكثر ما تظهر في الشدائد، عند مرض السلطان الناصر، فتهتز عواطفهم، ويمرضون لمرضه، يقول الدواداري⁽¹⁾:

إذا ما اعتل سلطان الورى اعتلت الأرض ومن فيها
فالله كافيها من الأسوأ كما أضحى لكل الخلق كافيها

وعندما يمن الله تعالى على السلطان بالعافية، تزول الشدة عن الأمة، وتحل الأفراح، ويؤمن الناس حوائيتهم، وبيوتهم، يصور الدواداري ذلك فيقول: "كانت الزينة بمصر والقاهرة، ما شهد الناس مثلها، وذلك لما من الله تعالى به على الأنام، بعافية سيّد ملوك الإسلام..."⁽²⁾.

ويصور المقرئ الناس وزينتهم، عند عافية السلطان، واصفاً احتفال العامة بهذه العافية، وتعبيرهم عن فرحهم بكل الوسائل، يقول: "وتفاخر الناس في الزينة، بحيث لم تعهد زينة مثلها، وأقامت أسبوعاً، تفنن الناس بأنواع الترف، اجتمع أرباب الملاهي في عدة أماكن، بجميع الآلات، والأفراح بالقلعة، وسائر بيوت الأمراء مدة أسبوع، فلم يبق أمير، إلا وعمل في بيته فرحاً"⁽³⁾.

وهذا ابن بطوطة، يصور فرحة أهالي مصر، بعافية السلطان من كسر أصابه إذ قال: "وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو، شاهدت بها مرة فرجة بسبب بُرء الملك الناصر، من كسر أصاب يده، فزّين كل أهل سوق سوقهم وعلّقوا بحوائيتهم الحلل والحلي، وثياب الحرير، وبقوا على ذلك أياماً"⁽⁴⁾.

وكما تجلت وظهرت محبة الناس للسلطان عند عزله، وعند انتصاره، تظهر وتتجلى في تعبيرهم عن جماله وحسن خلقه، فرسم له الأدب صورة مادية، صورته ذا وجه جميل، وطلعة

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 236.

(2) المصدر نفسه، ج 9، ص 292. انظر ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ج 2، ص 289.

(3) المقرئ، السلوك، ج 2، ق 2، ص 216-218.

(4) ابن بطوطة، الرحلة، ص 53.

بهية حتى وصل الأمر بعلاء الدين علي بن عبد الظاهر، أن يُشبّهه "بيوسف عليه السلام"، مستخدماً التناصّ القرآني، جاعلاً عيون أهل مصر يصفنه بالملائكة قائلاً: "وشاهدتُ عيون أهل مصر، لما رأيته أكبرته وقطعن أيديهنّ وقلن حاشا لله ما هذا بشراً، إن هذا إلا ملكٌ كريم.." (1).

ولعلّ هذه الصورة الحسنة، زادت من إعجاب الناس به وبشخصيته، حيث وجدوا فيه الحُسنَ والجمال، كما وجدوا فيه الشجاعةَ والمروءة، يقول صفي الدين الحلّي مصوراً السلطان بالغزال لجماله (2):

أَحْسَنَ كُلِّ النَّاسِ وَجْهًا وَفَمَا
حَكَى الْغَزَالَ مُقْلَهُ وَلَفْتَهُ
إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَقُّ بِالْحُسْنِ فَمَنْ
مَنْ ذَا رَأَاهُ مُقْبِلًا وَلَا افْتَتَنَ

ويُحسن صفي الدين الحلّي التغزل في السلطان، مُصَوِّراً إياه بأجمل صورة، متمنياً أن يمنّ عليه السلطان بنظرة، مفتتحاً قصيدة المدح بالنسيب، وهو في ذلك يسير على سنن الماضين، ولا يعتني في ذلك لذوق الناصر بقدر ما يعنيه ذوق من يحيط به من كتاب ومالكي مقاليد الإنشاء (3)، يقول (4):

وَمُعْرَبُ اللَّحْظَاتِ يَتْنِي عِطْفَهُ
حَلَوُ التَّعْتَبِ وَالِدَّلَالِ يَرَوْعَهُ
عَاتِبَتُهُ فَتَضَرَّجَتْ وَجَنَاتِهِ
ذُو مَنْظَرٍ تَغْدُو الْقُلُوبُ لِحُسْنِهِ
لَا بَدَعَ إِنْ وَهَبَ النَّوَظِرُ خُطْوَةً
فِيخَالُ مِنْ مَرَحِ الشَّيْبَةِ شَارِبَا
عَتَبِي، وَلَسْتُ أَرَاهُ إِلَّا عَاتِبًا
وَأَزُورُ الْحَاضِرَ وَقُطْبَ حَاجِبًا
نَهْبًا، وَإِنْ مَنَحَ الْعُيُونَ مَوَاهِبَا
مِنْ نَوْرِهِ، وَدَعَاهُ قَلْبِي نَاهِبَا

وتستمر المحبة، ويستمر الوفاء لهذا السلطان، فإذا أحبّ الناسُ سلطانهم، لا بُدَّ سيأسفون لفقده، ويحزنون لموته، ويرون الحياة دونه صعبة، والملك بعده يفقد قوّته وناصريه، ويسود الظلام بعد النور، هذا ما رآه ابن الوردي، فكتب تعزيةً بموت الناصر مصوراً حزنه العميق،

(1) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1039.

(2) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 104.

(3) انظر فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ملامح المجتمع المصري، دار المعرفة الجامعية، 2003م، ص 413-414.

(4) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 95-96.

يقول فيها: "كتبت عن قلب يتقلب، ونار تشب وتغلب، ودموع تباري السيل وهلوع يجاري الخيل، وما ظنك بكسوف شمس النهار، والفلك الأعلى إذا انهار، فتمتُ الحزن في هذا الفادح القادح قاصر، فكيف لا؟! وقد فقد الملك عزته وناصره، {فما له من قوة ولا ناصر} (1) (2).

وبصور صفي الدين الحلّي عموم الحزن على جميع البلاد مصر والشام بأسرها، لفقد السلطان الأعظم، فلم يخل أي جزء من الحزن عليه، يقول (3):

فإن أظلمت أرض الشام لحزنها فلم يخل من ذاك الصّعيد ولا مصر
ولم نرَ بَرّاً قبله غاب في الثرى ولم نرَ طَوْداً قبله ضمه القبر

وتتهمر دموع الشاعر، بعدما حاول الصبر، ويصف ما حلّ بالدولة من فاجعة، جاعلاً الخلق جميعاً يتحدّون في الأحزان، والناصر قد مات، ورحل عن رعيته، ورحلت معه تطلعات المستقبل، وتوقفت عجلة الأيام، بتوقف نفس هذا السلطان، فلتحلّ الأحزان ولتعتظم الفواجع، يقول (4):

وفي لي فيك الدمع إذ خانني الصبر وأنجد فيك النظم إذ خذل النصر
وأضحت تقول الناس والدست والعلی كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر
وساوى قلوب الناس في الحزن رزؤه كأن صدور الناس في حزنها صدر

ويعدّد صفي الدين الحلّي الأسباب التي جعلت هذا الرّزء عظيماً، لموت هذا السلطان العظيم، فقد سما وعلا ولم يترك من صفات المجد صفة إلا تحلّى بها، فكيف لا يكون موته فاجعة، يقول (5):

فتى لم يدع في مهجة المجد حسرة مدى الدهر، إلا أن يطول له العمر
فتى دخر الحسنى، فأعقب فعله عواقبه الحسنى، فقد نفع الذخر

(1) سورة الطارق: 10.

(2) ابن الوردي، الديوان، ص 140.

(3) ابن حبيب، المنتقى من درة الأسلاك، ص 178.

(4) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 377.

(5) المصدر نفسه، ص 378.

ويحاول الشاعر تقديم العزاء لذوي السلطان والمسلمين، ويتمنى لو تستطيع الأشعار إيفاء الناصر حقّه، ولكن لا يمكن للشاعر أن يفي هذا السلطان حقّه، فهو من تنازعت عليه الأرض باطنها وظاهرها، والآن يفخر الثرى لضمّ جسده، فأى كلمات تفي هذه الصفات حقّها، يقول⁽¹⁾:

طَوَاهُ الثَّرَى مِنْ بَعْدِ مَا شَرَّفَ الثَّرَى	بَوَاطِيهِ، وَالتَّخْتُ وَالدَّسْتُ وَالْقَصْرُ
وَقَدْ كَانَ بَطْنُ الْأَرْضِ يَغْبُطُ ظَهْرَهَا	عَلَيْهِ، فَأَمْسَى الْبَطْنُ يَحْسُدُهُ الظَّهْرُ
وَلَوْ نَظَّمْتُ الشَّعْرَ فِيكَ قَلَانِدًا	تَمَنَّتْ نُجُومُ اللَّيْلِ لَوْ أَنَّهَا شَعْرُ
سَابِكِيكَ بِالْأَشْعَارِ حَتَّى إِذَا وَهَتْ	سُلُوكُ عُقُودِ النَّظْمِ أَنْجَدَنِي النَّثْرُ

هكذا عبر الأدب، شعره ونثره، عن حبّ الناس بعامّة، لهذا السلطان، حتّى صورّه يمشي السعد والخير بين يديه، ففرحوا لفرحته، وحزنوا وتألّموا لحزنه ومرضه، واستمرّ الوفاء له بعد موته، فرثوه بأجمل الأشعار، وأجلّ المعاني.

سادساً: ذكاؤه وحسن رأيه

وصف الناصر محمد بن قلاوون بالذكاء والفطنة، وأكد المؤرخون هذه الصفة فيه، يقول ابن تغري بردي: "كان مفرط الذكاء يعرف جميع ممالك أبيه، وأولادهم بأسمائهم، ويُعرف بهم الأمراء فيتعجبون"⁽²⁾.

ويقول ابن إياس، واصفاً ترتيب السلطان لأحوال دولته، وحرصه على تنظيم أمور السلطنة ونوابها بذكاء وحكمة: "رتّب المَوَاكِبَ بالقصر الكبير، ورتّب وقوف الأمراء في المَوَاكِبَ... ورتّب أشياء كثيرة من نظام المملكة، وهي باقية إلى الآن، ومشى عليها من جاء بعده من الملوك، لا يعلم لأحد من الملوك آثار مثله، ولا مثل ممالكه"⁽³⁾، ولم ينفرد برأى، بل كان يستشير من حوله، ويأخذ برأيه، ذكر ابن إياس، كيف جمع الأمراء، وضرب المشورة، قبل ملاقة غازان⁽⁴⁾.

(1) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 379.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص 133.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 481.

(4) انظر المصدر نفسه، ج 1، ق 1، ص 403.

ويتحدث المقريري عن ذكاء السلطان في معركة مرج الصفر سنة 702هـ، حيث حالفه الحظ، بعد جُهدٍ جهيد، وذكاء وحكمة، من سلطان لم يتجاوز عمره الخامسة عشرة، وُضِعَ في موقفٍ عظيم، فكان كفيلاً به، قادراً على تجاوزه، فاستخدم الذكاء إلى جانب القوة، واتخذ من ضرب البوقات⁽¹⁾ والكوسات⁽²⁾، وسيلة لإيقاع الرعب في نفوس التتر، يقول: "كوسات السلطان والأمراء، والبوقات قد رجفت بحسّها الأرض، وأزعجت القلوب فلم يثبت "بولاي" أحد مقدّمي التتر، وخرج من تجاه "قطلو شاه"⁽³⁾ هارباً، وذكر منع السلطان الماء عن جيش التتار حتى اجهدهم العطش، فنزلوا عن الجبل، يقصدون الماء، وعند ذلك رمتهم سيوف المسلمين، وحصدوا رؤوسهم بسهولة⁽⁴⁾.

وتتحدّث حياة ناصر الحجّي عن ذكاء السلطان في التعامل مع الأمور، عندما اختار الذهاب إلى الكرك، وترك كرسي السلطنة، رغم مناجاة الكثير له، لعدم اختيار هذا الحل، إلا أنه بعمله هذا، كشف نوايا أعدائه من الأمراء، وانجلت حقيقتهم⁽⁵⁾.

وعلى الرغم من خروج السلطان من مصر، وتوجّهه إلى الكرك، إلا أنه بحكمة وذكاء، يتقرّب إلى أمراء ونواب السلطنة، ويطلب منهم برفق إعلامه بما يحدث، فيقول في مكاتباته لهم: "ولا تعملوا شيء⁽⁶⁾ حتى تُشاوروني فأنا ما أريد لكم إلا الخير"⁽⁷⁾.

(1) جمع بوق، وهو مزمار نحاسي يُنفخ به، بوق عسكري، من اللاتينية (buccina) بمعنى الفم الذي ينفخ بالبوق. انظر محمد ألتونجي، المعجم الذهبي في الدُخيل على العربي، عربي - عربي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط1، 2009م، ص145.

(2) كوسات: لغة الجمع، واحدها: كوسة، صنوج من نحاس تشبه الترس الصغير، يدق بإحدهما على الأخرى بإيقاع، وهي من ضمن الآلات الموسيقية التي عرفها العرب في العصر الإسلامي. انظر مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، ط1، 1996م، ص373.

(3) نائب التتار، كان كافرا، ذا مرتبة رفيعة في جيش التتر، قُتِلَ بسهم أصابه في إحدى غزواته سنة 717هـ. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 13، ص 248.

(4) المقريري، السلوك، ج 1، ق 3، ص 935. انظر مأمون فريز جرار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 112.

(5) انظر حياة ناصر الحجّي، السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ونظام الوقف في عهده، مع تحقيق ودراسة "وثيقة وقف سرياقوس"، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، 1983م، ص 24.

(6) هكذا وردت في النص، والصحيح شيئاً.

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 180. انظر جلال يوسف العطار، النشر الفني في العصر المملوكي، ص 89.

وهكذا، عاد الناصر إلى حكمه دون قتال، بل بحكمة وذكاء ودهاء، فقال فرحاً بعد عودته: "الحمد لله الذي صان دماء المسلمين عن القتال"⁽¹⁾.

ويكشف الشاعر محمد المنبجي، ذكاء السلطان، وحكته السياسية، وقدرته الفائقة على تسيير أموره، والحصول على ما يريد، وما كان ذهابه إلى الكرك إلا تخطيطاً للعودة الأخيرة المرصية، فالسلطان بذكائه اختار الابتعاد قليلاً حتى يستطيع كشف ما يريد، ثم بعدما تبين له من هو ضده ومن هو إلى جانبه، عاد عودته الأخيرة محترساً حذراً عارفاً عدوه من صديقه، يقول⁽²⁾:

وحين آل إليك الأمر وامتلت	منه المراسم في ورد وفي صدر
أعرضت عنه لأسباب علمت بها	وخبر شهرتها يغني عن الخبر
وعدت ثانية يقظان محترساً	وبت من كبد تخشى على صدر
وهذه العودة الغراء ثالثة	تقضي لك الحق في أيامك الآخر
فارقت ملكك مختاراً لمعرفة	بنيّة العود تسليماً إلى القدر

يتابع ويصور ذكاء السلطان، الذي لم ينتبه إليه من لاموه على خروجه وظنوا أنه خرج مكرهاً ضجراً، وهو في الحقيقة مدبراً حكيماً، يعلم ما يفعل، يقول⁽³⁾:

وبعد ما سرت عن مصر وساكنها	وغبت عنها وعنهم غيبة القمر
لاموك في كل ما دبّرت من حيل	بليغة نسبوها منك للضجر
فالشمس أحسن ما تجلّى إذا بزغت	من بعد غيبتها ليلاً عن النظر

ومن مظاهر ذكائه، حرصه على إبقاء الصورة الجميلة، التي رُسِمَت له في أنظار شعبه، ففي حين أراد القصاص من كل من آذاه وظلمه، إلا أنه يستمع لصوت الشعب، حين يطلبون منه السّماح، ويصرخون بصوت واحد: "يا مولانا السلطان، بتربة والدك الشهيد، لا تؤذيه ولا تُغيّر عليه"، فاستجاب لطلبهم، فكثّر الدعاء له⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 427-429.

⁽²⁾ الدواراري، كنز الدرر، ج 9، ص 193.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج 9، ص 193.

⁽⁴⁾ انظر المقرئزي، السلوك، ج 2، ق 1، ص 56. حياة ناصر الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك، ص 236.

وحرص أيضاً على إكرام مماليكه، فهم سندٌ له، وكلُّما زاد إخلاصهم له ثبتت أقدامه، واعتمد عليهم في كثير من الأمور، فكان يبالغ في إكرامهم، والبذل فيهم، والإنعام عليهم، واستكثر أعدادهم، وكان يقول في ذلك: "يبلغ الأستاذ قصده من مملوكه، ويبلغ المملوك قصده من أستاذه إذا رأى المملوك سعادة، تملأ عينيه وقلبه، نسي بلاده، ورغب في أستاذه"⁽¹⁾.

ويفاجئنا ذكاء السلطان في مرضه، حيث تحدّث الدواري، عن حرص السلطان على عدم الظهور أمام الناس، وهو في حالة من المرض والهزال لأنّه كان يحب دائماً إظهار القوّة والصلابة، يقول في خبر مرضه: "وكان أصل ذلك، مما حمل على خاطره الشريف، من هذه الأحوال النكدة، ولا يُطلع على سرّه أحداً، ولا يورّي الأعداء إلا تجلّداً، على أن سعة صدره الشريف، لا يُحدّ بقياس، ولا يُؤثّر فيه وسواسٌ خناس، وكان في طول تلك الأيام، لا يدخل عليه إلا ما تحقّق منه عقله الوافر، وكنّته للأسرار"⁽²⁾.

ويتحدّث الدواري أيضاً، عن تصرف السلطان في الكتب التي تصله، ممّا يكشف عن ذكائه في التصرف، فكان يقرأ الكتاب ويتفكّر به أولاً، ثم يُطلع الأمراء عليه⁽³⁾.

والمفكّر في كتب السلطان، التي تكتب على لسانه، إلى عمّال دولته أو إلى ملوك وسلاطين الدول المجاورة، يلاحظ ذكاء السلطان في الترغيب والترهيب، الذي يستخدمه في مكان واحد، والتذكير الدائم بفضلّه ونعمه وعطاياه، التي تحلّ عليهم، فإن كانوا كرّماء، فهو أكرمّ منهم، وإن كانوا عظماء فهو أعظمّ منهم، وما عليهم إلا الإمتثال لأوامره، حتى يتمّ رضاه عنهم، كتّب عن السلطان الناصر إلى من ملك بغداد بعد أبي سعيد، جاء فيه: "...نبدي لعلمه الكريم أن كتابه الكريم ورد على يد رسوله فأقبلنا عليه، وصرفنا وجه الكرامة إليه، وعلمنا ما تضمّنه من محبته وموالاته، ومخالصته ومصافاته، وما اشتمل عليه ضميره وشكرنا محبة المقام العالي، ووُدّه الجميل، وأثنينا على موالاته التي لا نَمِيْدُ عنها ولا نَمِيلُ..."⁽⁴⁾.

(1) انظر المقرئزي، السلوك، ج2، ق1، ص 525.

(2) الدواري، كنز الدرر، ج 9، ص 236-237.

(3) انظر المصدر نفسه، ص 53.

(4) انظر الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 13، ص 57، 178، 182. نفسه، ج 7، ص 282.

ولذلك كله، يصوره بيبرس المنصوري، ويصور آراءه الحميدة، وأعماله التي تدل على
حكمة وذكاء، يعادل ألفاً من الرجال، يقول⁽¹⁾:

لَهُ رَأْيٌ يُعَادِلُ أَلْفَ أَلْفٍ وَصَبْرٌ ثَابِتٌ نَاهِيكَ صَبْرًا
وَقَصْدٌ خَالِصٌ لَا غُشَّ فِيهِ نَوَاهٍ لِرَبِّهِ سِرًّا وَجَهْرًا
وَيُصَوِّرُ أَفْكَارَهُ الْحَمِيدَةَ، وَتَصَرُّفَاتِهِ فِي الْأُمُورِ الطَّارِئَةِ، قَائِلًا⁽²⁾:

وَفِكْرُكَ ثَاقِبٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَرَأْيُكَ أَسْعَدُ الْأَرَءَاءِ طَرًّا
ومما سبق يتبين ذكاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وحسن تصرفه في الأمور،
وقد كشف لنا الأدب والتاريخ معاً هذه الصفة مما جعله يستمر في حكمه مدة طويلة، لم تكن
لغيره من السلاطين.

سابعاً: كرمه

كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون كريماً، وقد صور هذا الكرم بصور مختلفة، فیده
دائمة الانبساط ومِعْطَاءَةً، وتَفِيضُ عَلَى مَنْ حَوْلَهُ بِمُخْتَلَفِ النَّعَمِ، يَقُولُ فِيهِ الصَّفْدِيُّ: "الْإِنْعَامَاتُ
تُقَاضَى، فَتَخْجَلُ الْبَحَارُ الزَّخَارَةُ، أَغْرَقَ خَوَاصُّهُ بِالْجَوَائِزِ، وَعَمَّهَمَ بِالْهَبَاتِ، لَمْ تَسْمَعْ لِمَلِكٍ مِثْلَ
عَطَايَاهُ، وَلَا لِحَوَادٍ غَيْرِهِ بِمَا وَهَبَ، حَتَّى أَثْقَلَ جِيَادَهُ، وَكَلَّتْ مَطَايَاهُ:

تَمْشِي خَزَائِنُهُ مِنْ جُودِ رَاحَتِهِ بَيْدَاءَ لَا ذَهَبَ فِيهَا وَلَا وَرَقٌ⁽³⁾

ويكرر ذكر هذه الصورة في الوافي بالوفيات، ليبين الكرم السلطاني الذي يحل على
المقربين من السلطان، وأمرائه وخواصه، يقول: "سمحاً جواداً على مَنْ يَقْرَبُهُ وَيُؤْتِرُهُ لَا يَبْخُلُ

(1) بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص 130.

(2) المصدر نفسه، ص 130.

(3) الصفدي، أعيان العصر وأعيان النصر، ج 5، ص 75.

عليه بشيء كائناً ما كان، سألت النشو⁽¹⁾ يوماً، أطلق السلطان يوماً ألف ألف درهم؟ قال: نعم، كثير، وفي يوم واحد، أنعم على أمير بألف ألف درهم⁽²⁾.

ويكرم السلطان مواليه إذا قدموا لزيارته، وأكثر ما تذكر المصادر إكرامه، وإنعامه على الأمير تنكز⁽³⁾، نائب الشام، عند قدومه على السلطان، يبالغ في إكرامه ويُنعم عليه إنعامات كثيرة وجليلة، ويأمر أمراءه بإكرامه⁽⁴⁾.

ويظهر الكرم السلطاني بعد شفائه من مرض ألمَّ به، فكان يوسع بفرحته على مَنْ حوله، يذكر الدواداري مرسوماً شريفاً أصدره السلطان بعد شفائه، جاء فيه: "أن يُصرف من الخزانة المعمورة، من خاصية مال مولانا السلطان، ألف دينار عين مصرية ويُستفك بها مَنْ في السجون، مِنْ أرباب الديون، وأن يُغسل ما عليهم من المساطير⁽⁵⁾ الشرعية، ويُفقد مَنْ في سجون الولاية من الرعية، ويُنتبَع صلاحهم، ويُطلق سراحهم"⁽⁶⁾.

ومن مظاهر كرم السلطان، التي ظهرت في الأدب، تلك العطاءات والخلع التي أغرق فيها السلطان مَنْ حوله، بعد تحقيق النصر في معركة مرج الصفر، إغراباً عن فرحته الكبيرة بهذا النصر⁽⁷⁾.

فهذا علاء الدين علي ابن عبد الظاهر، يصور ذلك البذل والعطاء، الذي حلَّ على أولياء السلطان وجيوشه وأمرائه، بعد النصر، مما جعلهم ينسون مشقة الحرب، وتعب القتال، حتى فاق

(1) عبد الوهاب بن فضل الله، القاضي شرف الدين المعروف بالنشو، القبطي الأصل، ناظر الخاص في دولة الناصر محمد بن قلاوون، وقد تمكن من السلطان، فقرَّبه ووثق به، فقطع ووصل، فكثُر أعداؤه وحساداه، وشوا به، فقبض عليه وعلى أهله في 2 صفر سنة 740هـ، وصوروا وماتوا تحت العقوبة. انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص 117.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 370-371.

(3) يُكنى أبا سعيد، جلبَ إلى مصر وهو صغير، أمره الناصر محمد الشام، لم يكتب في شيء إلى السلطان ويردُّه فيه، يُعظَّم أهل العلم، (ت: 740هـ). انظر ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج 2، ص 55-56.

(4) انظر المقرئزي، السلوك، ج 22، ق 1، ص 237-238.

(5) مساطير: لم أجد الكلمة ذاتها في المعاجم، وأقرب كلمة لها كلمة مسطور: لفظ فارسي معناه مكتوب، مدوّن. انظر زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ط1، 2006م، ص 490.

(6) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 237-238.

(7) انظر المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 939.

كِرْمُهُ كَرَمَ حَاتِمِ الطَّائِيّ، وزاد على البحر، يقول: "ثُمَّ أَذْهَبَ السُّلْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَجِيُوشِهِ، مَشَقَّةَ التَّعَبِ بِبَذْلِ الذَّهَبِ، وَأَنْسَى بِمَكَارِمِهِ حَاتِمِ طِيءٍ، فَلَوْ عَاشَ لَاسْتَجْدَى مِمَّا وَهَبَ...، وَأَسْبَغَ مِنْ عَطَايَاهُ، مَا أَرْبَى عَلَى عِدَدِ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ، وَتَعَدَّدَتْ لِدَوْلَتِهِ الْمَسَرَّاتُ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْمَيْمُونِ.." (1).

وظهرت صورة الكرم للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، على مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَدْبَاءِ، مِنْ شُعْرَاءَ وَكُتَّابٍ، خَاصَّةً كِتَابَ الْإِنْشَاءِ، فَبَعْدَ أَنْ كَتَبَ علاء الدين علي بن عبد الظاهر، رسالة البشائر، التي بشر بها بنصر السلطان محمد، أغرقه السلطان بعطاياه ونعمه، تقديرًا لعمله هذا، وحاتًا إياه ليتابع مدحه للسلطان محمد بن قلاوون (2).

أما الشعراء، فكان لصفى الدين الحلّي مع السلطان، قصّة كَرَمٍ طَوِيلَةٍ، أَطَالَ فِيهَا الْحَلِّيُّ بِعَرَضِ صُورِ الْكَرْمِ السُّلْطَانِي الَّذِي حَلَّ عَلَيْهِ، فَكَانَ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا تَمَنَّى، فَيَصْرُحُ وَيُعلن أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَرَ إِلَّا قَبُولًا مِنَ السُّلْطَانِ وَاسْتِقْبَالًا لَكِفَاهِ هَذَا، يَقُولُ (3):

أَقْصَيْتَنِي بِالْجُودِ ثُمَّ دَعَوْتَنِي فَنَدَاكَ أَبْعَدَنِي، وَإِنْ أَدْنَانِي
ضَاعَفْتَ بَرَكَ لِي، وَلَوْ لَمْ تَوَلِنِي إِلَّا الْقَبُولَ عَطِيَّةً لَكَفَانِي

ولكنه يجد أنواعاً من الكرم، وحقائباً من العطاء، فتعجزُ كلماته عن الوصف ويصمتُ لسانه أمام هذا السلطان العظيم، لأنّه يخجل من القول، فلو بلغ أقصى الفصاحة، لما استطاع إيفاء السلطان حقّه، فيصرح باجتهاده لجمع الكلمات، ويقرُّ بعجزه عن تأدية الواجب، فصفات السلطان لا توصف بالكلمات، يقول (4):

فَطَفَقْتُ أَمْلًا مِنْ ثَنَاكَ وَنَشْرِهِ حَقَبًا، وَأَمْلًا مِنْ نَدَاكَ حَقَائِبًا
أُنْتَنِي فَتُنْتِنِي صِفَاتُكَ مُظْهِرًا عِيًا، وَكَمْ أُعَيْتُ صِفَاتُكَ خَاطِبًا
لَوْ أَنَّ أَغْصَانًا جَمِيعًا أَلْسُنُ تُثْنِي عَلَيْكَ، لَمَا قَضَيْنَ الْوَاجِبَا

(1) انظر المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص 1035.

(2) انظر المصدر نفسه، ج1، ق3، ص 1040.

(3) صفى الدين الحلّي، الديوان، ص 101-102.

(4) المصدر نفسه، ص 98.

وأفاض بكرمه على الدنيا بأسرها، إضافة إلى دولته، وهذا ما صرّح به أيضاً صفي الدين الحلي، واتّخذة مادةً لمدح السلطان الناصر أو رثائه بعد موته، فتارةً يصوّر عطاءه بالريح، بل هو أكثر عطاءً من الريح، فهي تركّز في بعض الأحيان وتهدأ، أما السلطان فلا يهدأ عطاؤه، ولا يركد، فهو لا يردُّ سائلاً، ولا يؤجّل استقبال ضيف، وتارةً أخرى يصوّرُه "بالوبل" المطر المعطاء، الذي ينهمر بسخاء، دون سحاب، ليروي العطش، ويُغيث الأرض والثرى، فيبدّل المحلّ خصباً، والأجرد أخضر، يقول⁽¹⁾:

ملِكٌ لو أنَّ الرِّيحَ تُشَبِّهُ جودَهُ	لَمَّا أُوشِكَتْ يوماً من الدَّهْرِ تَرَكَدُ
ولا نَمَقُ الأعْذارَ يوماً لِسائِلِ	ولا قالَ للوفِّادِ: مَوْعِدُكم غَدُ
فيا مَلَكاً قد أَطْلَقَ الجودُ ذِكرَهُ	وكلُّ نَزِيلٍ مِنْ نَداهُ مُقَيَّدُ
لَقَدْ كُنْتَ للوفِّادِ وبَلاً، ولِلْعَدَا	وبالاً، به تَشقى أناسٌ وتُسَعِّدُ
فَكَمَ أنْشأتُ كَفَّاكَ في المَحَلِّ عارِضاً	وخذُ الثَّرى مِنْ عارِضِ الخَطْبِ أَمْرُدُ

وفي مكانٍ آخر، يصوّرُ الحليُّ السلطان غيثاً، يهطلُ متجمّعا، خيراً يعمُّ الأرجاء ويحيي العدم، يستبشر الناس برؤيته، بعد أن يكون قد حلَّ الجذب، وهو في المقابل عذابٌ وسخطٌ في أوقات الحرب على الأعداء، حيث يجمع الشاعر بين متناقضات في هذه الأبيات، فهو في حين يصف كثرة كرم الناصر حتى ملأ البحار، يصف أيضاً عزمه وقوته التي تستطيع عمل كل شيء، يقول⁽²⁾:

ملكٌ يرى تعب المكارم راحةً	ويُعدّ راحات القِراع متاعِبا
بِمكارمٍ تذرُّ السَّبَّاسِبَ ⁽³⁾ أبْجُراً	وعزائم تذرُّ البحارَ سباسباً
كالغيث يبعثُ من عطاءه وإبلاً	سبباً ⁽⁴⁾ ، ويرسل من سطاؤه حاصباً

(1) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 342.

(2) المصدر نفسه، ص 96.

(3) السَّبَّاسِب: السَّبَّاب: المفازة، جمعها سباسب، ويُقال بلدٌ سباسب. أيضاً: كأنهم جعلوا كلَّ جزءٍ منه سبباً ثمَّ جمعه.

انظر المعجم الوسيط، باب السين، ص 415.

(4) سبب: مفرد أسباط: والأسباط عند اليهود كالقبائل عند العرب، وهم الذين يرجعون إلى أب واحد هوسبب، وأصل معناها عندهم: الجماعة يقودهم رئيس بعضاً، ولذا كان من معانيها العصا، وفي قوله تعالى: "وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباط" (الأعراف: 160) أي فرقاء، والسبب في كلام العرب يقابل الحفيد. انظر محمد التونجي، المعجم الذهبي في الدخيل على العربي، ص 31.

ويتابع الصفدي سرد مكارم السلطان وعطاياه، فهو يُعطي الخير والنَّعمة لمن أحب، وهو يُعطي العذاب لأعدائه، فكما هو كريمٌ على شعبه وضيوفه يكون كريماً في الحرب، لا يبخل على الأعداء بشجاعته، ليريهـم منها العجب، فالبحرُ متعة وجمال وكرم وفيه من الخير الكثير، وهو أيضاً عذاب وخطر فيه من الخوف الكثير وهذا هو عطاء السلطان، خيرٌ ونعمة على شعبه وسخطٌ وعذاب على أعدائه يقول⁽¹⁾:

ويعده قومٌ عذاباً واصباً	كالسَّيْلِ يُحمَدُ منه عذاباً واصلاً
منهُ ويُبدي للعيون عجائباً	كالبحر يهدي للنفوس نفائساً
من ذكره ملئت قناً وقواضباً	لم تخل أرضٌ من ثنائه وإن خلت

وقرن غير شاعر كرم الناصر محمد بالسحاب، وهي صورة تقليدية طالما عبّر عنها أدباء العربية، حين صوروا ممدوحهم، ومنهم الصفدي الذي جعل الناصر سحاباً ينهمرُ فيعمُّ الأرجاء، يقول⁽²⁾:

لكنها سحُبٌ تهـمي وتتسجـمُ	وما هباتك في يوم النّوال ندى
أحيّت عطايك من أودى به العدمُ	تجودُ بالصدقات الوافرات فكـمُ

وشاعرٌ آخر يُشبهه الناصر محمداً بالغيث المنهمر من السحاب، وهو يتجاوز السحاب، ويراه خجلاً، أمامَ عطاء الناصر وكرمه، يقول⁽³⁾:

وَالْغَيْثُ يَهْمُو مُزْنَ هَبَاتِهِ	فَتَخْجُلُ مِنْ شَحِّ الْعَطَايَا السَّحَابُ
--------------------------------------	--

ولم يكن همّ الشعراء، في مدح السلطان، وإظهار صورة الكرم لديه، بصورة واضحة المعالم، إلا الإحاطة بجميع جوانب الكرم، فهم جعلوه غيثاً، سحاباً، يجودُ ويفيض جوده، وهاهم الآن، يزيدون في المبالغة ويجعلون أرزاق العباد بين يديه، يهبُ من يشاء، ويُعطي من يشاء حتى عمّ عطاؤه وجوده الأرضَ جميعها، يقول الشاعر⁽⁴⁾:

(1) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 98.

(2) الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 103.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 398.

(4) ابن حبيب، المنتقى من درّة الأسلاك، ص 179.

مَفَاتِحَ أَرْزَاقِ الْأَتَامِ أَكْفَهُ فَيُؤْنِى بِهَا يُؤْنِى وَيُسْرِى بِهَا يُسْرِى
فَتَى طَبَّقَ الْأَرْضَ الْبَسِيطَةَ جَوْدُهُ فَفِي كُلِّ قَطْرٍ مِنْ نَدَاهُ بِهَا قَطْرٌ

ويؤيد الدواداري هذه الصورة، ويرى كرم الناصر غيثاً، ويجعل الغيث نفسه يعترف بأخوة الناصر في الجود، فيرى وجود الناصر في مصر، على رأس سلطته غيثاً ورحمة، وبعده عن حكمه وكرسيه، بعداً للغيث، وحلولاً للجذب، يقول على لسان الغيث: "وَحَقٌّ مِنْ أَحْيَا لِمَزْنِي الْبِلَادِ، وَجَعَلَنِي رَحْمَةً لِلْعِبَادِ، وَأَرَاهُمْ بَرْقِي خَوْفًا وَطَمَعًا، وَرَعْدِي زَمْجَرَةً سَابِقِي سَرْعًا، لَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مَرْحُومَةٌ، لَمَا جُدْتُ بِدِيمُومَةٍ، وَإِنْ قَطَرْتُ قَطَرَاتٍ فِي هَذِهِ الْآفَاقِ، فَإِنَّهَا دُمُوعُ الْمَشْتَاكِ، قَدْ آلَمَهُ الْفِرَاقُ، رَاجِيًا التَّلَاقَ، وَكَيْفَ لَا؟"، وهو أخونا في الجود، حتى عمّ الوجود، ولولا ما وعدنا به مجربنا، أنه على عوايده يُجربنا، ويعيده على ما كان من عوايده الحسان، لتعطش منا كل مكان، وخلت من مصر والشام السكّان⁽¹⁾.

ولما عمّ كرمه الدنيا ومن فيها، فلا بُدَّ أن يكون له مع الوفود المقبلة عليه وعلى دولته صور كرم كثيرة، تبدأ من استقباله لهم، وغمرهم بأنواع الكرم السلطاني من العطايا والهبات وكرم الضيافة، إلى توديعه لهم مُحَمِّلِينَ بالهدايا الثمينة والكلمات الحسان.

وقد أطل الأدب بذكر هذا الكرم، الذي شمل وفود الأصدقاء، والأعداء معاً، يذكر الصفدي، عطاء السلطان للعرب، فيصور هذا العطاء أنه عطاء كبير، زائد عن الحد، يقول: "وَأَمَّا عَطَاؤُهُ لِلْعَرَبِ، فَأَمْرٌ مَشْهُودٌ زَائِدٌ عَنِ الْحَدِّ"⁽²⁾.

يفخر السلطان بكرمه، في رسالته لغازان، ويذكره كيف أكرم وفده على الرغم من حالة الحرب بينهما، ولكنها عادة السلطان، ولا يستطيع تغييرها يقول: "أَكْرَمْنَا رُسُلَكَ إِكْرَامًا يَلِيْقُ بِجَمَالِ فِعَالِنَا، وَجَاوَبْنَاهُمْ بِمُقْتَضَى حَالِهِمْ، لَا حَالَنَا، وَأَعَدْنَاهُمْ إِلَيْكَ"⁽³⁾.

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص 164.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 371.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 199.

وَيَصَوِّرُ الدَّوَادَارِي كَرَمَ السُّلْطَانِ لَوْفُودِهِ، مَهْمَا بَلَغَتْ أَعْدَادُهُمْ، وَمَا يَجِدُونَ مِنْ مَعَامَلَةٍ حَسَنَةٍ، فَيَذَكِّرُ وَفْدًا بَلَّغَ عِدْدَهُمْ ثَلَاثِمِائَةَ نَفَرٍ، كِبَارًا وَصِغَارًا، مَمَالِيكَ وَجَوَارِي، حَضَرُوا إِلَى الْبَابِ الشَّرِيفِ، وَرَتَّبُوا لَهُمُ الرَّاكِبَ الْكَثِيرَ، وَوَجَدُوا شَيْئًا أَدْهَشَهُمْ، حَتَّى قَالَ رَسُولُهُمْ: "مَا تَمَّ مَلِكٌ إِلَّا مَلِكٌ مِصْرَ، وَذَلِكَ لَمَّا عَايَنَ الْمَوْكِبُ، وَتِلْكَ الْخَلَائِقُ الْعَظِيمَةُ، فَبُهِتَ لِعَظَمِ مَا قَدْ عَايَنَ"⁽¹⁾.

وَيَذَكِّرُ الْفَلَقْشَنَدِي الْكَثِيرَ مِنَ النُّصُوصِ، وَالْمَرَامِيسِ الصَّادِرَةِ عَنِ السُّلْطَانِ النَّاصِرِ مُحَمَّدٍ، تَظْهَرُ فِيهَا صُورَةُ كَرَمِ السُّلْطَانِ، وَرَغْبَتُهُ فِي هَذَا الْكَرَمِ، وَفَخْرُهُ بِهِ، وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِنِعْمَةِ الْكَرَمِ، وَالتَّخَلُّقُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، مِمَّا جَاءَ فِيهَا: بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَسَطَ أَيْدِيَنَا الشَّرِيفَةَ بِالْجُودِ، وَنَصَبَ أَبْوَابَنَا الشَّرِيفَةَ كَعِبَةٍ تَهْوِي إِلَيْهَا أَفْئِدَةُ الْوُفُودِ، وَأَطَابَ مَنَاهِلَهَا لِكَافَةِ الْأُمَمِ... نَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ الَّتِي كَمْ بَلَغَتْ رَاجِيًا مَا يَرْجُوهُ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الَّذِي نَدْبُ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ بِقَوْلِهِ: "إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٍ فَأَكْرَمُوهُ"⁽²⁾، وَهُوَ يَظْهَرُ فِي هَذَا النَّصِّ مَقْتَدِيًا بِسُنَّةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَعِنْدَ زِيَارَةِ الْوُفُودِ لِبِلَادِهِ، يُكْرِمُهُمْ وَيَأْمُرُ مَنْ حَوْلَهُ بِإِكْرَامِهِمْ، وَتَصْدُرُ عَنْهُ الْمَرَامِيسُ لِعَمَالِ دَوْلَتِهِ بِحَسَنِ مَعَامَلَتِهِمْ، جَاءَ فِيهَا: "... إِلَى كَافَةِ الْمَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، شَرْفًا وَغَرْبًا، وَبُعْدًا وَقُرْبًا، أَيْدُهُمُ اللَّهُ بِالتَّوْفِيقِ، وَجَعَلَ حُسْنَ تَلْقَائِهِمُ الْوُفُودَ، يَأْتِي بِهِمْ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ... وَلَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَالْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ، بِشَيْءٍ مِنَ الْمَقَرَّرَاتِ الدِّيَوَانِيَّةِ، وَالْمَوْجِبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ عَلَيْهَا شَيْءٌ"⁽³⁾.

وَيُشِيدُ الْمُقْرِيزِيُّ بِكَرَمِ النَّاصِرِ، فِي مَوَاقِعَ كَثِيرَةٍ، مِنْ كِتَابِهِ "السُّلُوكُ"، طَوَالَ مُدَّةِ حُكْمِهِ، حَيْثُ تَصَلُّهُ الْوُفُودَ الْمَخْتَلِفَةَ، وَيَغْرِقُهُمُ بِالْعَطَايَا، مِنْ أَمْوَالٍ وَهَدَايَا، إِضَافَةً إِلَى حُسْنِ الْمَعَامَلَةِ وَالْاحْتِرَامِ، مِمَّا يَعْكُسُ صُورَةً وَاضِحَةً لِسُلْطَانٍ حَرِيصٍ عَلَى إِجَادَةِ عِلَاقَاتٍ طَيِّبَةٍ، وَسِيرَةٍ طَيِّبَةٍ مَعَ أَصْدِقَائِهِ، وَيَحْتَرِمُ رُسُلَهُمْ، وَيُرْضِيهِمْ بِمَا يَسْتَطِيعُ⁽⁴⁾.

(1) انظر الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص 279-281. ابن كثير، البداية والنهاية، ص 138.

(2) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 7، ص 249.

(3) المصدر نفسه ص 249-251.

(4) انظر المقرئزي، السلوك، ج 2، ق 1، ص 6، 237، 238، 253، 254.

وفي حثّ السلطان من حوله على الكرم، ومنعهم من البخل، يذكر المقرئ في حادثة، في ترجمته لطقتمر الدمشقي⁽¹⁾، يقول فيه: "كان شحيحاً بحيث أنّ السلطان لما مرض عاده، وأعطاه ثلاثين ألف درهم ليتصدق بها، فتصدق بنحو ثلثها، وأدّخر ثلثيها، فقال له السلطان: يا طقتمر، أنت على طريق إلى الله، فهبّ حاشيتك وممالكك، فأنعم عليهم، حتى يدعو لك ولا تبخل، فالمال مالك"⁽²⁾.

ويظهر في الأدب، معاهدة السلطان لله تعالى، على دوام عطائه، وعموم كرمه، خلال كتبه ومراسيمه، مما جاء فيها: "عاهدنا الله تعالى، ألا نردّ منهم آملاً، ولا نصدّ عن مشاريع كرمنا ناهلاً، ولا نخيّب من إحساننا راجياً، ولا نخلي عن ظلّ برّنا لاجياً"⁽³⁾.

ولم يجعلوا كرمه وعطاءه كأبي كرم، فهو من يجود في أوقات العسر، حيث يندُرُ العطاء، ويشحّ الكرم، فهي أوقات يصعب فيها العطاء بسبب القلة، ولكن السلطان أبا الجود، وصاحب الأيادي البيض في ظلمة الليالي، حريصاً على السمعة الطيبة، تهطل عطاياه في أيام القحط والمحل، يقول الشاعر⁽⁴⁾:

المُشْتَرِي بِالنَّدَى الْحَمْدَ الثَّمِينَ فَقَدْ أَضْحَى بِكُلِّ لِسَانٍ عَيْنَ خَيْرٍ مَحْمُودٍ
المُشْرِقُ الْوَجْهَ فِي ظِلْمَاءٍ قَاتِمَةٍ وَالْمَغْرِقُ الْجُودَ فِي شُهْبَاءٍ جَارُودٍ⁽⁵⁾

ويموت السلطان، ويبقى ذكره، وتبقى أعماله الحسنة، ذكرى يتغنّى بها الشعراء، وصفة يُعزّي بها الأصدقاء، والكرم من هذه الصفات، التي اتخذها نائب طرابلس، مفخرة للسلطان، بعد موته، يقول معزياً: "لو ذابت المُهْجُ أسفاً عليه، لما أنصفت، ولو أسفت عليه الأمم بأسرها فحقّ لها أن أسفت، نبتت لحومنا من صدقاته، وغمرت الملوك والممالك مجزلات هباته"⁽⁶⁾.

(1) الأمير سيف الدين، أحد المماليك الناصرية، ربّاه الناصر صغيراً، وشُغِفَ بحبه، فأمره، وأنشأ له داراً جليلاً تحت القلعة، ت 716هـ. انظر المقرئ، المقفى الكبير، ج 4، ص 28.

(2) المقرئ، المقفى الكبير، ج 4، ص 28.

(3) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الخامس، ص 135.

(4) العيني، عقد الجمان، ج 3، ص 456.

(5) الجارود: سنة جارود: مقحطة شديدة المحل، ورجل جارود مشثوم. انظر المعجم الوسيط، باب الجيم، ص 110.

(6) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 8، ص 384.

ويمدحه صفي الدين الحلّي في حياته، ويصور كرمه وعطاءه، ليجعله يعمّ الأرجاء،
يمدحه أيضاً بعد وفاته، ويصور كرمه وعطاءه، ويجعله باقياً خالداً، عامّاً، يقول⁽¹⁾:

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ، لا زالَ سَرمَداً كَجُودِكَ حَتّى بَعْدَ فَقدِكَ سَرمَداً
فلو خَلَدَ المَعروفُ قَبْلَكَ ما جِداً لَكُنْتَ بِإِسداءِ الجَميلِ مُخلَداً

ويرثيه بأجمل الأبيات، ليرثي معه الغنى، ويودّعه، كما ودّع في حياته الفقر، يقول⁽²⁾:

لَكَ اللهُ كَمَ قَلَدْتنا طَوقَ مَنّةٍ فَتَكَ كَعَدَّ القَطَرِ لَيسَ لَهُ حَصرُ
لَقَدَ عَزَّ فينا بَعْدَ وَجَدانِكَ الغَنى كَما ذَلَّ فينا قَبْلَ فَقدانِكَ الفَقْرُ

هكذا رَسَمَ الأدب شعره ونثره صورة كرم الناصر، فمدحه الشعراء والكتاب ورثوه،
وكان من أكثرهم مدحاً ورثاء "صفي الدين الحلّي"، الذي وجد كرمه مادّة مدح، كما وجده مادّة
رثاء لسلطانٍ عمل جاهداً، لإبقاء الصورة الجميلة له، أمام رعيّته، وقد تنوّعت هذه الصور عند
الأدباء، إذ جعلوه بحراً، وسيلاً، وغيثاً، وقرنوه بالكرماء السابقين، وصوروه مقتدياً بسنة رسول
الله صلى الله عليه وسلم، وجعلوا كرمه عامّاً، وشاملاً، وخالداً، كما ركّزوا على إكرامه الوفود
وبذل العطايا لهم.

ثامناً: عدلُهُ

عانى الشعب في ظلّ الحُكم المملوكي كثيراً، وواجه الضّرر، والشّدّة والفقر،
والمجاعات، وظُلم الأمراء والحُكّام، وتسلّطهم، وكان دائماً يتمنّى حاكماً عادلاً، يُخَفِّفُ عنه
مآسيه، ويُزيل عنه الظُّلم، فوجدوا في الناصر محمد ميلاً إلى إقامة العدل، ومحاولة لمواجهة
الظالمين ومحاكمتهم، ورأى فيه بعضهم نوعاً من الأمان والطُمأنينة، وكان للأدب دورٌ بارزٌ في
تصوير ذلك، وتسجيل بعض الأحداث التي تُشير إلى عدل السلطان محمد بن قلاوون.

وفي إطلاق هذه الصفة، في مدح القادة المسلمين، تحدّث مأمون فريز جرار ورأى أنّ
حاجة المسلمين إلى قائد عظيم، يقيم العدل، ويقضي على الظُّلم في ذلك الوقت كان سبباً قوياً،

(1) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 342.

(2) المصدر نفسه، ص 378-379. انظر: الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 97.

ودافعاً كبيراً، جعل الأدباء يتغنّون ويصوِّرون الصفات الحسنة للقائد المسلم، لتكون تشجيعاً له، لامتنال تلك الصفات والعمل بها، وجَسَّدُوا في ذلك المدح المثل الأعلى الذي كان المسلمون يتطلَّعون إلى تجسيده فيمن يحكمهم، وكأنهم بذلك يستحثُّون القائد على التمسُّك بما عنده من الصفات التي مدحوه بها والتخلُّق بما لم يكن عنده منها⁽¹⁾.

وكان الناصر محمد من السلاطين الذين وقَّع على كاهلهم، رعاية أمر المسلمين في فترة حاسمة، تراكت فيها على المسلمين أعباء كثيرة، فمن طمع التتار في بلادهم، ومحاولة السيطرة عليها، إلى خلافات الحُكَّام، وأطماع الأمراء، وعسفِ العاملين في الدولة وظلمهم، ولم يكن الناصر غافلاً، بل كان حريصاً كُلَّ الحرص على إرضاء العامة، وكان كما وصفته حياة ناصر الحجِّي: "يَعْظُمُ عليه أن يُذْكَرَ عنه أنه ظالم، أو جائر، أو وقع في أيَّامه خراب، أو خَلَلَ، ويحرص على حُسْنِ القالة فيه، لذلك جاءت أعماله في صالح الشعب، في محاولة جادة لإرضائه"⁽²⁾، ووصفت الكاتبة عدل الناصر محمد، مُصَوِّرةً هذه الصفة "بالأصالة الإنسانية" في شخصيته ذات الطابع الاجتماعي والديني⁽³⁾.

وقد تحدَّث عن صفة العدل في الناصر كثيرون، وذكروا مظاهر عدله، ومحاولته إصلاح بعض الأمور في الدولة، ورفع الظلم عن الرعية، وتخفيف العبء عنهم، حيث أبطل عدَّة جهات من المكوس، اقتنى منها المباشرون أموالاً عظيمة، وكان الناس منها في أنواع من الشدائد، لكثرة المغارم، والتعب والظلم، وهي كثيرة جدًّا، فيها من الظلم والعناء العظيم، وكانت دافعاً من دوافع العسف والرِّشوة عند المشتغلين والمحصلين لها، فتوقع ما توقع من الظلم على الأيتام، والأرامل والفقراء⁽⁴⁾.

(1) انظر مأمون فريز جرار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 121-135.

(2) حياة ناصر الحجِّي، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، ص 29.

(3) انظر المصدر نفسه، ص 29.

(4) انظر ابن دقماق، الجواهر الثمين، ص 35. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 69، 80، 142. المقرئ، السلوك، ج 2، ق 1، ص 151-153. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص 47.

ومن مظاهر عدله في الرعية ما ذكره المقرئزي، من حرص السلطان على حسن القالة فيه، وعدم حقد الرعية عليه، حيث ذكر أحداثاً فُمع بها الناس، لاعتدائهم على كنائس النصارى، "فصار السلطان إذا ركب إلى الميدان، لا يرى أحداً في طريقه من العامة، لخوفهم من أن يُبطش بهم، فلم يعجبه ذلك، ونودي لخروج الناس للفرجة على الميدان، فخرجوا كعادتهم"⁽¹⁾.

وذكر أيضاً إصدار مرسوم سلطاني سنة ست وعشرين وسبعمائة، بإبطال عادة الضرب بالمقارع من سائر مملكته، وكتب بذلك لجميع الجهات، وقرئت على المنابر بمصر والشام⁽²⁾.

ومن مظاهر عدله، ما ذكره ابن تغري بردي، عن إزالة الناصر كثيراً من المظالم، حيث قال: "قَالَ الْمَلِكُ الْنَاصِرُ هَذَا الظُّلْمُ جَمِيعُهُ عَنِ الرَّعِيَّةِ، وَزَالَتِ الظُّلَامَةُ عَنْ أَهْلِ مِصْرٍ"⁽³⁾.

ومن مظاهر عدله ما ذكره الرحالة الشهير "ابن بطوطة" الذي زار مصر في عهد السلطان محمد بن قلاوون، مُصَوِّراً عدل السلطان، وحرصه على رفع الظلم عن المتظلمين، يقول: "كَانَ الْمَلِكُ الْنَاصِرُ يَقْعِدُ لِلنَّظَرِ فِي الْمِظَالِمِ، وَرَفَعَ قِصَصَ الْمُتَشَكِّينَ، كُلَّ يَوْمٍ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ، وَيَقْعِدُ الْقَضَاةَ الْأَرْبَعَةَ عَنْ يَسَارِهِ، وَتَقْرَأُ الْقِصَصَ بَيْنَ يَدَيْهِ... وَقَدْ سَلَكَ مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَاصِرَ الدِّينِ أَيَّدَهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مَسْلِكاً لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهِ، وَلَا مَزِيدَ فِي الْعَدْلِ وَالتَّوَاضُعِ عَلَيْهِ، وَهُوَ سُؤَالُهُ بِذَاتِهِ الْكَرِيمَةِ، الْمُتَظَلِّمُ، وَعَرْضُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ الْمُسْتَقِيمَةِ"⁽⁴⁾.

وكان لهذا العمل أصداء، وعقاب للظلم، حيث نودي مَنْ له ظلامة فليرفع قصته بدار العدل، فخاف الأمراء، وأدوا ما عليهم من حقوق، ووقع عليها السلطان، وحكم الناس بالعدل، واستمر في ذلك⁽⁵⁾.

(1) المقرئزي، السلوك، ج 2، ق 1، ص 228.

(2) انظر ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص 356-357. المقرئزي، السلوك، ج 2، ق 1، ص 278.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص 45.

(4) ابن بطوطة، الرحلة، ص 612. انظر سلطنة بنت ملاح الروبلي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالح

وأولاده، تأليف شمس الدين الشجاع، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2008م، ص 10.

(5) انظر حياة ناصر الحجي، السلطان محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، ص 33.

ووقف الأدباء عند سمة العدل هذه، فهذا القاضي تاج الدين البارنباري يصوره، عادلاً يحكم بإنصاف، ويرفع الظلم عن الرعية، يقول: "وأيام سلمه كلها عدل وهبة وصدقات منجية، ورفع ظلمات متشعبة، وقمع نفوس متوثبة، وحسم خطوب مستبدة"⁽¹⁾.

هذه الصورة، استخدمها كُتّاب الإنشاء في سلطة الناصر محمد بن قلاوون، حيث وصفوه بالعدل في كتاباتهم، ومراسلاتهم على لسانه، مُعدّدين مناقب السلطان، ومن ضمنها العدل، وكانت من أشهر جملهم: "محيي العدل في العالمين"، وفخر السلطان نفسه بهذه الصفة، وحرص على إظهارها في مراسيمه حامداً الله تعالى الذي ألهمه العمل بعدل وإنصاف، مما جاء في مراسيمه الشريفة: "أنَّ الله تعالى منذ مَلَكْنَا أمور خلقه، ألهمنا أن ندور مع الحق حيث دار، واستطردنا في إبطال كل فاحشة، من مكوس أبطلناها، وجهات سوء عطّلناها، ومظالم ردّدناها إلى أهلها، وظلمة زجرناها، ومعروف أقمنا دعائمه، وجنينا الفضل من شجرات العدل، التي هي بيد يقظتنا مغروسة"⁽²⁾.

وهذا الشاعر إبراهيم بن علي، الشهير "بعين البصل الحراني"، يجعل الناصر كاملاً في صفاته، ويعطي صفة العدل الأولية في الذكر، لتتقدم على النصر في الحروب، لأنّ الحاكم إذا عدل في رعيته، يهبُ الله له النصر، يقول فيه⁽³⁾:

أتى كاملاً في وصفه وهو عادل وفي الحرب منصور وللکفر قاهر

ومن صور عدله، شعور الناس بالفرق بين حكمه وحكم غيره، حتى أنساهم عدله ما عانوه في الفترات السابقة، وما رأوه من جبروت غيره، يقول الشاعر⁽⁴⁾:

أنسيتنا بالعدل كسرى ولن نرضى لنا جبراً به كسرى

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 14، ص 189.

(2) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 345-346.

(3) مأمون فريز جزار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 132.

(4) المقرئ، المواعظ والاعتبار، ج 2، ص 209. انظر فوزي محمد أمين، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، ص 23.

ومن صور عدله أيضاً، القضاء على الظلم، وهذا ما تطلعت إليه الرعية، فهذا الشاعر محمد المنبجي، يُصور حال الناس في ظل حكم الناصر، وقد انقلبت حياتهم من ظلم إلى عدل، ومن شقاء إلى رخاء، يقول⁽¹⁾:

بالناصر الملك العالي الركاب فتى المنصور خير ملوك الترك والخزر
سدت عن الناس طرق الظلم وانفتحت سماء رزق ببذل منه منهمر
وجعل الصفي الدهر يبتسم في ظل حكم الناصر، مُصوراً عدله الذي أزال الظلم، والظلمات، يقول⁽²⁾:

بعز نصرِكَ أضى الدهر يبتسم وعن رعاياك ولي الظلم والظلم
ومن مظاهر عدله، عموم الأمن والسلام في بلاده، فلا يعتدي أحد على أحد ولا يظلم أحد أحداً، لأنهم على علم بعدل السلطان، وأن الظالم سيعاقب ويُقتَص منه، قال صفي الدين الحلّي مُصوراً عدل الناصر، وعمومه في رعيته حتى أصبحوا يُضرب فيهم الأمثال، ويصور الشاعر نفسه في حمى الناصر راضياً سالماً، لا يصيبه ضرر، يقول⁽³⁾:

لا جور في بلاده ولا عدا إن عد في العدل زبيد وعدن
فما شكيت في حماه لغياً ولو أطاق الدهر غبني لغبن
وتظهر الصورة نفسها في قول الشاعر مُصوراً عدل الناصر، متأثراً بالقرآن الكريم⁽⁴⁾:

ملك الزمان ومن رعيته ملكه من عدله لا يظلمون نقيراً⁽⁵⁾
وقد شمل عدل الناصر وإحسانه المُحسن والمُسيء، فلم يكن يقبض بقبضة من حديد، بل كان يحاول استخدام اللين في بعض المواقف، فعندما خرج الأمراء في اليمن عن طوع حاكمهم،

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 194.

(2) الصفي، أعيان العصر، ج 5، ص 103.

(3) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 106. انظر فوزي محمد أمين، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، ص 22.

(4) المقرئ، المواعظ والاعتبار، ج 2، ص 209.

(5) النقيير: ما نقر من الحجر والخشب ونحوه، وجذع يُنقر ويُجعل فيه كالمراقبي يصعد عليه إلى الغرف، ويضرب به المثل في الشيء الضعيف والفقير المسكين، ويقال فقيرٌ نقيير. انظر المعجم الوسيط، باب النون، ص 954.

أرسل السلطان تجريدة لمساعدته، وإعادة الأمن، وإعادة أمرائه لحكمه، وأرسل معهم كتاباً، يطلب فيه من حاكم اليمن، معاملة أمرائه بالعدل والإحسان، والعفو عنهم، فإن العفو من شيم الملوك⁽¹⁾.

وبصور شيخ الإسلام ابن تيمية، الناصر محمداً عاملاً بجهد من أجل مصلحة الإسلام والمسلمين، على الرغم من حبسه ووقوع الظلم عليه، لكنه يلتزم الأعداء للسلطان ويشهد له بالعدل، لأنه ما حبسه إلا بسبب ما وصله عن ابن تيمية من أخبار ظن أنها صحيحة، يقول: "إني قد أحللت السلطان المعظم، الملك الناصر، من حبسه إياي كونه فعل ذلك، مقلداً غيره، معذوراً، أو لم يفعله بخط نفسه، بل لما بلغه مما ظنه حقاً من مبلغه، والله يعلم أنه بخلاف"⁽²⁾.

ويجمل الشاعر جمال الدين أبو بكر، عدل الناصر، الذي شمل البلاد جميعاً، مصوراً الأمن والأمان، الذي تشعر به الرعية، ومصوراً أيضاً النعمة التي أنعمها الله تعالى على الرعية، بحكم السلطان الناصر، والخليفة قارناً هذا العدل، بعدل عمر بن الخطاب، يقول⁽³⁾:

حاشاً دَمَشَقَ مِنَ الْأَسْوَاءِ تَطَرَّقُهَا	أو أن تُغَيِّرَهَا عَنْ وَصْفِهَا الْغَيْرِ
مَلَائِكُ اللَّهِ تَحْمِيهَا وَتَحْرُسُهَا	تَعَاقِباً، وَلَهَا مِنْ رَبِّهَا خَفَرٌ ⁽⁴⁾
بِاللَّهِ عَدْوَى عَلَى مَنْ رَامَهَا بِأَدَى	وبالْخَلِيفَةِ وَالسُّلْطَانِ أَنْتَصِرُ
لَمَّا تَأَمَّلْتُ فَحَوَى سِرَّ حِلْمِهَا	لَمْ أَدْرِ أَيُّهُمَا فِي عَدْلِهِ عَمَرُ

هكذا صور الأدب عدل الناصر، وهكذا صوروا الرعية في ظل حكمه وقد ودعوا الظلم وعدمه، وعاشوا في ظل العدل والأمان، الذي حاول الناصر من خلال بعض أعماله الوصول إليه، فهو من خصص يوماً للجلوس ورفع المظالم والنظر في قصص المتشكين، وأبطل بعض القوانين التي يمس الرعية بعض الضرر بسببها، واستشار القضاة، وأبرز الأدب له هذه السمة

(1) انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص 429-430.

(2) مرعي بن يوسف الحنبلي، الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية، ص 12-13.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 98.

(4) خفريه وبه وعليه خفراً، وخفارة: أجاره وحماه، فهو خافر وخفير، وبالعهد: وفى به. انظر المعجم الوسيط، باب الخاء،

شعراً ونثراً، ولو لم تكن هذه الصّور واقعية فعلاً، تبقى صور رسمها الأدب للحاكم المثالي، أملاً لامتثال السلطان لها.

تاسعاً: صورته الإدارية

عبرَ الأدبُ شعره ونثره عن حسن إدارة الناصر محمد بن قلاوون لدولته، ورعايته شؤونها، وتنظيم مؤسساتها، وساندت الأخبار التاريخية كل ما ذكره الأدب وأكّدت، فظهرت للناصر صورة إدارية جيدة، "أثبت خلالها كفايةً نادرةً، ومقدرةً فائقةً في تصريف شؤون الدولة بعد أن وعى ضرورة تطور مؤسساتها، بتحديث نُظم الحُكم، والإدارة المالية خاصّة، فألغى بعض الوظائف الكبرى، مثل وظيفة نائب السلطنة، ووظيفة الوزير، واستحدث مكانها وظائف أخرى، أبرزها وظيفة ناظر الخاص⁽¹⁾، كما عمل على ضبط موارد الدولة، وساعد على تنشيط القطاعات المُنتجة، لاسيّما الزراعيّة، من خلال إعادة توزيع الأراضي، وهي العملية المعروفة "بالروك الناصري"، مما أدى إلى ازدهار الحياة الاقتصاديّة، وليس أدلّ على موجة الرخاء التي عمّت الديار المصرية في ظلّ حكمه، من المنشآت العديدة والعمائر الفخمة، التي أقامها، ومن القصور، والمدارس والمساجد التي بادر أو شجّع على إنشائها"⁽²⁾.

هذا ما كتبه اليوسفي في إدارة الناصر محمد لدولته، وتسييره لأُمورها فكانت مظاهر حُسن إدارته، تطوّر الحياة الاقتصاديّة والسياسيّة، إضافةً إلى موجة العمار والبناء التي سادت تلك الفترة، التي يمكن دراستها تحت عنوان الإصلاحات في عهده، أما تسيير أُمور الدولة، ومراقبة عمالها، ومتابعة عملهم، فيمكن دراسته تحت عنوان "مراقبة الأمراء وعمال الدولة".

1- الإصلاحات في عهده

تحدّث عدد ممّن كتب عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون عن حرصه على تعمير المباني الكثيرة، من: مدارس ومساجد وخانقاوات، وقصور، وتفنّنه في عمارتها، واعتنائه

(1) وظيفة مستحدثة في أيام الناصر محمد بن قلاوون، أصلُ موضوعها أن يكون مباشرها متحدثاً في ما هو خاص بمال السلطان، يتحدّث في مجموع الأمر في الخاص في نفسه، وفي العام يأخذ رأيه فيه، فيبقى بسبب ذلك كأنه الوزير. انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص76. السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص129.

(2) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 40-41.

ومتابعته لبنائها، فقد ذُكرَ أنه عمَّرَ تسعة وثمانين جامعاً، وثلاثاً وسبعين مدرسة، وثلاثة وثلاثين مسجداً وخمساً وعشرين زاوية، واثنين وعشرين خانقاه، واثنين وعشرين رباطاً وخمس بيمارستانات⁽¹⁾.

واهتم الناصر بالعمارة، وكان يجمع المهندسين، ويعمل على إنشاء الجسور من سائر البلاد الشامية، وأفرد للعمائر ديواناً، بلغ مصروفه في كل يوم اثني عشر ألف درهم، إلى ثمانية آلاف⁽²⁾.

ويصوره ابن حبيب، مُحَبِّباً للعمارة، حريصاً على بناء المساجد والمدارس والخوانق، يقول فيه: "مُثَابِراً على العمارة، ناظراً إلى محلّ البهجة والنَّضارة ساس الملك أحسن سياسة، وبنى الجوامع والمساجد، والمدارس والخوانق"⁽³⁾.

ويذكر الدواداري مرسوم السلطان لبناء وعمارة جامع بساحل مصر سنة 712هـ، يقول: "فيها برزت المراسيم الشريفة السلطانية، بعمارة جامع بساحل مصر، وتكملت عمارته، وصلى فيه يوم الجمعة"⁽⁴⁾، ويذكر المقرئ ما رتب فيه السلطان من القراء، كما رتب فيه قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي خطيباً⁽⁵⁾.

أما الصفدي، فقد أشار إلى ما يَصْرِفُهُ السلطان من أموال طائلة حُبّاً في العمارة، إضافة إلى الكثير من الأيدي العاملة من عامة الشعب، يقول: "كان مُحَبِّباً في العمارة، وعمَّرَ أماكن كثيرة بالقلعة وغيرها، وكان يصرف كل يوم على العمارة، أجرة سبعة آلاف درهم خارجاً عن المسخرين من الفلاحين والمحبوسين، وأما ما يَصْرِفُ في ثمن الآلات فلا يُحصى"⁽⁶⁾.

(1) انظر المقرئ، المواعظ والاعتبار، ج 2، ص 244-331. حياة ناصر الحجي، السلطان الناصر محمد بن قلاووي ونظام الوقف في عهده، ص 71.

(2) انظر المقرئ، المواعظ والاعتبار، ص 209-211. السلوك، ج 1، ق 3، ص 129-131.

(3) ابن حبيب، المنتقى من درة الأسلاك، ص 176.

(4) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 211.

(5) انظر المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 952. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 49.

(6) الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 17.

وأشار إلى ذلك أيضاً ابن حبيب، الذي وصف المشقة والتعب والأموال الطائلة، التي يصرفها السلطان لبناء قلعة، فتحدث عن بناء السلطان لقلعة "جَعْبَر" على جانب الفرات، قائلاً: "جمع الصناعَ والعُمَّالَ وحَصَلَ الآلات، وصرف الأموال، وصيَّر الأُمْناءَ في أَقْطَارِها مُنْبَتِّينَ، واستعان بأهل البلاد الحليَّة، وأذهب من الذخائر الفضيَّة والذهبيَّة، إلى أن عُمِدَت بعد اهتمام وافر، ومشقَّة زائدة، وانتظم أمرُها، وتبسَّم بعد البكاء ثغرها، وتبرَّجَت أبراجها، وانصلح ظاهرها وباطنها"⁽¹⁾.

ويصف ابن بطوطة الأبنية في مصر في عهد الناصر، من حيث الشكل والفخامة والإحكام في البناء، إلى جانب الأصالة والتفنن، يقول: "وأما المدارس، فهي كثيرة، لا يحيط أحدٌ بحصرها لكثرتها، وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور، فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أُعِدَّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يُحصر...، والزوايا كثيرة، وهم يسمونها الخوانق، والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا"⁽²⁾.

واهتم السلطان بالقدس الشريف، حيث أمر بإجراء الماء من عين بلد الخليل عليه السلام، إلى القدس الشريف، فامتدَّت ما رَسَمَ به، واجتهدَ فيه إلى أن وصل الماء إلى بيت المقدس، وحصل السلطان على الأدعية الصالحة، قيل في ذلك:

طُوبَى لِمَلِكٍ لَيْسَ يُحْصَرُ أَجْرُهُ أَجْرَى الْقَتَا بِأَرْضِ الْمَقْدِسِ
رَوَى الْوَرَى وَعَنِ الْحَيَا أَغْنَاهُمْ وَإِلَيْهِمْ أَهْدَى حَيَاةَ الْأَنْفُسِ⁽³⁾

وهناك كثيرٌ من المظاهر العمرانية التي أشرف السلطان، أو أمر ببنائها، منها إيوان⁽⁴⁾ دار العدل، الذي بناه السلطان، وكان يجلس فيه للمظالم، وفيه تكون الخدمة العامة، واستحضر رُسل

⁽¹⁾ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 265. نفسه، المنتقى من درة الأسلاك، ص 129.

⁽²⁾ ابن بطوطة، الرحلة، ص 21-37، 56.

⁽³⁾ انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 54.

⁽⁴⁾ إيوان: الصُّفَّة العظيمة، والقسم المسقوف من ثلاثة أطرافه، والرابع مفتوح على صحن الدار أو ساحة القصر، ويعني كذلك الشُرْفَة. انظر محمد ألتونجي، المعجم الذهبي في الدخيل على العربي، ص 80.

الملوك، بوجود القضاة الأربعة، ومما قيل في هذا الإيوان، لما بناه الناصر، مصورين السمو والرفعة التي وصل إليها الناصر، وهو في إيوانه الذي يفخر به⁽¹⁾:

شَرَفَتْ إِيوَاناً جَلَسَتْ بِصَدْرِهِ فَشَرَحَتْ بِالْإِحْسَانِ مِنْهُ صُدُوراً
قَدْ كَادَ يَسْتَعْلِي الْفِرَاقِدَ رِفْعَةً إِذْ حَازَ مِنْكَ النَّاصِرُ الْمَنْصُورَا
وقيل فيه أيضاً:

يَا مَلِكاً أَطْلَعَ مِنْ وَجْهِهِ إِيوَانُهُ لَمَّا بَدَأَ بَدْرَا⁽²⁾

ومن اهتمامه بالجوامع والمساجد، بأشر افتتاحها بنفسه، واختار لها المؤذنين من سائر مؤذني القاهرة ومصر، وقُرَّائِها، وخطبائها، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة⁽³⁾.

وأشرف أيضاً على تجديد خليج "الذكر"⁽⁴⁾، وسمَّاه "الخليج الناصري".. ولما دخل الماء في الخليج، كان يوماً مشهوداً، ونزل إليه السلطان، وفي ذلك قال الشاعر مصوراً جريان الماء في النيل، بفضل السلطان محمد بن قلاوون⁽⁵⁾:

وَكَرَّبَ أَقْطَعُ قَالَ لِي وَالنَّيْلُ قَدْ عَمَّ الْخَلِيجَ وَصَارَ كَالطُّوفَانِ
أَجْرَى لَنَا السُّلْطَانُ بَحْراً ثَانِياً مَالِي بِشُكْرِ نَوَالِهِنَّ يَدَانِ

أما القصور، فكانت من أهم المظاهر العمرانية التي صَوَّرَهَا الأدب، شعراً ونثراً، واصفاً هذه القصور، وعمل السلطان في بنائها، وتجهيز قاعاتها، مصوراً فرح السلطان وسعادته، بإتمامها، حيث يقيم الولائم، ويمدُّ الأسمطة، ويقرأ الختمة، يذكر ابن إياس ذلك بعد إتمام الناصر بناء ثلاثة قصور متداخلة في بعضها، وفيها خمس قاعات وثلاثة مراقد، في عشرة أشهر، وهذا من العجائب، ومما قيل في إتمام بنائها وحسن عمل السلطان فيها:

(1) المقرئ، المواعظ والاعتبار، ج2، ص209.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص209.

(3) انظر المصدر نفسه، ج2، ق1، ص184.

(4) الخليج الذي كان يسمى خليج الذكر، تلاشى أمره جداً، وضعف جريان الماء فيه، فجدهه الناصر حتى نبع الماء من أرضه. انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص455.

(5) انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص456.

قصرٌ عليه تحيةٌ وسلامٌ خلعت عليه شبابها الأيامُ
قرت به عينُ الملكِ وغرّدت بالبشر فيه بلابلٌ وحمَامُ⁽¹⁾

وصور الشعر أعمال البناء التي قام بها الناصر، مجرياً مقارنة بين قصوره وإيوان كسرى⁽²⁾ وقصر قيصر، الذي يتنازل ويتراجع عن رتبته في الفخامة والتفنن، ويعترف لقصور الناصر بالتقديم، يقول الشاعر⁽³⁾:

فلو حاول الشَّهْمَانُ كسرى وقيصر نظيراً له فيما أقامَ وعمّرا
لأبصرَ كسرى كسراً إيوان صرّحه وقصّر عنه قصرُ قيصرٍ في الورى

أما القصر الأبلق، الذي أطنب المقرئزي بوصفه، في كتابيه، السلوك والمواظ والاعتبار، مُصوراً تفنن السلطان في بنائه، قاصداً محاكاة قصر الملك الظاهر بيبرس بظاهر دمشق⁽⁴⁾، فقد ذكره الأدب كثيراً، حتى كتب الشيخ بهاء الدين الموصلي⁽⁵⁾ مقامة، أسماها: "سلوة الغريب وخلوة الحبيب"، وصف فيها القصر الأبلق، يقول: "وقصرها الأبلق ليس بالعقوق، مَنْ شاهدَ بديع معانيه، نهى عن العاشقِ المعشوق، قد شامَ في غمده مشهورُ غمدان، وأسبل على إيوان كسرى، ستر النسيان، يبهّر الناظرَ حُسن معناه، ولا يقدرُ على وصفِ محاسنه مَنْ يراه، الماء مرفوعٌ في أقطاره ونواحيه، فتتصبَّبُ في فوارة بركه لتمييز ناظره، وقد جمع الصّادح والباغم، به الظباء الأوانس، والمها الكوانس، أقطارها عريضةٌ طويلة، لا ترجعُ الأبصارُ من السفرِ في زمنه إلا كليله، أخلجت خمائلهُ الأيكة والغصون"⁽⁶⁾، وهو بهذا لم يترك من الحسن شيئاً إلا نسبه لهذا القصر، فمن حسن البناء والتصميم، إلى جمال الحقائق، والنوافر والبرك، إلى

⁽¹⁾ ابن دقماق، الجوهر الثمين ص 349. انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص 445.

⁽²⁾ اشتهر إيوان كسرى في شمال بغداد وتسمى بقاياها "طاق كسرى" وهو جزء من قصر خسرو الأول، وقد طاف به البحري وذكره بالتفصيل في سينيته المشهورة. انظر محمد ألتونجي، المعجم الذهبي، ص 80.

⁽³⁾ انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص 460.

⁽⁴⁾ انظر المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 129-131. المواظ والاعتبار، ص 209-211.

⁽⁵⁾ لم أعثر على ترجمة له.

⁽⁶⁾ الغزولي، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي، مطالع البدور في منازل السُرور، طبعة 2000م، مكتبة الثقافة الدينية،

ج 2، ص 588-589.

أنواع الطيور الصادرة، والمها الجميلة، فلا يضاهيه في الوصف جمال، ومن حُسْنِه، وحسن بنائه، تطلعت إليه الدنيا بأسرها، فسَحَرَهَا جماله، وأبهرها حسنه، قال فيه الشاعر⁽¹⁾:

بَنَيْتَ قَصْرًا قَضَى بِالسَّعْدِ طَالِعُهُ قَامَتْ لِهَيْبَتِهِ الدُّنْيَا عَلَى قَدَمِ

هكذا عمل الناصرُ جاهداً لعمار سلطنته، فحرص على تعمير المباني من قصور وقلاع ومدارس ومساجد، وخانقاوات، وبیمارستانات، كما حرص على تعمير الجنائن والبساتين حول قصوره، وعمائره وقلاعه، ووقف الأدب مصوراً تلك المباني واصفاً ما فيها من حسنٍ وجمال، فخلد أعماله لتكون آثراً تشهد على اهتمامه وحرصه لتطوير مملكته، وترك آثاراً كثيرة، من مدارس، ومساجد وقصور وغيرها، إضافة إلى اهتمامه بالزراعة، واستصلاح الأراضي.

2- مراقبة الأمراء، وعَمَال الدولة

كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون، دائم المراقبة للأمراء وعمال دولته وأفعالهم، فلم يغفل عنهم لحظة، وكانوا يشعرون بهذه المراقبة ويخشونها، فلم يجرؤ أحد - في أغلب الأحيان - على تجاوزه في أي عمل، وهم لم يسمحوا لأحد بتجاوز السلطان في أي أمر، ومن يحاول فعل ذلك يُعاقَب ويُعَنَف، ويُعزَل من منصبه⁽²⁾.

وعند تسلم السلطان الحكم للمرة الثالثة، بدأ بإجراء كثير من التغييرات في مناصب وأحوال الدولة، فأبطل الوزارة، واستقل هو بما كان يفعله النائب والوزير، واستجد وظيفة، يسمى مباشرها "ناظر الخاص"، أصل موضوعها أن يكون مباشرها متحدثاً، فيما هو خاص بـمال السلطان، يتحدث في مجموع الأمر في الخاص في نفسه، وفي العام يأخذ رأيه فيه، فيبقى بسبب ذلك كأنه الوزير⁽³⁾.

وتبرز شخصية السلطان في كتب التعيين والعزل التي يُطلقها لعمال دولته في الدّاخل والخارج، التي كان يعين فيها من رأى فيه القدرة على تسيير أمور البلاد، ويعزل من رأى منه

(1) الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 16.

(2) انظر المقرئزي، السلوك، ج 2، ق 1، ص 8.

(3) السيوطي، حسن المحاضرة، ج 2، ص 129.

زلةً أو تقصيراً، لذلك كان منذ البداية يضع قوانينه التي لا تتعدى، وتوصياته التي لا يمكن أن يتجاوزها أحد، فكانت تؤكد هذه الكتب دائماً على ضرورة طاعة السلطان، والتزام أوامره، كي تدوم المكانة، والمركز لصاحبها، ولا تخلو من جملة، "وليقف عند مراسيمنا الشريفة، لتهديه إلى سبل الرشاد، ويحسن سلوكه ليطرب بذكره كل أحد، ويترنم كل حاد..."⁽¹⁾، ويُبشّر مَنْ يفعل ذلك بدوام ملكه، ورضى السلطان عنه، لذلك نرى المرسوم ينتهي بهذه الجملة: "وليُبشّر بما جُعل له من فضلنا العميم، ويتمسك بوعدنا الشريف، أن هذه المملكة له، ولأبنائه وأبناء أبنائه، ما وجد كُفء من نسبهم الصميم"⁽²⁾.

أما الجيش، فهو عماد الدولة، وسيفها الحاد، الذي يضرب به الأعداء لم يغفله السلطان لحظة، بل منحه جلّ اهتمامه، وداوم على تفقد العساكر والقادة، فمن أحسن أعطاه وزاده، ومن أساء وقصر، قطع عنه وحاسبه.

وكان يوماً لعرض الجيش، ينفق السلطان عساكره، وشمول ساير عساكر لصادقته، "فمن كان قد كبر وعجز عن الخدمة، وكان له في الإسلام سابقة وقدمة، فإن كان له ولد صالح للخدمة الشريفة، أنعم عليه بخبز أبيه، ويتصدق على الشيخ براتب يؤمّنه لتقرّ به عيونه، ومن صلح للزيادة زاده، ومن كانت سيرته ذميمة، وأحواله غير مستقيمة، قطعته، وأنعم بإقطاعه على مستحقّه، وخرج المقطوع يُقلّب كفيه، ولم يلق من حنين غير خفيه، فكان هذا العرض كيوم العرض، هذا قد فاز بحسناته، وهذا قد ندم على سيئاته"⁽³⁾.

حيث يجلس السلطان وبين يديه الأمراء، متخذاً شخصاً ذا خبرة ومعرفة، بأمر الجيش، وأخباره، ومعرفة الجندي الجيد من غيره، والقديم الهجرة بالأبواب الشريفة من المستجد لمعرفة المستحق من غيره⁽⁴⁾.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 10، ص 190.

(2) المصدر نفسه، ص 191.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 239.

(4) انظر المصدر نفسه، ص 239-240.

وكان السلطان يتابع أسواق السلطنة، وعملية البيع والشراء فيها، وأثمان الغلال، وكان يضع التسعيرة، للبيع والشراء ويُعاقب مَنْ يخالفُ أوامرِه، وهذا ما حصل للأمير قوصون⁽¹⁾، عندما باع بما يفوق السَّعر المعلن، سارع السلطان إلى طلبه، ونَهَرَهُ وضربَه، فتهيَّب الأمراء مما جرى، ولم يجسُر أحد بعدها أن يتصرف في شيء، إلَّا بأمر المحتسب، والتزم الأمراء والتُّجَّار "بالتسعيرة السلطانية"، حتى لو اضطرَّ السلطان لفتح مخازنه، للتأثير على حركة الأسعار، ويلجأ إلى الاستعانة بغلال بلاد الشام، وخاصةً دمشق وغازة والكرك والشوبك⁽²⁾.

ويتحدَّث اليوسفي، مصوراً السلطان حريصاً ومهتماً بالبلاد الحجازية غاية الاهتمام، حيث كان أمراؤها على خلاف ونزاع على السُّلطة، وكل منهم يستتجد بالسلطان ليدعمه ويرجِّح كفته، فيتحرك السلطان كلما لزم الأمر، يقول اليوسفي: "كانت تلك الخلافات بين أشرف الحجاز، تُساعد السلطان المملوكي، على إحكام سُلطته وسيطرته على البلاد، حيث كان يلجأ بين الحين والآخر، إلى إرسال بعض القوَّات إلى هناك، لإقرار الأمور، أو مُناصرة أمير على آخر، فيضمن بذلك ولاءً لا تشوبه شائبة، رغم بُعد المسافة التي تفصل بين مركز السُّلطنة وبلاد الحجاز، ولعلَّ موسم الحج، كان مناسبة للتأكُّد من ولاء الأمراء وطاعتهم، حيث كان أمير الرِّكَب، يحمل لأشرف الحجاز، الأنعام والخِلع على غرار ما جرت عليه العادة، من تكريم الدولة، لكبار موظفيها"⁽³⁾.

وكان السلطان حريصاً على إخماد الفتن، ويعمل جاداً من أجل فضِّ النزاعات، وبخاصة النزاعات الدينية، واختلاف الآراء، وذلك لعلمه ما للدين من تأثير في نفوس العامة، فعندما ظهرت الفتنة الكبرى بين شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلماء على مسائل دينية، وكادت تنتشر الفتن في مصر والشام، ورأى اجتماع الكثير ضد ابن تيمية، أصدر مرسومه إلى الشام، مبيِّناً

(1) هو قوصون بن عبد الله الناصري، الساقى، الأمير سيف الدين، من أكابر أمراء الدولة، وأعيان المملكة، علت منزلته جداً وارتفع شأنه بالديار المصرية إلى الغاية، حتى استبد بالأمور، له مآثر، قتل في محبسه بالاسكندرية سنة 742هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2، ص202، ج3، ص33.

(2) انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص 82.

(3) المصدر نفسه، ص 92.

موقفه الحازم بالنسبة لأُمور الدين، واصر قراراً، بسجن الشيخ ابن تيمية، على الرُغم مما عُرف عن السلطان حُبّه للشيخ، ولكن حفظاً للأمن، وقضاءً على الفتن⁽¹⁾.

ويُصورُ الشارمساحي، الأمنَ والأمانَ في عهد الناصر بعد أن وضعَ حداً لعمال دولته وقضى على الفتن، محافظاً على اتحاد الكلمة، مدبراً أُمور المسلمين، ولهذا حلَّ الأمن والأمان في ربوع بلاده كما يبدو في قوله⁽²⁾:

وَقَدْ طَوَى اللهُ مَا بَيْنَ الْوَرَى فِتْنًا	كَادَتْ عَلَى عُصْبَةِ الْإِسْلَامِ تَنْتَشِرُ
لِلَّهِ عُقْبَى النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ	إِلَى الصَّلَاحِ الَّذِي قَدْ كَانَ يُنْتَظَرُ
فَنَالَهُمْ مِنْ خَوْفِهِمْ أَمْنٌ	تَشَارَكَتْ فِيهِ أَهْلُ الْبَدْوِ وَالْحَضَرُ

حتى في أثناء مرض السلطان، لم يُلهِه مَرَضُهُ عن متابعة أُمور دولته ومُراقبة أخبارها، فكان يسأل مَنْ استأمنَه بالدخولِ عليه عما تجددَ من أخبار، فيعلمه بأخبار دولته وسير أُمورها⁽³⁾.

هكذا عمل السلطان على متابعة شؤون بلاده، ولم تغفل عيناه لحظة عن مملكته، وسير أُمورها بما يعود عليه بالفائدة، ويؤمن استمرار حكمه طالما هو قابض بيد من حديد، متمسك بقوانينه ومراسيمه، متابع تطبيقها.

3- السلطان وأهل الذمة

يتحدث المؤرخون عن أهل الذمة في مصر، زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، مُصورين الترف والغنى الذي وصلوا إليه، حتى ركبوا الخيول وتعالوا على المسلمين، وانخرطوا في المجتمع، وفي وظائف الدولة أكثر، فأكثر، حتى أصبح بيدهم أُمور كثيرة، تخص المجتمع بأسره، ولبسوا الثياب الفاخرة، والحلي الثمينة، واتفق أن زارَ وزير المغرب مصر، فرأى رجلاً راكباً فرساً وحوله عدد من الناس، يتضرعون له، ويُقبلون رجليّه، وهو مُعرض عنهم ويطردهم، وعرف أن الرجل نصراني، فأنكر ذلك، وبكى بكاءً شديداً، وقال: "كيف ترجون

(1) انظر الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 142-139.

(2) المصدر نفسه، ج 9، ص 191.

(3) انظر المصدر نفسه، ج 9، ص 237.

نصراً، والنصارى تركبُ عندكم الخيول، وتلبس العمام البيضاء، وتُذلُّ المسلمين، وتمشيهم في خدمتهم؟!". فآثر كلامه في الأمراء، واجتمعوا مع السلطان، ومع القضاة، وبطارقة النصارى، واليهود، وبرز المرسوم السلطاني بحمل أهل الذمة، على ما يقتضيه الشرع المحمدي، على أن يتميَّز النصارى بلبس العمام الزرق، واليهود بلبس العمام الصفراء، ومُنَعوا من ركوب الخيل والبغال، ومن كلِّ ما منعهم منه الشارع، صلى الله عليه وسلم، وأُلْزِمُوا، بما شرطه عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وجُمِعَ النصارى واليهود بالقاهرة ومصر وظواهرها، ورُسِمَ ألاَّ يُسْتخدَم أحد منهم بديوان السلطان، ولا بدواوين الأمراء، وهُدِّدَ مَنْ يُخَالِفُ بسفك دمه⁽¹⁾، وقد فرح المسلمون كثيراً بهذا القرار، واستبشروا خيراً، ورؤوا فيه عزاً للإسلام وأهله، وأخذ حق المسلمين من النصارى الطاغين.

وتغنى الشعراء بهذا القرار، معبرين عن فرحتهم، وفرحة المسلمين جميعاً، وسخروا من النصارى واليهود، فهذا الشاعر شمس الدين الطيبي، يهزأ من لباسهم الذي أُلْزِمُوا به، فيقول ويسخر من اللون الذي حدد لهم ليلبسوه، وهو اللون الأزرق، فيتلاعب بالألفاظ استهزاء وسخرية⁽²⁾:

تَعَجَّبُوا لِلنَّصَارَى وَالْيَهُودِ مَعَا وَالسَّامِرِيِّينَ لَمَّا عُمِّمُوا الْخِرَقَا
كَأَنَّمَا بَاتَ بِالْأَصْبَاغِ مُنْسَهَلًا نَسَرُّ السَّمَاءِ فَأُضْحَى فَوْقَهُمْ ذَرَقَا

وجعل الشاعر نفسه ما جرى لهم عقاباً على تعديهم على الأنبياء، فصور ما يلبسون نعالاً خلقة فوق رؤوسهم، فقال مُعَبِّراً عن فرحته بهذا القرار⁽³⁾:

(¹) انظر عن أهل الذمة الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 83. النويري، نهاية الأرب، ج 231، ص 417-426، ذيول العبر، ج 4، ص 98. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1، ص 233. المقريزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 990-991. حياة ناصر الحجّي، أحوال العامة في حكم المماليك، ص 285-293.

(²) انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 35، أعيان العصر، ج 5، ص 83-84. ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 409-410. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 110. النويري، نهاية الأرب، ج 31، ص 416-426. السيوطي، حسن المحاضرة، ج 2، ص 256.

(³) انظر المرجع نفسه، ص 359.

غَيَّرُوا زِيَّهَهُمْ بِمَا غَيَّرُوهُ مِنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ رَبِّ الْمَكَارِمِ
فَعَلَيْهِمْ كَمَا تَرُونَ بَرَاطِيشَ⁽¹⁾ وَلَكِنَّهَا تُسَمَّى عَمَائِمَ

إن الشاعر يؤكد طبيعة العلاقات في المجتمع، التي يترأسها الدين وتطغى عليها مشاعر الأخوة العقائدية.

وفي المعنى نفسه، قال الشاعر علاء الدين الوداعي، ساخراً من أهل الذمة، مستهزئاً بزيَّهم المفروض عليهم مصوراً هذا الزي بالنعل الخلق، التي تعموا بها لعنة من الله تعالى عليهم زادتهم ذلاً وخضوعاً⁽²⁾:

لَقَدْ أَلْزَمُوا الْكُفَّارَ شَاشَاتِ ذَلَّةٍ تَزِيدُهُمْ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ تَشْوِيشَا
فَقُلْتُ لَهُمْ مَا أَلْبَسُوكُمْ عَمَائِمًا وَلَكِنَّهُمْ قَدْ أَلْبَسُوكُمْ بَرَاطِيشَا

ولم يكن مستغرباً فرح المسلمين بهذه القرارات ضد أهل الذمة، الذين عملوا على السيطرة والتمكن، وبثّ الفتن والنزاعات، وكرهوا المسلمين وأذوهم.

ثم رسم السلطان بعد ذلك، بغلق الكنائس بمصر والشام، التي استحدثت في الإسلام، واتفق على ذلك، حتى دورهم التي وُجِدَتْ أعلى من دور من جاورهم من المسلمين هدموه، وكل من جاور مسلماً في حانوت، أنزلوه مصطبة حانوته، بحيث يكون المسلم أرفع منه⁽³⁾.

وفرّح المسلمون كثيراً بهذه المراسيم، ولم يكن فرحهم هذا، إلا ردّة فعل قويّة لما كانوا قد لمسوه من خيانة هذه الملة، للإسلام وأهله، فهم من أيدّ التتار، وسار في حلفهم، ضدّ المسلمين سنة 699هـ، حيث انهزم جيش المسلمين، وصوّر الشاعر "الكمال ماجد الشافعي"⁽⁴⁾، أحلاف

(1) البراطيش: جمع برطوش، وهو اسم للنعل الخلق، واللفظ عامي.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 359. انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 409. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 110.

(3) انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 110.

(4) لم أعثر على ترجمة له.

المغول، من الكُرج⁽¹⁾، وهم جيل من النصارى، وأصحاب سيس، وهم أيضاً من النصارى، مقيماً العُذر لجيش المسلمين، يقول⁽²⁾:

أَقِمْ عُدْرَ جَيْشٍ طَالَمَا قَتَلَ الْعِدَا بِدَارِهِمْ قَهْرًا وَكَمْ غَارَةً شَنُّوا
إِذَا وَلُّوا الْأَدْبَارَ مِنْ كُلِّ كَافِرٍ كَرِيمَةً بُغْضٍ قَدْ حَكَى وَجْهَهُ سَنُّوا
أَتَى جَيْشَهُمْ بِالْمَغْلِ وَالكَرَجِ عُصْبَةٌ وَأَصْحَابُ سِيسٍ فِيهِ وَالْحِنْ وَالْبِنْ⁽³⁾

ويكشف أيضاً الشاعر شهاب الدين محمود، عن موالاته أهل الذمة لجيش التتار ضد المسلمين، فيقول⁽⁴⁾:

أَتُوا كَالدَّبَا⁽⁵⁾ بَيْنَ كَرْجٍ وَأَرْمَنٍ وَمُغْلٍ وَأَتْرَاكِ وَعَرْبٍ وَأَعْجَامٍ

يؤكد الشعر أثر هذا التحالف على المسلمين، فلو لا تجمع هذه القوى لما هُزم جيش المسلمين، لذلك حنق المسلمون على أهل الذمة كثيراً.

ويعمل الشعراء والأدباء على تذكير الناصر أبداً، بما فعله هؤلاء بالمسلمين مستخدمين عاطفة المسلمين تجاه نسائهم وأطفالهم وعجائزهم، الذين لاقوا ما لاقوه من هؤلاء القوم، لإثارة حماسهم وتحريضهم بأخذ الثأر، يقول الشاعر جمال الدين أبو بكر⁽⁶⁾:

أَمَّا رَأَيْتُمْ وَعَانَيْتُمْ وَقَدْ فَعَلُوا فِي الصَّالِحِيَّةِ مَا لَا تَفْعَلُ التَّتَرُ
أَشْفُوا صُدُورَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرًا عَلَى نِسَائِكُمْ يَا قَوْمُ وَادْكُرُوا
كَمْ مِنْ عَجُوزٍ وَمِنْ شَيْخٍ وَمُكْتَهَلٍ وَمِنْ فَتَاةٍ نَمَاهَا الْحُسْنُ وَالْخَفَرُ
وَذَاتٍ بَعْلٍ مُخْبَاةٍ مُخَدَّرَةٍ مِنْ دُونِهَا تَضْرِبُ الْأَسْتَارُ، قَدْ أَسْرُوا

(1) هم الجورج مع ابدال الجيم بالكاف الفارسية، وهم أمة مسيحية، مساكنها بجبال القوقاز المجاورة لتفليس، وتشمل شعوبهم أمماً كثيرة، أهمهم الأرمن. انظر زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص 448.
(2) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 30. انظر مأمون فريز جزار، أصدااء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 64-65.

(3) هما أبناء الشيخ علي الحريري المتوفى سنة 715هـ، من العرب. انظر رائد عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص 57، 106.

(4) مأمون فريز جزار، أصدااء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 81.

(5) الدبا: الجراد قبل أن يطير. انظر ابن منظور، لسان العرب، ج 14، ص 248.

(6) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 97. مأمون فريز جزار، أصدااء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 95. نفسه، الغزو المغولي أحداث وأشعار، ص 167.

ويتابع الشاعر بذكر كل أفعال النصارى، واعتداءاتهم على المسلمين ومساجدهم ودورهم، طالباً بأخذ الثأر، وضربهم أينما كانوا، دون رحمة أو شفقة، لأن هؤلاء لا يستحقون الشفقة، يقول⁽¹⁾:

هُبُوا إِلَى سَيْسٍ مِنْ أَحْلَامٍ رَقَدَتْكُمْ وَسَارِعُوا فِي طَلَابِ الثَّأْرِ وَابْتَدَرُوا
أَيَّرُقْدَ اللَّيْلُ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَاةٍ عَنْ كَيْدِ قَوْمٍ لَهُمْ فِي شَأْنِكُمْ سَهْرُ
إِنْ تَتْرُكُوهُمْ فَإِنَّ الْقَوْمَ مَا تَرَكُوا يَوْمًا عَلَيْكُمْ وَلَا أَبْقُوا وَلَمْ يَذَرُوا

وإن لم يكونوا هؤلاء من أهل الذمة، ولكن الشعراء يذكرون أفعالهم لتحريض المسلمين عليهم ويذكروهم بأسباب يجب أخذها بعين الاعتبار، وهذا الشعر يندرج تحت موضوع الحث والتحريض، وهو مهمة رئيسية من مهمات ومسؤوليات الأدب.

ويصور ابن كثير تعاون النصارى مع التتار، واعتداءاتهم على المسلمين، فنهبوا أموالهم، وسبوا نساءهم، وحرقوا مساجدهم، يقول: "شَرَعَتِ التَّتَارُ وصاحب سيسى في نهب الصالحية، ومسجد الأسدية، ومسجد خاتون، ودار الحديث الأشرافية، واحترق جامع التوبة، وكان هذا من قبل الكرج والأرمن من النصارى، الذين هم مع التتار قَبَّحَهُمُ اللَّهُ...."⁽²⁾.

وبدأت الحرب بين المسلمين والنصارى، هذا يحرق بيوت ومساجد وحوانيت المسلمين، والمسلمون يحرقون ويهدمون كنائسهم وبيوتهم والسلطان يُصدر المراسيم لمنع الفتن، واحتواء الموقف، فتارةً ينال رضى المسلمين باتخاذ القرارات الحاسمة ضد أهل الذمة، مُتَعَامِلًا معهم بالشرع الشريف، وتجديد العهود العُمرية، وفرض الجزية، وتحديد اللباس والركوب وتهديدهم تهديداً شديداً إذا خالفوا هذه المراسيم⁽³⁾. وتارة أخرى يغضب المسلمون من قراراته.

ولم يكن المسلمون راضين عن أفعال النصارى، في أي بقعة من بقاع المسلمين، لعلمهم بتمادي هؤلاء على المسلمين وإيذائهم، يذكر ذلك كتاب الناصر إلى غازان مذكراً إياه بهذه الأفعال

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 97.

(2) انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج 14، ص 8. المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 893-895.

(3) انظر المقرئ، السلوك، ج 2، ق 1، ص 959-961.

القبيلة، التي لا تجوز في بلاد المسلمين: " وليس يخفى على الملك الذي جرى بدمشق في جبل الصالحية، إن كان مثل هذا يكون من فعل المسلمين بالمسلمين، أو عمل من هو متمسك بالدين، فأين وكيف وما الحجة؟ وحرّم بيت الرحمن الهناء، يُشرب فيه الخمر، وتُتهك فيه الستور، وتُطمث فيه البكور، وتقتل فيه المجاور، وتؤسر الخطباء والمؤذنون، ثم على رأس خليل الرحمن تُعلّق الصُّلبان، وتُتهك النسوان، ويدخل الكافر بخساً سكران⁽¹⁾.

ولكنّ أهل الذمة كانوا قد شغلوا مناصب هامة في الدولة، فمنهم من كان من كتّاب الأمراء، ومنهم من كان في الأعمال السلطانية، ومتى صُرفوا قبل انتهاء السنة، فسُدّت الأحوال، وتعطلت المصالح، فأبقاهم السلطان في مناصبهم⁽²⁾، خاصّة القبط، الذين انفردوا ببعض الوظائف، وتمكّنوا في الدولة، حتى شاركت الدولة رسمياً في إحياء الاحتفالات التي كانت تُقام بمناسبة الأعياد القبطية⁽³⁾.

وغضب المسلمون كثيراً لذلك، وبدؤوا بالتصرّف بأنفسهم، فواجههم السلطان واستاء من أفعالهم، حتى إنّه لم يتوانَ عن عزل من يُخالف تعاليمه، فصَرَفَ قاضي القضاة، شمس الدين الحريري⁽⁴⁾ عن قضاء مصر، لأنّه بالغ في الحطّ على الكتّاب النصاري والمسالمة، وأخرق بجماعة منهم، وضربهم، وكان إذا رأى نصرانياً راكباً أنزله وأهانته، وإذا رأى عليه ثياباً سرية نكّل به⁽⁵⁾، وعاقب السلطان كلّ من تعرّض لليهود والنصارى بأذى، حتى عاقب رجلاً بضرب عنقه⁽⁶⁾.

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص68.

(2) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 13، ص 385.

(3) انظر اليوسفي، نزّه الناظر، ص 84-85. المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 135.

(4) الشيخ، المسند، الرحلة الصدوق شمس الدين أبو عبد الله الصالح بن الزرّاد الحريري، كان ديناً متواضعاً، يتجر ويرتفق، ثم ضعف حاله، وافترق، وساء ذهنه قبل موته وتبلغم، وكان له نظم، ت 726هـ. انظر الصفدي، أعيان العصر، ج4، ص251.

(5) انظر المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 173.

(6) انظر المصدر نفسه، ص 140.

وتمادى النصارى أكثر، وتابعوا الاعتداء على المسلمين بكافة الطرق، فأضرموا حريقاً هائلاً بدمشق، تحدث عن هذا الحريق الكثير من الأدباء وأبدعوا بوصفه، وتصوير أعمال النصارى ضد المسلمين، فهذا ابن حبيب يُصَوِّرُهُ، ويذكر أنه من فعل النصارى أعداء الإسلام يقول: "فيها وقع الحريق، الشَّدِيد الشَّرِيق، المشتعل على الشرِّ والشرِّر، الساحب ذيل الأضرار والضَّرَر....، وظهر أن ذلك من فعل النَّصارى فقبُضَ على أكابرهم، وأقرَّت طائفة منهم ذلك واعترفوا به...."(1).

ويصوِّر ابن الوردي هذا الحريق في مقامته، ويصف ما أوقعه بدمشق من خراب، ثمَّ يذكر أنَّ ذلك بفعل النصارى، يقول "وَطَهرَ أَنَّ ذلك من كيد النصارى، الضالين الحيارى، قصدوا به الجامع والمشاهد، ومدارس العلم والمساجد، لا بل دمشق بأمتها، لا بل دار الإسلام برمَّتها، وأمسك منهم أهل الرِّيبة، وأقروا بتفاصيل هذه المصيبة"(2).

ويتابع الدواداري واصفاً فعل النصارى، مصوراً الحريق الذي أحدثوه في البيوت والحوانيت والمساجد، مجهداً نفسه في استخدام جميع أنواع المحسنات البديعية، لتصوير أبشع عمل قام به النصارى في ظل الدولة الإسلامية، يقول من جملة: "وقد أويت من دمشق" [إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ]⁽³⁾، وإذا بضجيج أهلها وقد ملأ الآفاق، والنيران في أسافلها وأعاليتها، قد بلغت التخوم والطباق، فبادرت إلى الجامع الأموي لأمنه ويمنه، فوجدت العالم كأنهم قطعة لحم في صحنه، وقد أرسل على أحاسن دمشق " [شَوَاطِئُ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ]"⁽⁴⁾، وقربت النار من جامعها الخضر، حتى كاد يحصل منه اليباس، وثارت النار لأخذ الثَّار..."⁽⁵⁾.

وتحدَّث الصفدي أيضاً عن اعتداءات النصارى على المسلمين، وأنهم أضرموا النَّارَ أيضاً في مصر، وعوقبوا على ذلك⁽⁶⁾.

(1) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 313.

(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 314.

(3) سورة المؤمنون، آية رقم 50.

(4) سورة الرحمن، آية رقم 35.

(5) ابن الوردي، الديوان، ص 119-120.

(6) انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 368.

وقابل المسلمون هذه الأعمال بمثلها، وبدأ السلطان بحسم الأمور والضرب بيدٍ من حديد، فأصبحت كل كنيسة محدثة في دار الإسلام معرضة للهدم والزوال، ويبقى ما دون ذلك، وبالفعل وُجِدَت كنيسة "مقال"، محدثة في دار الإسلام، فحكم قاضي القضاة ابن الزملكاني⁽¹⁾ بوجوب انتزاعها من اليهود، وبُنيت مكانها مدرسة: للعلم وأهله، سُميت "الناصرية" نسبة إلى السلطان محمد بن قلاوون، وصوّر ابن الوردي ذلك، معرباً عن فرجه وفرح المسلمين جميعاً بهذا القرار، الذي كسر النصارى، وفعل بهم ما لا تفعله السيوف والرماح، يقول مصوراً عمل السلطان الذي أذل اليهود وأذاقهم مرارة الهزيمة⁽²⁾:

نصرت بفتح الناصرية ديننا	ألا في سبيل الله ذا الفتح والنصر
فكم حشدتها بيعة وكنيسة	وقد فك من أيدي اليهود لها أسر
صرفتهم عن ربعا إذ أضفتهم	إلى الذل، والمصرؤف يدخله الكسر
لقد فعلت أقلامك الحمر فيهم	من الحق ما لا تفعل البيض والسمر

وتغنى بهذا القرار الشاعر علاء الدين أبو الحسن علي بن عثمان القزازي⁽³⁾: وقد صور ذل اليهود وكسرتهم، بعد تحويل كنائسهم لدور علم إسلامية، تتلى بها الآيات القرآنية، معبراً عن نصر أهل الإيمان، على أهل الشرك والعدوان، يقول⁽⁴⁾:

أمنت يهود بترب الذل مصقة	لما رماهم بسهم الغر عن كتب
وأصبحت لذوي التقوى كنيستهم	تتلى بها أفضل الآيات والكتب
بشراكم يا أولي الإيمان قد طلعت	عليكم أنجم للسعد لم تغب

وطال كره المسلمين أهل الذمة، حتى كرهوا من هم خارج الدولة، وأصبح النصر عليهم نصراً للإسلام وأهله على أهل الشرك والكفر والعدوان، فعندما انتصر السلطان على النصارى في البلاد السييسية، وفتحها، فرح المسلمون كثيراً بهذا الفتح، واستبشروا خيراً، صور ابن

⁽¹⁾ كمال الدين محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري السماكي الدمشقي الزملكاني، الشيخ الإمام العلامة، شيخ الشافعية في عصره، انتهت إليه رئاسة المذهب تدريجاً، وافتاءً، ومناظرة، قاضي القضاة بحلب، ت 727هـ. انظر الصفي، أعيان العصر، ج 4، ص 624.

⁽²⁾ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 169-170، المنتقى من درة الأسلاك، ص 70.

⁽³⁾ لم اعثر على ترجمة له.

⁽⁴⁾ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 169-170، المنتقى من درة الأسلاك، ص 70.

الوردي هذا الفتح، قائلاً: "فتحُ اشتمل على فتوح، وترك ملك الأرمن، جسداً بلا روح، خائفاً على ما بقي بيده على الإطلاق، يا له فتحاً كَسَرَ الصَّليب وقطع يد الزنار، وحكم على كبير أناسهم بالخفض على الجوار"⁽¹⁾، أي وجوب خفض بُيوت النصارى إذا جاورتُ بيوت المسلمين، وهذا دليل على علو منزلة المسلمين في بلادهم، وتحت إمرة قائدهم، مقابل دنو مرتبة النصارى، ووجوب طاعتهم لسلطان المسلمين.

ولم تكن أفعال النشور (شرف الدين النشور) النصراني، وما ارتكبه من مظالم بحق الرعية المسلمين، وما حصل من التجار والأمرء من أموال، وإغرائه السلطان، وبثه الفتن بين السلطان وأمرائه، إلاّ فعل، من أقبح أفعال النصارى في الدولة المملوكية، وكان هذا الرجل قد تظاهر أنه مُسلم، وتحمل مع السلطان على أنه من المسلمين، ولكنه بعد وفاته اتضح أنه ما زال نصرانياً⁽²⁾.

أما المعاملة الرسمية بين الملك الناصر محمد بن قلاوون، وملوك النصارى في الدول المجاورة، فكانت سياسيةً حكيمة، يلتزم فيها الطرفان بالحكمة والمنطق، فلا يقتحم أحد حدود الآخر، ولا يتمادى أحدهم بشيء بحق الآخر، فإذا أراد ملك النصارى زيارة القدس الشريف، يستأذن الملك الناصر، وبعد حصول الموافقة، تبدأ الزيارة، ويوفر لهم السلطان الأمان ويأذن لهم بالزيارة مع الإكرام، ويُصدر كتب الأمان، ليأخذ الضيف حقّه في الجود، ويعود إلى بلاده لا يمسه سوء، حتى يعودوا إلى بلادهم سالمين⁽³⁾.

هكذا سارت الأحداث بين المسلمين وأهل الذمة، الذين حاولوا التعالي على المسلمين والاعتداء عليهم في ظل سلطتهم ودولتهم، فأصدر السلطان مرسومه التاريخي بلزوم تغيير زي أهل الذمة، وتحديد لون خاص بهم، وعدم تعاليهم على المسلمين في البيوت والحوانيت وإلزامهم بهذه القرارات، فصور الأدب فرح المسلمين بهذه القرارات، لأنهم شعروا أنها أعادت لهم كرامتهم، وحقّهم، فهم من وجدوا بهذه الملة خيانة وغدراً، صورّه الأدب شعره ونثره، كما صورّ ما حدث بين المسلمين وأهل الذمة من مصادمات واعتداءات.

(1) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2، ص 279.

(2) انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص 187، 192-196، 221-223.

(3) انظر الفلشندي، صبح الأعشى، ج 13، ص 327.

الفصل الثاني

الصورة السلبية للناصر محمد

ابن قلاوون في أدب العصر المملوكي الأول

أولاً: البطش والظلم.

ثانياً: شكّه الدائم (عدم ثقته بأحد).

ثالثاً: حُبّ المال.

رابعاً: السلطان والمرأة.

الفصل الثاني

الصورة السلبية للناصر محمد ابن قلاوون في أدب العصر المملوكي الأول

أولاً: البطش والظلم

قدم الأدب صوراً سلبية متنوعة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، فعبر عن ظلمه وبطشه، وشكه الدائم بمن حوله، وبعض الصور السلبية الأخرى، وقد تكون هذه السلبية موجودة عند الممالك بشكل عام حيث تُظهر قسوتهم، ومعاملتهم السيئة للعامة، تسييراً لمصالحهم، ولا حرمة، ومع ذلك ظلوا يتمسحون بمسوح الدين، ويظهرون بصورة التمسك بحرمة الإسلام، والمحافظة على مصالح المسلمين، وكانت العامة تُدرك ذلك، وتثور بين الحين والآخر، على أمل إصلاح الحال.

وقد ظهرت في عهد الممالك أنواع كثيرة من المعاصي والآثام، لاحظها غازان ملك التتار، واتخذها ذريعة وحجة لقتال المسلمين، مُدّعياً إسلامه، وأنه يُريد إصلاح الحال، وإنقاذ المسلمين من ظلم سلطانهم وجيوشه، وقد أعرب عن ذلك في رسالة التهديد التي أرسلها للناصر محمد، حيث قال واصفاً جيش المسلمين: "وجاهروا الله بالمعاصي...، وأقدموا على أمور بديعة وارتكبوا آثاماً شنيعة، من محاربة الله، وخرق ناموس الشريعة"⁽¹⁾.

وهناك كثير من الأحداث تشير إلى ظلم السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فهي هو يقتل المظفر بيبرس⁽²⁾، بعدما ظفر به "حيث خنقه بين يديه بوتر، حتى كاد يتلف، ثم سيّبه حتى أفاق، وعنفه وزاد في شتمه، ثم خنقه ثانياً حتى مات"⁽³⁾، وكان السلطان قد حنق عليه في سني حكمه الأولى عندما عانى من العزل المتكرر.

(¹) النويري- نهاية الأرب، ج 31، ص 427-443. المقرئ- السلوك، ج 1، ق 3، ص 1016-1023. القلقشندي- صبح الأعشى، ج 7، ص 341. بيبرس المنصوري- زبدة الفكرة، ج 9، ص 223-224.

(²) بيبرس البرجي العثماني، الجاشنكير، الملك المظفر، كان أستاذ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولي السلطنة وأقام بها أحد عشرة شهراً، وخلع نفسه وذهب إلى الصعيد، ثم قبض عليه وقتل. انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص 147.

(³) ابن تغري بردي- النجوم الزاهرة، ج 8، ص 275.

ولم يسلم أمراؤه من ظلمه وقسوة قلبه، فكان إذا وجدَ لأمير ذنباً، عاقبه أشدَّ العقاب، وأماته بكلِّ طرق الموت، فكان يمنع عنهم الأكل والشرب، ويمنع دخول أي شخص عليهم، وعندما يصل الواحد منهم إلى حدِّ الهلاك، وتيبس أعضاؤه، يُقتل⁽¹⁾.

وكان اليوسفي، من الأدباء الذين عاشروا الناصر محمدًا، وعرفوا أخباره، واطَّلَعُوا على أسرارِهِ، فقد كانت له علاقات مع المقربين منه، يعرف أخباره منهم، يقول عنه: "فوالله، ما عند السلطان من يخدمه وسلم من الظلم... السلطان ما هو كما تعهده الناس ولا هو ناوي⁽²⁾ لأحد خيراً، وقد رغب في أخذ الأموال، والظلم، والعسف، فאלله تعالى يجعل عاقبتنا معه إلى خير"⁽³⁾.

وعُرف السلطان بحُبِّ مصلحته، وتفضيلها على مصالح المسلمين، وإذا تعارضت مصلحته مع بعض الأحكام، يحتال بكلِّ حيلة، لتسيير مصالحه، وهذا ما حدث سنة سبع عشرة وسبعمئة، عندما رَفَضَ شمس الدين الحريري السماح للسلطان بأخذ قطعة أرض من أوقاف الظاهر بيبرس، حيث أراد السلطان استبدالها بموضع آخر، وحنق عليه السلطان كثيراً، وصرفه عن قضاء مصر⁽⁴⁾.

وما حصل أيضاً في تجهيز جيش المسلمين لملاقاة غازان، حيث حاول السلطان الناصر الحصول على فتوى من الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد⁽⁵⁾، بأن يؤخذ من كل إنسان دينار لتجهيز الجيش، ولكنَّ الشيخ ابن دقيق العيد أبى أن يكتب بذلك قائلاً: "لم يكتب ابن عبد السلام للمظفر، حتى أحضر سائر الأمراء ما في ملكهم من ذهب وفضة، وحلي نسائهم وأولادهم، وراه، وحلَّفَ كلاً منهم أنه لا يملك سوى هذا، فإذا كان ذلك غير كافٍ، فعند ذلك كُتِبَ بأخذ الدينار من كل واحد، وأما الآن، فيبلغني أن كلاً من الأمراء له مالٌ جزيل، وفيهم من يُجهز بناته

(1) انظر المقرئزي- السلوك، ج 2، ق 1، ص 87-88.

(2) هكذا في الأصل.

(3) اليوسفي- نزهة الناظر، ص 152.

(4) انظر المقرئزي- السلوك، ج 2، ق 1، ص 173-174.

(5) محمد بن علي بن وهب، القاضي تقي الدين بن دقيق العيد، قاضي القضاة بالديار المصرية، شافعي، له كتابات عديدة في الفقه والحديث، توفي بالقاهرة سنة 702هـ. انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص 165.

بالجواهر واللآلئ، ويعمل الإناء الذي يستنجلي منه في الخلاء من فضة، ويُرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر⁽¹⁾.

ومع ذلك، عمل الجُند على تحصيل المال من العامة، فاستاء الناس من ذلك، ولحق بهم عُسْرٌ شديد، حتى أصبحوا يتهجمون الجُند قائلين: "بالأُمس كُنتم هاربين، واليوم تُريدون أخذ أموالنا"، فأصدر السلطان من يُنادي في القاهرة ومصر: "أيّ عامي تكلم مع جندي، كانت روحه وماله للسلطان"⁽²⁾.

وهذا ما جعل الخليفة يخشى من عدم وقوف المسلمين إلى جانب السلطان في معركة مرج الصقّر، فنراه يطوف على صفوف المُحاربين قائلاً: "يا مُجاهدين لا تتظروا لسلطانكم، قاتلوا عن دين نبيكم صلى الله عليه وسلّم، وعن حريمكم"⁽³⁾.

ولم يكن السلطان ذا وفاء، ولا حافظاً للمعروف للأمرء الذين خدموه، فإذا كَبُرَ مملوك عنده اشتهى موته، وبعد أن يخدمه الشخص، ثم يعجز عن الخدمة، يصرفه دون اكتراث، حتى قيل فيه: "هذا أستاذنا أعرف خلقه، إذا مرض عنده مملوك يشتهي موته، وإذا حصل له حياة يبقى ينظره نظرة المُكره"⁽⁴⁾، وكان يقطع خبز الجندي إذا مرض، دون اكتراث لحاله⁽⁵⁾.

وكان السلطان يتغير في معاملته مع الأمرء من حال إلى حال، وكل ذلك عائد إلى دسائس الأمرء التي يبتونها بعضهم على بعض، فيبدأ السلطان بمصادرة أموالهم، ومعاقبتهم وتعذيبهم⁽⁶⁾.

(1) المقرئزي- السلوك، ج 1، ق 3، ص 898. حياة ناصر الحجّي - أحوال العامة في حُكم المماليك، ص 127-128.

(2) انظر المقرئزي السلوك، ج1، ق3، ص 907.

(3) المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص 923.

(4) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 46.

(5) انظر المقرئزي، السلوك، ج 2، ق 1، ص 20.

(6) انظر المصدر نفسه، ص 279-280.

وقد تحدّث ابن بطوطة عن بعض أمراء الدّولة، في عهد النّاصر محمد، وما وجدوه من سوء المعاملة، على الرغم من صفاتهم الحسنة، قائلاً: "ومن أمراء مصر، ساقى الملك النّاصر، وهو الأمير بكتّمور⁽¹⁾، وهو الذي قتله النّاصر بالسّم،... ومنهم طُشيط المعروف (بحمص أخضر)⁽²⁾، وكان من خيار الأمراء، وله الصّدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة، وله الإحسان العظيم....، وسجنه الملك الناصر مرّة، فاجتمع الحرافيش، ووقفوا بأسفل القلعة، ونادوا بلسان واحد: "يا أعرج النّحس - يعنون الملك الناصر - أخرجْه" فأخرجوه وسجنه مرّة أخرى، ففعل الأيتام مثل ذلك، فأطلقه"⁽³⁾.

ذكر عدد من الأدباء والمؤرّخين، حادثة قتل بكتّمور على يد السّلطان مسموماً، كما اتّهم أيضاً بقتل ابنه قبله وإحراق قلبه عليه⁽⁴⁾، وكل ذلك طمعاً بما يملكون.

وصوّره آخرون بعدم وفائه، وعدم دوام حبّه ورضاه لأحد "لما كان يُعلم من ملّيه وفروغه عمّن له فيه أرب، فإنّه يُقبل عليه إقبال لا يمكن أن يحسب أحد له إدبار، ويُدبر عليه إدبار من لا يدع له في الأرض ذكرٌ ولا آثار"⁽⁵⁾.

وقد وقع على النّاس أشدّ أنواع الظّلم، عندما وكلّ الناصر محمدٌ أمرهم لأشخاص عُرفوا بالخداع والغشّ، وسلب أموال النّاس بقوة السّلطان، الذي اعتقد أنّ دوام سلطته وبقاء عرشه لا يكون إلّا بملء بيت المال بأموال الشعب المسلوبة، وكان أشهرهم "شرف الدّين النشو"، ناظر الخاصّ الذي ارتكب كثيراً من المظالم، وقد ضجّ الشعب من هذه المظالم وبدؤوا بالشكوى،

(1) الشريف الأمير سيف الدين بكتّمور بن عبد الله الساقى الناصري، أحد أعيان أمراء الدولة وأكابرها، رفيع المنزلة، وافر النعمة، بلغ من القرب ونفاذ الكلمة إلى ما لا مزيد عليه، وظهر له من الأموال، ما لا يحصى عدداً، ت 733هـ. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 236.

(2) الأمير سيف الدين حمص أخضر الساقى الناصري، كان شكلاً ضخماً، ووجهه ممثليّ لحماً طالت مدته في الإمرة وزادت أملاكه، سمي حمص أخضر لأنه لما كان في الطباق يأكله كثيراً، ت 743هـ. انظر الصفي، أعيان العصر، ج 2، ص 586.

(3) ابن بطوطة - الرحلة، ص 59-60.

(4) انظر اليوسفي - نزهة الناظر، ص 155-159. الصفي - الوافي بالوفيات، ج 4، ص 193. المقرئ - السلوك، ج 2، ق 2، ص 357.

(5) اليوسفي - نزهة الناظر، ص 148-152.

والأنين، ولكن دون جدوى، وتابع النشو أعماله بأمر السلطان، الذي أوعز له يوماً، بفتح دكاكين التجار، وسلب محتوياتها، دون اكرثا لردّة فعلهم، حيث أفاقوا صباحاً، وقد صدمتهم رؤية متاجرهم مفتوحة ومُفرّغة من محتوياتها، فلم يبقَ منهم إلا باكٍ أو شاكٍ، أو صائح أو نائح، كلّ أحد على قدر مصيبتة، ولم يكن النشو إلا رجلاً مُبتزّاً، ظالماً، مشغولاً بالشراب⁽¹⁾.

وكان النشو يتربّص الأمراء والولاة، فإذا مرض أحدهم يتحين الفرصة للاستيلاء على ماله وثروته⁽²⁾.

وكان للنشو أخ يُساعده على أخذ أموال الناس، ومصادرة التجار والأمراء وإغراء السلطان بجمع المال وظلم الرعية، وصار السلطان ما يعرف كل يوم إلا ذهب يُحمل له لا يعلم من جمعه، ولا من أين يحضره النشو، وصار كثيرون يميلون إلى رشوة النشو ومعاونيه، لما علموا عن حاله مع السلطان⁽³⁾، وقد تحدّث الأدب بكثرة عن مظالم النشو واشترائه مع السلطان في ذلك، فهذا اليوسفي يتحدّث عمّا أوقعه النشو من ظلم في عالم كثير، وإغراء السلطان بظلم لم يُرَ له مثيل، حتى طال ظلّمه النساء بعد الرجال، وذوات الأحمال "حتى إنه اتّهم امرأة بصندوق مال، ووقعت وسلّمت، واتفق في أمرها ما لا يسمع به أحد في دولة من الدول، ولا بلغ أحد من الظلم مبلغها، وهي أنها كانت حامل، وأحضروها إلى العقوبة، فعُوقبت بالمعاصير والكسارات، وتتوعوا في عقوبتها وهي صابرة، وأقاموا على ذلك أيام وهم يُكرّوا عليها العقوبة، واتفق يوم عقوبتها وقع بها الطلق، وولدت ولداً ذكراً، ورموها ببيت الأكوز إلى أن سيروا لها خرق بيض، وشيء سترت به حالها وحال ابنها، وكانت الأمراء والجند والعامّة تسمع عن عقوبتها، فيتوجّعوا ويبكوا هم ونساؤهم"⁽⁴⁾.

وصور الأدب السلطان في ظلّ تلك الأحداث، وذلك الظلم الذي وقع على الرعية: مُحبّاً لمصلحته، مُغرماً بجمع المال، مقتنعاً بكلام عامله، فإذا اشتّم رائحة المال عند أحد، أمر بضربه

(1) انظر: اليوسفي - نزهة الناظر، ص 74-79.

(2) انظر: المصدر نفسه، ص 47.

(3) انظر: المصدر نفسه، ص 128-131.

(4) انظر: المصدر نفسه، ص 262. الشجاعى - تاريخ الملك الناصر، ص 70-73.

حتى يُقَرَّ بالمال أو يموت، وهذا ما أمر به لموسى بن التاج إسحاق⁽¹⁾ الذي لم يقرّ بوجود المال لديه، فما زالوا يضربونه بالمقارع ويُغمى عليه، ثم يعيدون ضربه، حتى شارف على الموت وجسمه مهشّم ممزّق، فرُمِيَ جانباً، حتى انتشرت رائحته وهو حي⁽²⁾.

لم يجرؤ أي شخص على الشكوى، خوفاً من ردّة فعل النشو، وخوفاً من عدم قبولها من السلطان، فبدؤوا بكتابة أوراق ورميها للسلطان لها، من غير أن يُعرف كاتبها، أملين في إيصال شكاوهم للسلطان، الذي صوّر وكأنه غائب عن الوعي، ومغمض عينيه عن أفعال النشو، محذرين السلطان من عاقبة ذلك، ومما كان في هذه الأوراق:

أَيَا مَلِكاً أَصْبَحَ فِي نَشْوَةٍ	مِنْ نَشْوَةِ الظَّالِمِ فِي نَشْوِهِ
أَنْشَيْتُهُ فَتُنْتُشِنَنَّ ضَغَائِنًا ⁽³⁾	سَتَرَى غَبَاوَتَهَا بِصِحَّةٍ غِيَّهِ
حَكَمْتُهُ فَحَكَمْتَ أَمْرًا فَاسِداً	وَتَوَحَّشْتَ أَيْدِي الزَّمَانِ بِبَطْشِهِ
وَلَتُنْتَدِمَنَّ نَدَامَةً كُسَعِيَّةً ⁽⁴⁾	يَوْمًا إِذَا ذُبِحَ الخُرُوفُ بِكَبْشِهِ

فلما قرأها السلطان تغيّر لونه ومزّقها، ثم وجد ورقة أخرى كتب فيها:

أَمَعْنْتَ فِي الظُّلْمِ وَأَكْثَرْتَهُ	وَرَدَّتْ يَا نَشْوُ عَلَى الْعَالَمِ
تُرَى مِنَ الظَّالِمِ فَيَكُمُ لَنَا	فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِ ⁽⁵⁾

ويُتابع الأدب رصد أعمال هؤلاء المستخدمين، فيعجبُ الأدباء منهم ومن ادّعائهم عمل الخير والتّدين، وتسابقهم في بناء المساجد والسُّبُل، وهذه أبيات يسخر فيها الشّاعر من النّشو الذي أنشأ سبيلاً يستتر خلفه ويلبس قناع الصّلاح، ولكن ظلّمه واضح لا يُمكن ستره، فيقول⁽⁶⁾:

أَنْشَأَ الْعَظِيمُ النّشْوُ لَمَّا ارْتَقَى	وَزَارَةً زَادَتْهُ فِي وَرْهِ
--	--------------------------------

(1) موسى بن اسحق بن عبد الكريم، شمس الدين، ناظر الجيش وناظر الخاص، ولي الوزارة بدمشق غير مرة، توفي بدمشق سنة 771هـ. انظر اليوسفي، نزّهة الناظر، ص 120.

(2) انظر نفسه، ص 347-348.

(3) الضغينة: الحقد الشديد، الجمع ضغائن. انظر المعجم الوسيط، باب الضاد، ص 543.

(4) كسعة فلاناً كسعا: ضرب دبره بيده، أو بصدر قدمه، ويقال كسع القوم بالسيف، اتبع أدبارهم فضربهم به. انظر المعجم الوسيط، باب الكاف، ص 793.

(5) انظر المقرئ - السلوك، ج 2، ق، ص 473-484.

(6) المنهل الصافي، ج 2، ص 201.

بِالْجَامِعِ الْعُمَرِيِّ سَبِيلًا وَقَدْ قَالَتْ لَنَا عَنْهُ بَنُو مِصْرِهِ
هَذَا سَبِيلُ حَالِهِ فَاسِدٌ وَزِيرُهُ يَرْشَحُ فِي قَعْرِهِ

وأصبح الناس من كثرة الظلم يشكون آلامهم عند الحج للنبي صلى الله عليه وسلم،
ويقرونون السلطان والنشو في الظلم وفي الدعاء عليهم⁽¹⁾.

ويذكر الشجاعي ظلم السلطان، في جمع الأموال من أجل زواج أبنائه وإيعازه
لمستخدميه بذلك، يقول: "ولما عاد السلطان من الصيد، عقدَ عقدَ محمد وأحمد أولاد تتكز على
بناته، ورسم للنشو أن يحمل المهر من الخزانة، وأن يجهز نائب الشام في الذهب وباقي القماش،
فنزل النشو، وطلب سائر تجار المدينة، وأقلب عاليها سافلها ونهب الخلق، وأخذ أموال الناس،
وطلع به"⁽²⁾.

واستهان السلطان بعمال دولته وأمرائه، وسمع فساد النشو الذي سعى دائماً نحو الفتنة،
حتى وصل فسادهم وظلمهم الأمراء وعمال الدولة والتجار والناس أجمعين، وإذا حاول أي شخص
الشكوى للسلطان، عبس في وجهه، ولم يغبأ بكلامه، وقال: "أنتم كلما وليت أنا واحد⁽³⁾ ينفعني
تريدوا تخرجوه، ولو كان من جهتك كنتم كل وقت تشكروا منه عندي"، وأهانته وسبه⁽⁴⁾.

وكان من تعلق السلطان بالنشو، وإعجابه به وبأعماله يقول للأمراء: "أنتم تكذبوا النشو
في جميع ما يقوله، وقصدكم أن لا تدعوا أحد⁽⁵⁾ يخدمني وينصحني"⁽⁶⁾.

ويتابع اليوسفي بذكر الكثير من أخبار الظلم والعسف، الذي لاقاه الكثير من الأشخاص
حتى أقربهم من السلطان، الذي اتهم بزواج ابنته، وأشيع بعد موته أن السلطان أسقاه لكثرة ما
كان قد كرهه⁽⁷⁾.

(1) انظر الشجاعي - تاريخ الملك الناصر، ص 71.

(2) المصدر نفسه، ص 58.

(3) هكذا في الأصل، الصحيح واحداً.

(4) انظر اليوسفي - نزهة الناظر، ص 197-198.

(5) هكذا في الأصل، الصحيح أحداً.

(6) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 279.

(7) المصدر نفسه، ص 211-212.

واشترك "لؤلؤ الفندشي"⁽¹⁾، في الظلم والعسف، ومساعدة النشو، وصفه ابن حبيب بقوله:
 "بادر وصادر، وتتمّر وتجبر، وقام وقعد، وبرق ورعد، ونهى وأمر، وشم وهمر، وأذلّ الرجال،
 واستخرج الأموال، وأخذ ونقل، وسجن واعتقل، وعزل وصرف، وأهان الأكابر، وروّع الحرم
 والأصاغر، ونزع أثواب الأنصاف وسلّط الأطراف على الأشراف، وضرب بالعصي والسيّاط،
 وفيه يقول الشيخ زين الدّين عمر بن الوردي، متجهاً إلى الله تعالى، كي يخلص الناس من هذا
 الظلم وهذا الظالم الذي لم يجد من يردعه"⁽²⁾:

قَلْبِي لَعَمَرَ اللهُ مَعْلُولُ بِمَا جَرَى لِلنَّاسِ مَعَ لَوْلُو
 يَا رَبِّ قَدْ شَرَّدَ عَنَّا الْكَرَى سَيْفٌ عَلَى الْعَالَمِ مَسْلُولُ
 وَمَا لِهَذَا السَّيْفِ مِنْ مَغْمَدٍ سِوَاكَ يَا مَنْ لُطْفُهُ السُّولُ

وصوّر الشعراء عمال الدّولة في دواوينها، وقد أفسدوا أوضاعها بدل الإصلاح، حتّى
 ديوان الزّكاة، الذي يحرم الفساد فيه؛ لما له من حرمة إسلامية، لكنه في ظل هذه الأوضاع
 أصبح معكراً بظلم الطغاة، وفساد العاملين، وصفه علاء الدّين الوداعي قائلاً⁽³⁾:

انظر لـديوان الزّكاة الذي مستخدموه كدروا مشرعة
 أربعة فيه قد استجمعوا هذا هو المشؤوم بالأربعة

وانتشر الخوف من الوشاة بشكل كبير، حتّى عبّر الشعراء عن ذلك، وصرّحوا بما كان
 فيه الناس من كبت لمشاعرهم وآلامهم وأناتهم، يقول الشاعر شهاب الدّين محمود الحلبي،
 مصوراً كبت الإنسان لمشاعره وآلامه في داخله، عندما يكون المجتمع مليئاً بالواشيين
 والفسّادين، الذين لا يتقون الله: ⁽⁴⁾

فَلِلَّهِ كَمْ مِنْ لَوْعَةٍ كُنْتُ كَاتِمًا لَهَا خِيفَةُ الْوَاشِيْنَ نَمَّ بِهَا دَمْعِي

(1) لؤلؤ بن عبد الله الحلبي، الأمير بدر الدين غلام فندش، ضامن حلب، أصله مملوك فندش، كاتب الناصر محمد سنة 733هـ، عمل شاد الدواوين في حلب، صادر الناس وتوّع في أذاهم، مات تحت العقوبة سنة 742هـ. انظر المقرئزي-
 المقفي الكبير، ج 5، ص 14. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3، ص 359.
 (2) أبو الفداء- المختصر في أخبار البشر، ص 108. ابن حبيب- تذكرة النبيه، ج 2، ص 238-239. المنتقى من درة
 الأسلاك، ص 114.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 77.

(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 154.

إِذَا كَانَ مِنْ عَيْنِي عَلَى مَا تَكُنُّهُ ضُلُوعِي مِنَ الْأَسْرَارِ عَنْ، فَمَا صُنْعِي

وكان أغلب هؤلاء الواشين من الأقباط الذين أوقعوا ظلمهم على المسلمين، فأُنكر الشيخ نور الدين علي بن عبد الوارث البكري ذلك، وجمع خلائق، وتوجّه إلى السلطان، فأخذ يتحدث أمام الفقهاء والقضاة، ويورد الأحاديث النبوية والآيات الكريمة، ثم أشار إلى السلطان قائلاً: "أفضل المعروف كلمة حق عند سلطان جائر، وأنت وليت القبط المسالمة، وحكمتهم في دولتك وفي المسلمين، وأضعت أموال المسلمين في العمائر والإطلاقات التي لا تجوز". فقال السلطان: "ويلك أنا جائر؟"، فقال: "نعم! أنت سلّطت الأقباط على المسلمين وقويت دينهم"، فأخذ السلطان السيف، وهمّ بقتله لولا شفاعة القضاة، ولولا أنّه في النهاية استجار برسول الله.

والنفت السلطان إلى الفقهاء حوله، آملاً أن يسمع من ينكر قول البكري، حتى قال أحدهم: "ما قال شيئاً ينكر عليه فيه، ولا يجب عليه شيء، فإنه نقل حديثاً صحيحاً"⁽¹⁾.

وكان هناك من يواجه هذا الظلم أو يحاول مواجهته، حتى إنّ رجلاً في يده سكّين وثب على السلطان وقصد قتله، فمسك في وقته، وعذّب بأنواع العذاب فلم يُقرّ بشيء، فوسّط وعُلّق على باب زويلة، وأخذ السلطان يحترس بعدها على نفسه، ومنع الناس من الجلوس في الطرقات عند مروره، وأمرُوا بإغلاق طاقات بيوتهم⁽²⁾، وإذا فشلت محاولات إصلاح الحال، وعِظّة السلطان، يبقى الدّعاء الذي سُمع للسلطان مُقرّاً بفساده: "اللهم أصلح فساد سلطاننا، وخذ الظّلمة أخذ عزيز مقتدر"⁽³⁾.

ويصِفُ ابن الوردي زمانه بوصف لاذع، يرمي من بين الكلمات والسّطور مستخدماً التورية ليُريح نفسه بكلماته، ويُريح جسده من عقاب قد يطوله إذا أفصح عمّا في صدره،

(1) انظر المقرئزي - السلوك، ج 2، ق 1، ص 135.

(2) انظر الدّواداري - كنز الدرر، ج 9، ص 378-379. المقرئزي - السلوك، ج 2، ص 370. حياة ناصر الحجي -

أحوال العامة في حكم المماليك، ص 127-128.

(3) ابن حجر - الدرر الكامنة، ج 3، ص 239.

مُصَوِّراً ذلك الزَّمان الذي لم يعد يدري الإنسان فيه الصِّحَّة من العَرَج، فهو زمان أعوج، يرعى اللُّثام ويختال الكرام، يقصد الناصر محمداً الذي كان أعرج، فأَيُّ زمانٍ هذا؟!، يقول⁽¹⁾:

صَبْرًا لَصَرْفِ زَمَانٍ قَاطِعِ الْحَجَجِ	لَمْ يَدْرِ مَا صِحَّةُ الْمَمْشَى مِنَ الْعَرَجِ
يَرَعَى اللَّثَامَ وَيَخْتَالُ الْكَرَامَ وَلَا	يَخْشَى الْمَلَامَ بِقَلْبٍ غَيْرِ مُخْتَلَجِ
جَرَّبْتُ أَهْلَ زَمَانِي وَاخْتَبَرْتُ فَلَمْ	أَجِدْ كَرِيمًا وَلَا عَوْنًا عَلَى الْحَرَجِ
وَلَا مُصِيخًا إِلَى مَدْحٍ إِذَا مُدِحُوا	وَلَا كَرِيمًا يَخَافُ الْهَجْوَ حَيْثُ هُجِيَ

وبعد أن عرض فساد زمانه، يتابع ليظهر نفسه كيف يتصرّف لمواجهة هذا الزمن، فيُفَصِّحُ عَنْ إِعْرَاضِهِ عَنْ ذَوِي السُّلْطَانِ، قاصداً السلطان نفسه مشيراً إلى صفة العرج مرة أخرى هازئاً بالسلطان مُصَوِّراً إِيَّاهُ وقد ابتعدَ عن طريق الصَّواب، وانحازَ إلى الطَّرِيقِ الأَعْوَج، يقول:

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَدْ جَانَبْتُ أَكْثَرَهُمْ	وَقُلْتُ يَا أَزْمَةَ اشْتَدِّي لِتَنْفَرِجِي
فَإِنَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ الصِّدْقِ قَدْ عَرَجُوا	فَاعْذِرْ فَلَيْسَ عَلَى الْعَرَجَانِ مِنْ حَرَجٍ

ويُصَوِّرُ ظِلْمَ السُّلْطَانِ وَحُبَّهُ وَتَمَسُّكَهُ بِالدُّنْيَا وَمِلَذَّاتِهَا، وكيف يعامل النَّاسَ إذا اقتربوا منه، وقولُهُ فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ، فمن يتمسك بالدنيا بهذه الصورة، يستحق أن يوصف بهذه الصفة "الكلب" الذي يحذره الناس خوفاً من ضرره، يقول⁽²⁾:

زِيَادَةُ الْفَضْلِ عَيْنُ النِّقْصِ عِنْدَهُمْ	وَكُثْرَةُ الْمَالِ فِيهِمْ "ارْفَعُ الدَّرَجِ"
فَلَا تُزَاحِمُ عَلَى الدُّنْيَا الْكِلَابَ فَمَنْ	يُزَاحِمُ الْكَلْبَ فِيمَا نَالَهُ يَهْجِ

وَيُصَبِّرُ الشَّاعِرَ نَفْسَهُ، وَيُؤَمِّلُهَا بِالْفَرَجِ:

يَا نَفْسُ صَبْرًا فَعُقْبَى الصَّبْرِ صَالِحَةٌ	لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ الرَّحْمَنُ بِالْفَرَجِ
--	---

ويتوعد ابن الوردي حابسي ابن تيمية (السلطان)، متهماً إِيَّاهُمْ بِظُلْمِهِ ظُلماً سوف يُحَاسِبُونُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يقول⁽³⁾:

(1) ابن الوردي- الديوان، ص 244-245.

(2) ابن الوردي- ديوان ابن الوردي، ص 245.

(3) المصدر نفسه، ص 267.

سَيَظْهَرُ قَصْدُكُمْ يَا حَابِسِيهِ وَيَتَّكُمُ إِذَا نُصِبَ الصَّرَاطُ

وَمِنْ مَظَاهِرِ ظُلْمِ السُّلْطَانِ لِلرَّعِيَّةِ، عَدَمُ تَيَقُّنِهِ مِنَ الْخَبَرِ الَّذِي يَصِلُهُ قَبْلَ التَّصَرُّفِ، وَهَذَا مَا حَدَّثَ مَعَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، الَّذِي عُمِلَ كَثِيرٌ مِنَ الدَّسَائِسِ وَالْوَشَايَةِ بِهِ لِلسُّلْطَانِ مَتَّهِمِيهِ بِمَحَاوِلَةِ الْوُصُولِ لِلْمُلْكِ وَاعْتِصَابِهِ مِنَ النَّاصِرِ، وَهَذَا مَا نَفَاهُ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ، وَلَوْلَا مَا اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِ السُّلْطَانِ مِنَ الْمَحَبَّةِ لِابْنِ تَيْمِيَّةٍ، لَكَانَ قَدْ فَتَكَ بِهِ مِنْذُ دَهْرٍ طَوِيلٍ، مِنْ كَثْرَةِ مَا يُقَالُ إِلَيْهِ فِي حَقِّهِ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الزَّوْرِ وَالْبَهْتَانِ، مِمَّنْ ظَاهِرُ حَالِهِ الْعَدَالَةُ، وَبَاطِنُهُ مَشْحُونٌ بِالْفُسْقِ وَالْجَهَالَةِ⁽¹⁾.

أَحْضَرَ النَّاصِرُ مُحَمَّدَ الشَّيْخِ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ: "إِنِّي أَخْبَرْتُ أَنَّكَ قَدْ أَطَاعَكَ النَّاسَ، وَأَنْ فِي نَفْسِكَ أَخْذَ الْمُلْكِ، فَلَمْ يَكْتَرِثْ بِهِ، بَلْ قَالَ لَهُ بِنَفْسٍ مَطْمَئِنَّةٍ وَقَلْبٍ ثَابِتٍ، وَصَوْتٍ عَالٍ سَمِعَهُ كَثِيرٌ مِنْ حَضَرٍ: أَنَا أَفْعَلُ ذَلِكَ؟ وَاللَّهِ إِنَّ مُلْكَكَ لَا يَسَاوِي عِنْدِي فَلْسِينَ"⁽²⁾

وَيَتَابَعُ بِنْفِي مَا اتَّهَمُوا بِهِ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ أَنَّهُ يَخْطُطُ لِاغْتِصَابِ الْمُلْكِ، كَمَا يَنْفِي عَنْهُ مَجَارَاةَ الْفَسَادَةِ وَالظَّالِمِينَ، وَالتَّعَامُلَ مَعَهُمْ، لِذَلِكَ نَصَبُوا لَهُ الْعَدَاءَ، وَبَدَّوْا بِالْوَشَايَةِ ضَدَّهُ وَتَحْرِيزِ السُّلْطَانِ، يَقُولُ⁽³⁾:

إِمَامٌ لَا وِلَايَةَ كَانَ يَرْجُو وَلَا وَقَفٌ عَلَيْهِ وَلَا رِبَاطٌ
وَلَا جَارَاكُمُ فِي كَسْبِ مَالٍ وَلَمْ يُعْهَدْ لَهُ بِكُمْ اخْتِلَاطٌ

وَيَصَوِّرُ ابْنُ الْوَرْدِيِّ أَعْدَاءَ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ بِالْقَوْمِ السَّلَاطِ عَاثُوا فِي سَمْعَتِهِ فَسَادًا، يَقُولُ⁽⁴⁾:

عَثَا فِي عَرَضِهِ قَوْمٌ سِلَاطٌ لَهُمْ مِنْ نَثْرِ جَوْهَرِهِ التَّقَاطُ
تَوْفِي وَهُوَ مَحْبُوسٌ فَرِيدٌ وَلَيْسَ لَهُ إِلَى الدُّنْيَا انْبِسَاطٌ
هُمْ حَسَدُوه لَمَّا لَمْ يَنَالُوا مَنَاقِبَهُ فَقَدْ مَكُرُوا وَشَاطُوا

(1) انظر الكرمي- الكواكب الدرية، ص 98-99. ابن الجزري- تاريخ حوادث الزمان، ج 2، ص 111-123.

(2) الحافظ عمر بن علي البزاز، الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، حققه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ص 72.

(3) ابن الوردي، الديوان، ص 267.

(4) المصدر نفسه، ص 266. انظر ابن حبيب- تذكرة النبيه، ج 2، ص 186.

ولكن السلطان اعتقل ابن تيمية، ومنع عنه الدّواة والقلم، واستاء الكثيرون لهذا الأمر، وأنكروا اعتقال شيخ الإسلام، فعبروا عن الظلم الواقع عليه، وصوّروه بصور البطولة والشجاعة التي استاء منها السلطان غيره وحسداً، يقول ابن حبيب⁽¹⁾:

إِنْ كَانَ أَصْبَحَ شَيْخُ الْعِلْمِ مُعْتَقَلًا مِنْ كَيْدِ قَوْمٍ تَنَاهَوْا فِي الَّذِي نَقَلُوا
لَا تَظْهَرُوا عَجَبًا فَالْسَيْفُ يَدْخُلُ فِي سِجْنِ الْقِرَابِ، نَعَمْ، وَالرَّمْحُ يُعْتَقَلُ

وأحدثت مشكلة ابن تيمية صيحة أدبية عالية، عبر فيها الأدباء عن استيائهم من موقف السلطان، ومن تصرفه، وصوّروه بصفات كثيرة سيئة، لأنه أنقاد وراء الدسائس وأرضى أعداء الشيخ باعتقاله، يقول الشيخ نجم الدين سليمان بن عبد القوي الطوفي⁽²⁾، مُصَوِّراً الظلم الذي وقع عليه من السلطان، ومُصَوِّراً السلطان بنقصان العقل واللؤم⁽³⁾:

يَا أَهْلَ تَيْمِيَّةِ الْعَالِينَ مَرْتَبَةً وَمَنْصِباً قَرَعَ الْأَفْلاكِ تَبْيَانَا
جَوَاهِرُ الْكَوْنِ أَنْتُمْ، غَيْرَ أَنْكُمْ فِي مَعْشَرٍ اسْتَرْبُوا فِي الْعَقْلِ نُقْصَانَا
إِنْ تَبْتَأَسَ بِلَنَامِ النَّاسِ يَرْفَعُهُمْ عَلَيْكَ دَهْرٌ لِأَهْلِ الْفَضْلِ قَدْ خَانَا

يحق للشعراء رثاء هذا الشيخ العظيم الذي طالما جاهد مع المسلمين وثبت قلوبهم، وله اعظم المواقف في التاريخ، عندما قابل غازان ملك التتار وذكره ووعظه، ولكن حساده ومناوئيه لم يرضهم ما وصل إليه من مكانة رفيعة في قلوب الناس، فعملوا على إيقاع خلاف بينه وبين السلطان فعمدوا إلى اختلاق الباطل والبهتان عليه، عند الامراء والحكام، "فشققوا قلوب الطغاة، بما اجتروحوه من زور الكلام، فبعضهم صبا إلى أقوالهم تقليداً، وصار في حق هذا الإمام جباراً عنيداً، ولقد سجن أزماناً وأعصاراً وسنين وشهوراً، ولم يولهم دُبْرَه فراراً..."⁽⁴⁾.

(1) ابن حبيب- تذكرة النبيه، ج 2، ص 27.

(2) سليمان بن عبد القوي، ابن عبد الكريم بن سعيد الطوفي، كان فقيهاً حنبلياً، عارفاً بفروع مذهبه ملياً، شاعراً أدبياً له مشاركة في الأصول قيماً بالنحو، والفقه، والتاريخ وغير ذلك، ت 710 هـ. انظر الصفي، أعيان العصر، ج2، ص445-446.

(3) الكرمي، الكواكب الدرية، ص 132.

(4) عمر البزاز، الأعلام العلية، ص76.

يُلاحظ استخدام البزاز لصفات الطغاة، جبّار، عنيد، ليصف فيها الناصر محمداً ابن قلاوون فهو الحاكم الذي سجن ابن تيمية.

وبدأ العلماء والفُهاء المؤيدين لابن تيمية بإرسال رسائل كثيرة، إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون معربين فيها عن عدم رضاهم عن سجن ابن تيمية، مظهرين مكانة هذا الشيخ الجليل، وأن ما حلّ به لا يليق بمثله، ومما ورد من رسائلهم: ".... إن إكرام هذا الإمام، ومعاملته بالتبجيل والاحترام، فيه من قوام الملك، ونظام الدولة، وإعزاز الملة، واستجلاب الدعاء، وكبت الأعداء، وإذلال أهل البدع والأهواء، وإحياء الأمة، وكشف الغمة، ووفور الأجر وعلو الذكر، ورفع البأس، ونفع الناس".⁽¹⁾

ومن هذه الرسائل، ما كان حثاً للسلطان، على العدل والأخذ بالأسباب، وعدم سماع وإرضاء أهل البدع: "ولمّا رأى علماء هذه الناحية، عظم هذه النازلة، من شماتة أصحاب البدع، وأهل الأهواء، بأكابر الأفاضل، وأئمة العلماء، أنّه حال هذا الأمر الفظيع، والحال الشنيع، إلى الحضرة الشريفة السلطانية"⁽²⁾.

ولكن الشيخ ظلّ معتقلاً، ولم يصنع السلطان لأحد، ومات الشيخ في حبسه، فرثاه الكثير، ذاكرين ظلّمه وحبسه، ناقلين على ظالميه وحابسيه، وكان مما كتبه الشيخ القاضي الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فضل الله العمري، عن منع الدواة والقلم عن ابن تيمية، مُصوّراً ظلّم السلطان له، ومُصوّراً حال الشيخ في السجن والمعاناة التي عاناها عندما منع عن الكتابة التي كانت بمثابة الروح لجسده، يذكر ما حلّ به عندما مُنع عن الدواة والقلم، يقول: "وكان قبل موته، قد مُنع الدواة والقلم، وطبع على قلبه منه طابع الألم، فكان مبدأ مرضه، ومنشأ عرضه، حتّى نزل قفار المقابر، وترك قفار المناير، وحلّ ساحة ربّه وما يُحاذر، وأخذ راحة قلبه من اللائم والعاذر، فمات وما مات بل حيي، وعرفت قدره الآن، مثله ما رأيته..."⁽³⁾.

(1) الكرّمي، الكواكب الدرية، ص 170-172.

(2) المصدر نفسه، ص 171.

(3) المصدر نفسه، ص 181-186.

وقال أيضاً شعراً مُصَوِّراً الظُّلم الَّذِي لحق بآبن تيمية، ممَّا أَسْعَدَ أَعْدَاءَهُ وَأَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ، معبراً عن حزنه على شكل تساؤل فيه سخرية وعداء لمن أوقع الظلم على الشيخ وسبَّب له الضرر، فرثاه بقصيدة وصلت نحو الثمانين بيتاً، صَوَّرَ فيها مأساة الشيخ، من بداية سجنه إلى وفاته، معدداً صفاته الحسنة، ذاكراً أعماله الفذة، التي عادت على المسلمين بالخير منها⁽¹⁾:

أَهْكَذَا تَقِيَّ الدِّينَ قَدْ عَبَّثْتُ	أَيْدِي الْعَدَى، وَتَعْدَى نَحْوَهُ الضَّرَرُ
إِلَى ابْنِ تَيْمِيَّةٍ تُرْمَى سَهَامُ أَدَى	مِنْ الْأَتَامِ، يُدْمَى النَّابُ وَالظَّفَرُ
مِثْلُ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ تُرْضَى حَوَاسِدُهُ	بِحَبْسِهِ، أَوْ لَكُمْ فِي حَبْسِهِ عَذْرُ
مِثْلُ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ يُرْمَى بِكُلِّ أَدَى	وَلَيْسَ يُجْلَى قَذَى مِنْهُ، وَلَا نَظَرُ

ويذكر الشاعر موت الشيخ ولكنه في الوقت نفسه يبث الرعب في قلوب أعدائه، طالباً منهم أن لا يفرحوا لموته، لأنه وإن مات جسده فهو حيٌّ باقٍ في الأذهان، يقول:

قَالُوا قَبْرِنَاهُ، قُلْنَا: إِنَّ ذَا عَجَبٍ	حَقًّا أَلْكُوكِبُ الدَّرِيِّ قَدْ قَبَرُوا
وَلَيْسَ يَذْهَبُ مَعْنَى مِنْهُ مُتَقَدِّ	وَأِنَّمَا تَذْهَبُ الْأَجْسَامُ وَالصُّورُ
هَلْ كَانَ مِثْلُكَ مَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ هُدَى	وَمِنْ سَمَائِكَ تَبْدُو الْإِنْجُمُ الزَّهْرُ

وإذا كان ابن الوردي قد وصف اعداء ابن تيمية بالكلاب قاصداً السلطان تلميحاً لا تصريحاً، فهذا ابن فضل الله العمري لا يخافُ في الله لومة لائم، ويتوجه بأبيات صريحة، موجهاً كلامه لأُلي الأمر وعلى رأسهم السلطان، يقول⁽²⁾:

عَلَيْكَ فِي الْبَحْثِ أَنْ تُبْدِيَ غَوَاصِضَهُ	وَمَا عَلَيْكَ إِذَا لَمْ تَفْهَمْ الْبَقَرُ
قَدَّمْتَ لِلَّهِ مَا قَدَّمْتَ مِنْ عَمَلٍ	وَمَا عَلَيْكَ بِهِمْ، ذَمُّوكَ أَوْ شَكَرُوا

فها هو ابن تيمية قد مات، مات مَنْ كَانَ يُرَاقِبُ أَعْمَالَكُمْ، وَيَصَدِّكُمْ عَنْ فِعْلِ السَّوِّءِ، وارتكاب المعاصي، فالآن اعملوا ما تريدون، واطلموا كما تريدون فليس عليكم رقيب غير الله، ويُصَوِّرُ هُنَا السُّلْطَانُ النَّاصِرَ مُحَمَّدًا، وَقَدْ مَاتَ مَنْ كَانَ يَرُدُّعُهُ عَنِ الظُّلْمِ وَارْتِكَابِ الْمَعَاصِي، فالآن يفعل ما يريد، يقول ابن الوردي⁽³⁾:

(1) المقرئزي، تقي الدين، المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ج1، ص477.

(2) المقرئزي، المقفى الكبير، ج1، ص478.

(3) ابن الوردي، الديوان ص267.

فَهَاوُوا مَاتَ عَنْكُمْ وَاسْتَرَحْتُمْ فَعَاظُوا مَا أَرَدْتُمْ أَنْ تُعَاظُوا
وَحَلُّوا وَاعْقِدُوا مِنْ غَيْرِ رَدٍّ عَلَيْكُمْ وَأَنْطَوَى ذَاكَ الْبِسَاطُ

ويبدو أن النقد السابق قد لقي آذاناً صاغية عند السلطان، فكان لا بُدَّ من صحوته، والتفاتة إلى تلك الشكوى، وذلك الأنين، وبدأ الشك يدخل قلبه، "حتى قرّر القبض على النشو، بعدما بدأ بكشف ألاعبه، وأخبر أمراءه بذلك، وتقرّر القبض عليه، وعلى معاونيه، وبالفعل تمّ ذلك في يوم الاثنين، فتغنّى الشعراء، وصوّروا فرحتهم التي لا تُوصَف بهذا الحدث، يقول الشاعر مُصَوِّراً النشو بفرعون⁽¹⁾:

إِنَّ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ يَوْمٌ سَعِيدٌ فِيهِ لَا شَكَّ لِلْبَرِيَّةِ عِيدٌ
أَخَذَ اللَّهُ فِيهِ فِرْعَوْنَ جَهْرًا وَغَدَا النَّيْلُ فِي رَبَاهُ يَزِيدُ

وتتجلى الصورة نفسها في قول الشاعر شمس الدين الصائغ⁽²⁾، معتبراً إمساك النشو نعمة أزالَت الأحزان والآلام، فعمّ الخيرُ والرخاء، وأوفى النيل وفاض، حتى أغرق الظالمين الطغاة، ونجّاه المحسنين الأبرار، وفي هذه الأبيات يتخذ الشاعر من قصة موسى وفرعون إشارات دينية ليعطي المعنى المقصود⁽³⁾:

لَقَدْ ظَهَرَتْ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ آيَةٌ أَزَالَتْ بِنِعْمَاهَا عَنِ الْعَالَمِ الْبُؤْسَا
تَزَايِدُ بَحْرَ النَّيْلِ فِيهِ وَأَغْرَقَتْ بِهِ آلَ فِرْعَوْنَ وَفِيهِ نَجَا مُوسَى
وقال أحمد بن فضل الله العمري⁽⁴⁾:

فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ ثَانِي الشَّهْرِ مِنْ صَفَرٍ نَادَى الْبَشِيرُ إِلَى أَنْ أَسْمَعَ الْفَلَكَا
يَا أَهْلَ مَصْرَ نَجَا مُوسَى وَنِيلُكُمْ طَغَا وَفِرْعَوْنَ وَهُوَ النَّشْوُ قَدْ هَلَكَا

وكان النيل قد نقص، وبعد القبض على النشو زاد ستة أصابع، ونودي بمصر والقاهرة: "بيعوا واشتروا واحمدوا الله على خلاصكم من النشو"⁽⁵⁾.

(1) المقرئزي، السلوك، ج2، ق2، ص473.

(2) ذكره الصفدي في أثناء حديثه عن شخصيات متفرقة، في أعيان العصر، ولكنه لم يترجم له ترجمة مستقلة.

(3) المقرئزي، السلوك، ج2، ق2، ص473.

(4) المصدر نفسه، ج2، ق2، ص480.

(5) المصدر نفسه، ج2، ق2، ص473-484.

ولم يدع أبو الفداء هذه الحادثة تفوته، فشكر السلطان لأنه أُلّف النشو كما أُلّف النشو
أموال الناس ومصالحهم، يقول⁽¹⁾:

النَّشُو لَا عَدْلَ وَلَا مَعْرِفَةَ قَدْ آنَ لِلْأَقْدَارِ أَنْ تَصْرِفَهُ
مَنْ أُلْفَ النَّاسَ وَأَمْوَالَهُمْ يَحِقُّ لِلسُّلْطَانِ أَنْ يُتْلَفَهُ

وكان قد كشف النشو في نهاية أمره، "وقبض على أهله وحريمه، الذين وجدوا وهم
يعصرون النبيذ في بستانهم بطريق بولاق"⁽²⁾.

ونال النشو وأهله عقابهم، نال أيضاً لولو عقابه بعدما كشف السلطان تلاعبه وفُسْقه
وظلمه للعامة، يقول ابن الوردي⁽³⁾ فيه: "دارت عليه الدوائر، وانعكس حساب القدم الجائر، وعاد
بعد حين إلى حلب، وأوقعه الدهر في شرك من له عليه طلب، فرقم طرس جلده بقلم السّياط،
وعوقب إلى أن هلك.

أُلُوْهُ قَدْ ظَلَمَتِ النَّاسَ لَكِنْ بِقَدْرِ طُلُوعِكَ اتَّفَقَ النَّزُولُ
كَبُرَتْ فَكُنْتُ مُحْتَرَمًا فَلَمَّا صَغُرَتْ سَحَقَتْ سَنَةٌ كُلُّ لُولُوْ

ومثله قول ابن حبيب⁽⁴⁾، متشفيًا بلولو الذي عمّ ظلمه، وفي النهاية نال جزاء عمله
فعوقب أشدَّ العقوبة:

"لَمَّا اعْتَدَى لُولُو سَقُوه عَنْ طَلَا⁽⁵⁾ كَأْسَ الْعَذَابِ عَلَقِمَ الْمَشْرُوبِ
وَبِالسَّيَاطِ تَقَبُّوا جِلْدَتَهُ تَبَّأَ لَهُ مِنْ لُولُوْ مُثْقُوبِ"

هكذا ظهرت الصورة السلبية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون من خلال الأدب شعره
ونثره، فكان ظالمًا، يتخذ قرارات المعاقبة بكل قسوة، تطل يد بطشه المتهم والبرئ، ويضرب

(1) أبو الفداء - المختصر في تاريخ البشر، ص 131.

(2) الشجاعى - تاريخ الملك الناصر، ص 72-73. الصفي - أعيان العصر، ج 2، ص 366. ابن حجر - الدرر الكامنة،
ج 3، ص 42-43.

(3) ابن حبيب المنتقى من درة الأسلاك، ص 114. نفسه - تذكرة النبيه، ج 2، ص 239.

(4) ابن حبيب، المنتقى من درة الأسلاك، ص 114. تذكرة النبيه، ص 240.

(5) أقرب معنى وجدته لها، كلمة عطا - عطوا تناولوه، ويقال: عطا عرض أخيه: تناوله بالذم. انظر المعجم الوسيط، باب
العين، ص 615.

دون رَحمة، وذلك خوفاً على مصالحه الشخصية، وحرصاً على جمع الأموال بأيّ طريقة، مُتخذاً معاونين، عملوا بظلم لإشباع نهمه ومحاولة إرضائه، فعانى الشعبُ من ظلمهم ومن ظلم سلطانهم، وهبُوا مطالبين بحقوقهم وإنصافهم، وبذلوا كلَّ ما بوسعهم، وقد ساندتهم الأدب شعراً ونثراً، مواجهاً السلطان كاشفاً اللثام عن وجهه ووجوه معاونيه، حتى تحقّق مطلب الشعب وعوقبَ الخونة الظالمين.

ثانياً: شكّه الدائم (عدم ثقة السلطان بأحد)

كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون، كثير الريبة من المحيطين به، وذلك، لما لاقاه الناصر في بداية حكمه من ظلم وخيانة ممّن حوله له، فبدأ بالانتقام منذ أوّل يوم عاد به إلى السلطة العودة الأخيرة، حيث عزل وعيّن، وقبض واعتقل كثيراً من الأمراء والعاملين، وبدأ بالتحريّ والتفتيش والعمل الدؤوب المستمرّ خشية أي فتنة أو خيانة⁽¹⁾.

وتصور حياة ناصر الحجّي، أعمال الناصر، والأثر الذي تركته الأحداث التي حدثت معه في بداية حكمه، فتقول: "لم يكن شكّه الدائم إلا ثمرة تجاربه الحُكمية في سلطاته الاثنتين، التي تركت أثراً عميقاً في تحديد سير مجريات الحوادث في العهد الثالث لحُكمه، وخاصة في تعامله مع كبار الأمراء، وإمعانه في القبض على أيّ منهم يصل إلى شيء من السلطة الفعلية، وبالتالي العمل على مصادرة ثروته وممتلكاته"⁽²⁾.

وبالفعل كان الأمراء حول الناصر في سلطته الثانية شديدي الحذر في التعامل معه حتّى وصل الحدّ بهم إلى التدخل في طعامه وشرابه، وقد وصف المقرئزي ذلك وتحدّث عنه كثيراً⁽³⁾، ماوّل في نفسه حقداً شديداً، أفرغه بعد عودته الثالثة إلى الحكم، فضجّ الناس من كثرة العزل والتعيين، قال ابن الوردي:

هَذَا أَمُورٌ عَظَامٌ مِنْ بَعْضِهَا الْقَلْبُ ذَائِبٌ

(1) انظر المقرئزي - السلوك، ج 1، ق 3، ص 795، 806، 832.

(2) حياة ناصر الحجّي - السلطان محمد بن قلاوون ونظام الحكم في عهده، ص 20.

(3) انظر المقرئزي - السلوك، ج 1، ق 3، ص 879.

ما حال قُطْرِ يَلِيهِ في كل شهرين نائب

وكان يتردد على المنصب الواحد غير حاكم، وكل يوم يأتي نائب جديد، فتقام له الزينة، فكانت التولية والعزل أمراً سريعاً متتابعاً، صور ابن الوردي ذلك قائلاً⁽¹⁾:

كم ملكٌ جاءَ وكم نائبٌ يا زينة الأسواق حتى متى؟
قد كرروا الزينة حتى اللحاً ما بقيت تلحق أن تتبأ

وصور كتاب العصر الناصر حريصاً على التخلص من كبار أمرائه، لا لشيء إلا لأنه لا يريد أن يترك في دولته من يطمح ببصره إلى السلطة، أو يرد على خاطره مجرد هذا الوهم، وفي مثل هذا الجو المشحون تعدُّ على الإنسان حركاته وسكناته، وتصغي الأذان لكل همسة، حيث كان السلطان لا يكذب في الشرّ خيراً⁽²⁾.

وصور المقرئ السلطان بقوله: "كان مُخادعاً كثير الحيل، لا يقف عند قول، ولا يُوفِّ بعهد، ولا يبرُّ في يمين"⁽³⁾.

ويصوره الأدب كثير الشكِّ والريبة، كثير التَّخِيل، فلو رأى أميراً مع أمير آخر شكَّ في أمرهما، يتحدث الصفدي عن ذلك، مُصوراً شكَّ السلطان، وعدم ثقته بأحد قائلاً: "لا يجسر أحد من الأمراء أن يتكلَّم في الخدمة مع الآخر كلمة واحدة، ولا يلتفت إليه، ولا يذهب أحد إلى بيت الآخر، لا في وليمة، ولا في غيرها، ومن سُمع عنه شيئاً من ذلك أمسكه أو أخرجه في وقت إلى الشام، ولم يكن له نائب، ولا وزير، بل هو المتحدث في كل الأمور، وأفنى خلقاً كثيراً من الأمراء من ممالك والده، ومماليكه الذين أقامهم وأمرهم، تقدير مائتي أمير...، وكان كثير التَّخِيل، ولو تخيل من ولده أهلكه حفظاً للملك، ولم يكذب خيراً، ولا بات إلا على حذر... وكان كثير الخداع، شديد التَّخِيل في مقاصده ولا يقف عند قول ولا يمين"⁽⁴⁾.

(1) ابن الوردي- المختصر في تاريخ البشر، ج 2، ص 347.

(2) انظر عن عزل الأمراء وتوليهم: الشجاعى- تاريخ الملك الناصر، ص 9. ابن حبيب- تذكرة النبىء، ج 2، ص 228. المقرئ- السلوك، ج 2، ق 1، ص 77، 94. ابن تغري بردى- النجوم الزاهرة، ج 2، ص 476. فوزي محمد أمين- المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، ص 28.

(3) المقرئ، المواعظ والاعتبار، ج 2، ص 306.

(4) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 73-103.

وصورَه من كَتَبَ عنه أو أرَّخ أنه شديد الشك والريبة، كثير التخيُّل، أفنى خلقاً كثيراً وكان نتيجة هذا الشك، المبالغة في القتل والتعذيب والتصفية، وهذا ما كشفت عنه أخبار السلطان الذي "وُلِدَ وكَفَاهَ مقبوضتان، ففتحتهما الداية، فسال منهما دم كثير، ثم صار يقبضهما فإذا فتحتها سال منهما دم كثير، فأوَّل ذلك بأنَّه يُسفك على يديه دماء كثيرة، فكان ذلك"⁽¹⁾، تحدَّث الصفدي عن كثرة قتلاه قائلاً: "اختَصَّ عداؤه بالمقت، وخلت له الأرض من المعارض، وضمَّن بعضهم لحود السجون، ووقعوا من سطواته في الحد وكانوا يظنون أنه مجنون"⁽²⁾.

ويُصورُ الصفدي أعمال القتل التي قام بها السلطان في أوَّل سلطته الثالثة بالحصد، دليل على كثرة القتل والبطش، قال فيه: "حصَدَ مَنْ كان حَسَدَه، وأراح قلبه وجسده، وخلَّت له الأرض من المُعارض، وأكلتهم القوارع والقوارض، وضمَّن بعضهم لحود السَّجون، ووقعوا من سطواته في الحد...."⁽³⁾.

ولم يذمَّ حُبُّ السُّلطان لأحد، ولم يسلم أحد من شرِّه، مهما وصلت رتبته، وعَلَّت مكانته، فكم كان نائب الشام مقرباً من السُّلطان، "يجلس رأس الميمنة، ويقوم السُّلطان له تميُّزاً عن غيره، يمشي وحده، ويدخل الحمام وحده، مع مهابة وافرة، وحرمة زائدة ولكنه في النهاية اعتُقل أكثر من مرَّة، ومات في ثغر الإسكندرية مُعتقلاً"⁽⁴⁾.

وقد تحدَّث اليوسفي في نزهة الناظر، عن المكانة الرقيقة التي وصل إليها نائب الشام "تنكز"⁽⁵⁾ حتَّى في خطاب السُّلطان له يدعوه: "أعزَّ أنصار المقرِّ الكريم العالي"، وزاده في الألقاب عن العادة، ولكنه انقلب عليه، وأمرَ بسجنه، ثم أمر بخنقه فمات وغُسل، ولا يُعلم السبب

⁽¹⁾ ابن العماد الحنبلي- شذرات الذهب، ج 6، ص 134.

⁽²⁾ الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 74.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج 4، ص 74.

⁽⁴⁾ انظر اليوسفي- نزهة الناظر، ص 65. ابن حبيب- تذكرة النبیه، ج 2، ص 273-274.

⁽⁵⁾ نائب الشام، يُكنى أبا سعيد، جُلِبَ إلى مصر وهو صغير، أمره الناصر محمد الشام، لم يكتب في شيء إلى السُّلطان ويردّه فيه، يُعظَّم أهل العلم. انظر ابن حجر العسقلاني- الدرر الكامنة، ج 2، ص 55-56.

الذي من أجله تغيّر خاطر السلطان عليه⁽¹⁾، مع العلم أن تنكز هذا عُرف بالطّهارة والعِفّة،
ووصف بخيار نواب الشام، وكان مُحبّاً لأهل دمشق⁽²⁾.

وصور الصفدي العزّ الذي وصل إليه تنكز عند السلطان، حتى شبّهت ليالي الأفراح،
بأيّام عاشها تنكز، يقول⁽³⁾:

ألا هل لليّلات نقضت على الحمى تعود بوعْدٍ للسُرور مُنَجَّرِ
ليالٍ إذا رام المُبالغُ وصفها يشبّوها حسناً بأيّام تنكزِ

ولكن العزّ هذا لم يذم عند السلطان محمد بن قلاوون، الذي أفرع العامة والخاصة يوم
بالغ في شكّه، وأمر بقتل هذا الرّجل، ممّا جعل الصفدي يُصور الدّل والخضوع الذي يعيشه كل
شريف، والهول والفرع الذي أصاب العقول، يقول⁽⁴⁾:

تنكّر يوم تنكز كلُّ عُرف وسام الدّلّ فينا كل سام
ومال إلى المنيّة كلُّ مولى وحام على الرديّة كلّ حام
وأذهل يومه الأبواب حتّى كأنّا فيه صرعى بالمدام
فيا تمزيق شمل العدل فينا ويا تفريق ذاك الانتظام

ويُتابع رثاء تنكز مركزاً على إبراز صورته الحميدة، وأفعاله الحسنة، ليبين أنّه لا
يستحق هذا المصير، يقول⁽⁵⁾:

رعاه الله من راع أمير أنام بعدله عين الأنام
ألا فاذهب سقيت أبا سعيد فقد روى زمانك كلّ ظام
ودمت مُمتعاً بالخلد حتّى يقوم الناس من تحت الرّجام

(1) انظر اليوسفي- نزهة الناظر، ص 63-64. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 322.

(2) انظر ابن إياس- بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 477-481.

(3) ابن حبيب- تذكرة النبيه، ج 2، ص 322. نفسه- المنتقى من درة الأسلاك، ص 168.

(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 322.

(5) المصدر نفسه، ج 2، ص 322.

هذا ما فعله السلطان الناصر محمد بأمرائه ونوابه، "فمنهم من قتله جوعاً وعطشاً، ومنهم من أتلفه بالخنق، ومنهم من غرقه، ومنهم من نفاه، ومنهم من سجنه فأقام مسجوناً العشرين سنة فما دونها"⁽¹⁾.

هذا ما كان من السلطان، فلم يأمن قط لأحد، ولم يسترح ويترك أمراءه وشأنهم، ولم يرغب أن يطول ملك أحدهم، وإذا طال أجله وأمدّه في الحكم، غضب السلطان وثار، وثار شكّه معه، وأخذ في انتهاز الفرص للخلاص منه، وهذا ما شعر به تنكر، الذي تحدّث في سجنه مع قوصون قائلاً: "ذنبى أننى كبرت، وطالت مدّتى، وانتظر وفاتى فلم أمّت، وكل نظرائى من خشداشيتى"⁽²⁾ راحوا، وأنا مملوك السلطان"⁽³⁾.

وحدث مع أمراء آخرين مثلما حدث مع تنكيز، فقد آذاهم السلطان بعد أن انقلب مزاجه عليهم، وكان منهم، بُكْتُمُر الساقى⁽⁴⁾، الذي مات مسموماً هو وابنه أحمد⁽⁵⁾، عندما كانوا في سفر مع السلطان⁽⁶⁾.

أما القاضي كريم الدّين عبد الكريم بن السديد⁽⁷⁾، ناظر الخواص الشريفة، قبض عليه السلطان وعلى ولده، وهو أول من تولّى ناظر الخاص بالديار المصريّة، وقد نال من العزّ والعظمة لم ينله غيره في عصره، فلما تغيّر خاطر السلطان عليه، احتاط على موجوده، ورسم

(1) قاسم عبده قاسم - في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص 276.

(2) خشداش: كانت تطلق في العصر المملوكي على المماليك الذين نشؤوا عند سلطان مملوكي واحد، وتربّوا على رابطة وثيقة فيما بينهم، وهدفهم خدمة سيدهم، وهي كلمة فارسية مركبة من "خوش: جيد" و "داش: أصلها داشت بمعنى التملك". انظر محمد ألتونجي، المعجم الذهبي في الدخيل على العربي، ص 233.

(3) الشجاعى - تاريخ الملك الناصر، ص 90.

(4) الأمير سيف الدين الساقى الناصري، قُرّب إلى السلطان كثيراً، حتى هاداه الناس كما يهادون السلطان، إلى أن عظمت أمواله، واغتاز السلطان منه، وفعلت الوشاة بينهما الفساد، ت736هـ. انظر الصفدي - أعيان العصر، ج 1، ص 709-714. ابن حجر العسقلاني - الدرر الكامنة، ج 2، ص 19.

(5) أحمد بن بكتمر، أحبّه السلطان كثيراً، حتى وصل منزلة رفيعة جداً، حتى عدّه الناس ابناً للسلطان، ت736هـ. انظر الصفدي - أعيان العصر، ج 1، ص 183-184.

(6) انظر اليوسفي - نزهة الناظر، ص 137-145. ابن إياس - بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 434.

(7) عبد الكريم بن هبة الله بن السديد المصري، القاضي كريم الدين الكبير أبو الفضائل، وكيل السلطان، ومدير الدولة، أسلم كهلاً أيام بيبرس الجاشنكير، وكان كاتبه، ت724هـ. انظر ابن حجر - الدرر الكامنة، ج 3، ص 15-16.

بنفيه إلى الشوبك هو وولده، وصادر غلمانه ونساءه وحاشيته، واستصفى أموالهم، ثم نقله إلى أسوان فسُجِنَ بها مُقَيِّدًا بالحديد، حتى شَنَقَ نفسه ومات وهو في السَّجَن....، وكان السلطان قربه حتى إنه سلَّمه مفاتيح بيت المال، يتصرَّف فيها حيثما يختار، ولكنه أصبح مشنوقاً، وكان كما قيل في المعنى:

احذَرِ مُدَاخِلَةَ الْمُلُوكِ وَلَا تَكُنْ ما عَشْتَ بِالتَّقْرِيبِ مِنْهُمْ وَاثْقَا
فَالْغَيْثُ غَوْتُكَ إِنْ ظَمِئْتَ وَرَبِّمَا ترى بوارقه إليك صواعقا⁽¹⁾

وفيه يقول ابن نباتة المصري:

يا كريماً قد وافق الاسم بالفعل أنسى في الفضل كلَّ قديم
لا تخف نبوة الحوادث فالله كريمٌ يُحِبُّ كُلَّ كريم⁽²⁾

ويصور الأدب الظلم الواقع على الأمراء، خاصة إذا كان الأمير ممَّن يطيب ذكرهم، وهذا ما حدث مع طُغاي الناصري⁽³⁾، نائب السلطنة بصفد، الذي كان عزيزاً، رفيع المنزلة، لكن تتكرَّر له مخدومه ووشى عليه للسلطان، وفيه يقول صلاح الصفدي، مُصَوِّراً الفساد الذي عمَّ في تلك الفترة، وكلُّ ذلك بسبب سماح السلطان للنميمة بالانتشار بسماعه لها، وانقياده خلفها، والمعاقبة دون التحري، يقول⁽⁴⁾:

تَشَفَّى مَمَالِيكَ الْمَلِكِ بِحَادِثٍ أَلَمْ يَمَنْ عَنْهُ التَّنَاءُ يَطِيبُ
وَقَالُوا طَغَى فِينَا طُغَايُ وَمَا طَغَى ومن أين للوجه المليح ذُنُوبُ

ولم يسلم الخليفة المستكفي من شرِّ السلطان وانتقامه، "حيث بلغه أنَّ الخليفة الإمام أحمد الحاكم بأمر الله، قال عنه: "هذا خارجي"، فلمَّا حضر الإمام المستكفي للمبايعة، وبَّخه الناصر بالكلام، وقال له: تقول عني بأني خارجي، يا أَسْوَدَ الْوَجْهِ"، فلم ينطق الإمام بأيِّ حرف⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ انظر ابن إياس - بدائع لزهور، ج 1، ق 1، ص 454.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ج 1، ق 1، ص 444-445.

⁽³⁾ الأمير سيف الدين طُغاي الناصري، نائب السلطنة بصفد، جُهِزَ إلى ثغر الإسكندرية سنة 713هـ، وكان آخر العهد به، كان من أعيان خواص السلطان، عزيزاً عنده رفيع المنزلة، لديه حسن الشباب، بديع الجمال. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 56.

⁽⁴⁾ انظر ابن حبيب - تذكرة النبيه، ج 2، ص 56.

⁽⁵⁾ انظر أخبار المستكفي: ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة، ج 3، ص 10. ابن إياس - بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 401. المقرئ - السلوك، ج 1، ق 2، ص 500. الشجاع - تاريخ الملك الناصر، ص 9.

ولم يَنْسَ النّاصر كلام الخليفة عنه أنّه خارجي، وظلّ يتربّص به إلى "أنّ أمرَ بسجنه في قلعة الجبل، متعلّلاً بما بلغه عنه إكثار الشُّرب واللّهو في داره التي عمّرها على النيل، ثمّ أمر بنفيه إلى قوص مع أهله، واستمرّ بها إلى حين وفاته"⁽¹⁾.

ولم يَرْضَ الشعراء عن نفي الخليفة، قال ابن الوردي مصوراً هذا العمل بالظلم، وأظهر رفضه لقرار السلطان، شاداً على يد الخليفة، متأثر بأبي العلاء المعري، يقول⁽²⁾:

أُخْرِجُوكُمْ إِلَى الصَّعِيدِ لِعُذْرٍ غَيْرِ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي
لَا يُغَيِّرُكُمْ الصَّعِيدُ وَكُونُوا فِيهِ مِثْلَ السِّيُوفِ فِي الْأَغْمَادِ

هكذا صوّر الناصرُ محمد، كثير الشكّ والريبة، كثير الظلم والقَتْل، ولا يُؤْمِنُ لَهُ جانب، قد عانى الكثير من ظلمه، إذا وصله خبر عن أحد، أو شكّ فيه مُجَرَّد شكّ سارع إلى قَتْلِهِ أو سجنه، أو تعذيبه، دون أن يتحرّى عن الأمر، وقد عبّر الأدباء عن رفضهم لهذا الظلم، عن طريق شعريهم أو نثريهم.

ثالثاً: حُبّ المال

عُرِفَ عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون حب المال، واكتنازه والاستيلاء على ما في أيدي غيره، ولو كلفه ذلك كثيراً، وهناك الكثير من الأحداث التي تؤكد ذلك، وتُظهر هذه الصّفة فيه.

وما كان الظلم الذي أوقعه النشو في عامة الشعب، وفي التجّار، إلا لنهب أموالهم وإحضارها للسلطان، كي ينال رضاه، وقد ذكر اليوسفي ذلك، وصوّر السلطان مشغولاً بالمال، حتّى مدّ يده إلى مال اليتامى، بعد أن احتال النشو وجمعه⁽³⁾.

⁽¹⁾ اليوسفي - نزهة الناظر، ص 87-88، 362. الشجاعى - تاريخ الملك الناصر، ص 34. المقرئى - السلوك، ج 2، ق 1، ص 74. ابن إياس - بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 474.

⁽²⁾ ابن الوردي - الديوان، ص 283. انظر، ابن حبيب - تذكرة النبى، ج 2، ص 297. المقرئى - السلوك، ج 1، ق 3، ص 500. ابن تغري بردى - النجوم الزاهرة، ج 3، ص 10.

⁽³⁾ انظر اليوسفي - نزهة الناظر، ص 77-78.

ويُصوره متعدّياً على أموال غيره، دون اكتراث، مُعلّلاً ذلك بمصلحة الدولة، تحدّث اليوسفي عن ذلك مُصوِّراً اقتحام عمّال السلطان لحوانيت التجّار، قائلاً:

"بلغ السلطان شكوى المماليك السلطانية من تأخّر كسوتهم، فأوعز للنشو بالنزول ليلاً إلى الأسواق، وفتح باب المتاجر والدّكاكين، ومصادرة محتوياتها، وخاصة تلك التي تتبع الملبوسات، وما تحتاجه المماليك السلطانية من كساء ومؤونة، دون أن يكثر لردّة فعل النّاس"⁽¹⁾.

وحَتّى عندما قصد السلطان الكرك، تاركاً السلطنة في مصر، "استولى على ما كان في الكرك من المال، وهو ستمائة ألف درهم فضّة، وعشرون ألف دينار، وقيل بل وجَد سبعة وعشرين ألف دينار، وسبعمائة ألف درهم"⁽²⁾.

كما باشر السلطان بعد عودته الثالثة، باستقصاء أموال الأمراء وجمّعها، والاستيلاء على ما عندهم من إقطاعات وأموال، ونفائس، وممالك، فكان إضافة إلى القبض عليهم وسجنهم أو قتلهم، يستولي على ممتلكاتهم، وأموالهم وكانت أموالاً كثيرة⁽³⁾.

وإذا أصدر أمراً، وأغري بعدها بالمال، ألغى الأمر مقابل الحصول على الأموال، لذلك استفحل الفساد والرّشوة، والبرطيل في عهده كثيراً، "فعندما أمر والي دمشق بشنق رجل، بعدما عمل خداعاً كثيراً، صاح الرجل قائلاً: أنا جيت للسلطان حتى أملاً خزائنه ذهباً وفضة، فأرسلوه إلى السلطان، وأخذ يعمل سبيكة كبيرة زنتها ألف مثقال، وأعجب السلطان بذلك إعجاباً كبيراً، وسرّ سروراً زائداً، وأنعم على هذا الرجل، وبالغ في إكرامه، ثم سبك له سبيكة ثانية، فكاد يطير فرحاً به"⁽⁴⁾.

وصور الأدب الناصر مُحمّداً، مُحبّاً للهدايا، شغوفاً بها، يفرح كثيراً لتلقّيها، ويعبر عن فرحه برسائله الشاكرة، لمن يُرسل له تلك الهدايا الثمينة، جاء في أحد رسائله، واصفاً رُسلًا

(1) اليوسفي - نزهة الناظر، ص 79.

(2) المقرئ - السلوك، ج 2، ق 1، ص 44.

(3) انظر المصدر نفسه، ج 2، ق 1، ص 81-87.

(4) المصدر نفسه، ج 2، ق 2، ص 344.

مكتوا بين يديه، ومعهم من الهدايا ما لا يوصف شاكرًا مَنْ أرسلهم: "وعرضوا بين أيدينا، ما أصحبتهم من الطُرف والهدايا، التي لا تحملها ظُهورُ البحار فكيف ظُهور المطايا، عن عقود منظمة، وبرود مُسَهَّمة....، وراءها البغال التي تحمل الأثقال، ولا تنزلُ في الأحوال بحال، وعليها الزناريات الموشَّعة وحليها الجلال الملمَّعة..."⁽¹⁾.

ويُصورُ ابن بطوطة، الذي زار مصر في عهد الناصر، ووصف مدائنها وقراها أملاك الناصر محمد، بقوله في مدينة عيذاب: "ثلث المدينة للملك الناصر"⁽²⁾.

وقد صوّر الأدب كثيرًا، أعمال الظلم التي كانت تتمّ على يد "النشو" محصّل الأموال للسلطان، ومالئ خزائنه، فلم يفلت من ظلمه إنسان، لا تاجر، ولا بائع، ولا عامي، ولا أمير، وظلّ على ذلك إلى أن كُشف أمره، وقُبِض عليه⁽³⁾، وهو واحد من كبار أعوان السلطان الذين أرضوا رغبته العارمة في جمع الأموال، واكتنازها، وكل ذلك على حساب الرعيّة، وقد تحدّث البحث عن ذلك سابقًا⁽⁴⁾.

هكذا كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون، مُحبًّا ومغرماً بالمال، مشتغلًا في جمعه مع معاونيه، عاملاً على كنز تلك الأموال وتكديسها، دون مبالاة لوضع الشعب، ولم يقف الأدب جانباً، بل تابع أعمال السلطان ووصفها، وصوّر شخصيته أوضح تصوير.

رابعاً: السلطان والمرأة

يُصورُ الأدب السلطان الناصر محمدًا مُحبًّا للتملك، متطلِّعاً إلى ما في يد غيره، وبخاصّة النساء، "ففي سنة سبعمئة تزوّج السلطان بخوند أردكين بنت نوكاي، امرأة أخيه الملك الأشرف، بعد وفاته وعُمِلَ له مهم⁽⁵⁾ عظيم، أنعم فيه على سائر أهل الدولة بالخلع وغيرها"⁽⁶⁾.

(1) الفلقشندي- صبح الأعشى، ج 7، ص 419-421.

(2) ابن بطوطة- الرحلة، ص 69.

(3) انظر ابن حبيب- تذكرة النبيه، ج 2، ص 221. الشجاعي- تاريخ الملك الناصر، ص 73-74. ابن الجزري- تاريخ

ابن الجزري، ج 2، ص 525. ابن تغري بردي- النجوم الزاهرة، ج 9، ص 100. المقرئ- المقفى الكبير، ج 5، ص 14.

(4) انظر أخبار ظلم النشو صفحة من هذا البحث.

(5) المهم والمهمات: تدل على معنى الحفلات والولائم في المناسبات كالزواج، والختان ونحوهما. انظر زين العابدين

شمس الدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص 516.

(6) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 917. نفسه، المواعظ والاعتبار، ج 2، ص 63.

وعندما يتزوج أمير بفتاة جميلة، نظر إليها السلطان، وحدث نفسه بها، فعندما تزوج "أحمد" ولد بكتمر الساقى، بابنة الأمير سيف الدين تنكز، نائب السلطان، "ودخل بها، فكان السلطان يدخل إليهم، ومعه نحو ألف دينار، وطلبها بين يديه، وأعطاهما الذهب، ووقع نظره عليها، ومالت نفسه لها، ولما نظرها أول يوم، رأى طولها، ولم يرَ بقيّة وجهها، فصار يدخل إليها، ويقول: "يا أمّ أحمد، هاتي زوجة أحمد، فتحضرها إليه، فينظر إليها، ويجلسها إلى جانبه، ويبقى ينظر إليها، يتملقها، واستمرّ في ذلك الحال، وزوجة بكتمر قد علمت منه أنها وقعت في خاطره، إلى أن قال لها يوم: "يا أمّ أحمد، والله لو علمت، أنّ بنت تنكز، لها هذا القدر، وهذا العنق، وسواد هذه العيون، ما كان يزوّجها أحد غيري، وأنا أطلب مثل هذه الصفة، وأفتش كثيراً⁽¹⁾ ما يقع لي شيء"، فتحيّرت زوجة بكتمر، وأسرت لزوجها ما رآته وعلمته، وقالت له: "يا أمير ما يخرّب بيتي أحد غير هذه البنت، فيا ليتنا ما كنّا عرفناها، وكان بكتمر يُغالطها، مع علمه عن السلطان، أنه إذا وقع في نفسه شيء، لا بُدّ منه"⁽²⁾، فكان بعد ذلك ما كان، من قتله لبكتمر وابنه أحمد.

وصورّ اليوسفي شغف السلطان بالمرأة، قائلاً: "وكان له (أي السلطان) شغف كبير، في أنّه إذا رأى امرأة سمراء، ولها عيون سود، وفيها طول، شغف بها، ومالت نفسه إليها"⁽³⁾.

حتّى إنّهُ طلب من النشو "أن يُحصّل له الجوّاري المولّدات، من أي جهة كانت، فصادر له النشو، البنات الأبكار، والجوّاري الحسان، حتّى النساء المنهالة"⁽⁴⁾⁽⁵⁾ إرضاءً لرغبته، حتّى عَظُم ظلمه، وانتمى إليه عدّة من الأشرار، "دلّوه على من عنده شيء من الجوّاري المولّدات، لشغف السلطان بهن"⁽⁶⁾.

(1) هكذا في الأصل والصحيح "كثيراً".

(2) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 153. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 193.

(3) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 77.

(4) المنهال: الكثير الإنهال لدوابه، والرجل يبلغ الغاية في السخاء، والقبر، الجمع مناهيل. انظر المعجم الوسيط، مادة نهل.

(5) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 99.

(6) المقرئ - السلوك، ج 2، ق 2، ص 357.

وكما كان السلطان، كان بعض أمرائه لهم شغف في النساء، وتطلّع لما في أيدي غيرهم، وكان السلطان يساعدهم ويَعدهم بنيل ما يريدون، فهذا الأمير بشتاك⁽¹⁾ الناصري يتطلع إلى زوجة بكتمر، وما هي عليه من الجمال الفائق، والملاحة والسعادة والحشمة، وبقي يترصد النظر إليها إلى أن رآها وهي متزيّنة ورأى حُسن قَدّها، فوقعَت في نفسه بمحل عظيم، إلى أن عرفَ السلطان بذلك وأنه في قلق عظيم بسببها، فشرع السلطان يصبرّه ويوعده، ويقول له: "طوّل روحك، بقي قريب وحياتك، وهي وماله الجميع لك"، وبالفعل ظلّ السلطان على عهده، فأَنعم على بشتاك بإقطاع بكتمر، وجميع حواصله ومغلّة، ثم زوّجه زوجته بعد وفاته⁽²⁾، وهذا العمل لا يجوز أن يكون من عمل سلطان المسلمين، وكلّهُ الله أمورهَم، وجعلهم أمانة بين يديه.

وقد عاقب الله السلطان، وأذاقه مرارة الشكّ، "عندما وصلت إليه الأخبار، عن الأمير بشتاك أنّه ارتكب الفواحش، وأنّه اتصل بالخاتون طُغاي⁽³⁾، وأشيع ذلك بالمدينة عند الناس، حتى بلغ الحديث طُغاي، فتوجّعت وحلفت أيماناً مغلّظة، بكذب هذا الخبر⁽⁴⁾.

وكان السلطان قد طلب الزواج من بنات ملوك القان⁽⁵⁾ إلى طلبه، وعلم القان ان السلطان لم يحترم المرأة التي أرسلها إليه فغضب وأرسل يريدّها، ولما سمع السلطان ذلك، أسرع بالإجابة، وقال: "كلّ ما بلغ لأخي أزيك من هذا الكلام كذب، وأنا ما فرطت في الذي سيّره إليّ، وإنما أمر الله تعالى ما يمكن أن يقدّر السلطان ولا غيره يرُدّه، وهذه المرأة سيّرها أخي ودخلتُ بها، وأقامت معي سنة، وضَعَفَت وتوفّيت إلى رحمة الله تعالى"، وقد كذب السلطان في ذلك⁽⁶⁾.

(1) بشتاك الناصري، الأمير سيف الدين، أصله من بلاد أزيك، وكان من أكابر الأمراء في دولة الناصر محمد، عمّر جامعاً وقصراً بالقاهرة، توفي مقتولاً سنة 742هـ. انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 130.

(2) انظر المقرئزي- **السلوك**، ج 2، ق 2، ص 357.

(3) الخوندة الكبرى، زوج السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأم ابنه آتوك كانت جاريته أولاً، ثم أعتقها وتزوَّجها. انظر الصفدي- **أعيان العصر**، ج 2، ص 599-600.

(4) انظر علم الدين الشجاع- **تاريخ الملك الناصر**، ص 65.

(5) أزيك بن طقطاي، القان بن القان، صاحب بلاد أزيك. انظر الصفدي- **أعيان العصر**، ج 1، ص 481.

(6) انظر اليوسفي- **نزهة الناظر**، ص 235-236. المقرئزي- **المواعظ والاعتبار**، ص 66-67. نفسه- **السلوك**، ج 2،

ق 1، ص 177. الشجاع- **تاريخ الملك الناصر**، ص 59.

وصور الأدب الناصر محمداً محترماً ومُقَدِّراً زوجاته وبناته، فهاهو يكتب بكلمات التعظيم والاحترام لزوجته طُغاي المعروفة بأُمَّ آنوك لما توجهت إلى الحجاز، كتب: "ضاعف الله تعالى جلال الجهة الشريفة العالية، المعظمة المحببة، المصونة الكبرى، خوند خاتون، جلال النساء في العالمين، سيّدة الخواتين، قرينة الملوك والسلاطين.... ثم دعا لها"⁽¹⁾.

وعند عودتها من الحجّ، همّ لاستقبالها، وأدخلها القاهرة في موكب عظيم، ذكر ذلك ابن إياس قائلاً: "حجّت، ورجعت إلى القاهرة في عاشر المحرمّ، فلما وصلت إلى بركة الحاج، نزل إليها السلطان، وتلقّاها، ودخلت في موكب عظيم والأمراء مُشاة قُدّام محفّتها"⁽²⁾، حتّى طلعت إلى القلعة"⁽³⁾.

واحترم بناته، وكتب إليهنّ عند سفرهن، بكلمات التعظيم والتشريف والدعاء لهن، ومما كُتِبَ إلى ابنته لما كانت بحلب مع زوجها: "الذي يحيط به علم الحرمة الشريفة، العالية، المصونة، الولدية عصمة الدين، جلال النساء، شرف الخواتين، سليلة الملوك والسلاطين، ضاعف الله أجرها"⁽⁴⁾.

ولم يكن يُزوِّج بناته لأيّ كان، بل كان يُفكّر كثيراً قبل ذلك، فعندما "وصل رسل بلاد أربك، حاملين رسالة للسلطان، مضمونها: أنّهم يطلبون من بنات السلطان، يُفخر بها، وتتأكّد الأخوة والصداقة، فعلم السلطان مقصودهم، وأنهم يفعلوا كما فعل السلطان بهم، وبعد أيّام طلبهم وأخلع عليهم، وكتب الجواب، "إنّ البنات اللاتي لي صغار وأكبرهن عُمرها ست سنوات، وعند استحقاق زواجهن، أُجهّزها، وأرسلها إن شاء الله"⁽⁵⁾.

(1) القلقشندي - صبح الأعشى، ج 7، ص 182.

(2) المحفة: هودج لا قبة له، تركب فيه المرأة، الجمع محاف. انظر المعجم الوسيط، باب الحاء، ص 185.

(3) ابن إياس - بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 452.

(4) القلقشندي - صبح الأعشى، ج 7، ص 182.

(5) الشجاعى - تاريخ الملك الناصر، ص 59.

وكان الناصر حريصاً، على متابعة شؤون نسائه وبيوته، فجعل أمورهنّ بيد الستّ حدّق القهرمانيّة الناصريّة⁽¹⁾، وكان يستشيرها في كل أمر من أمور نسائه، ويصدّق حديثها ويأخذ برأيها⁽²⁾.

هكذا أحبّ السلطان المرأة الجميلة الحسنة، وطَمَعَ في الحصول على عدد كبير من الجوّاري، حصلها له مُساعدُوه وأُعوّانه، وظلّ احترامه وتقديره لأزواجه وبناته كبيراً، يكتب إليهنّ في سفرهنّ، ويجهّزهنّ ويؤدّي واجب زواجهنّ، ومع احترامه لهنّ، جعل أمورهنّ بيد سيّدة قويّة حكيمة، تُعرّفه بأمورهنّ وأسرارهنّ ويصدّقها فيما تقول.

(¹) امرأة جعل الناصر إليها أمور نسائه، فتحكّمت في داره تحكّماً عظيماً، حتى صارت لا يُقال لها إلى الستّ حدّق، وحجّت مرّة فضرب المثل بما فعلته من الخيرات، وعمّرت جامعاً ظاهر القاهرة. انظر الدرر الكامنة، ج 2، ص 87-88.

(²) انظر الشجاعى - تاريخ الملك الناصر، ص 68-69.

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

أولاً: بنية العمل الأدبي

ثانياً: اللغة الشعرية

ثالثاً: الأساليب:

رابعاً: الفنون البديعية

خامساً: الصورة الفنية

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

أولاً: بنية العمل الأدبي

اهتمَّ أدباء العصر المملوكي الأول بأدبهم، شعره ونثره، وجعلوه مادتهم الأولى لقضاء حوائجهم عند ذوي النفوذ، فما كان اهتمام كتّاب الإنشاء، بإضفاء صور فنية كثيرة على أدبهم، ووضع قوانين وشروط لبناء العمل الأدبي، إلا رغبةً منهم في إرضاء السلطان، وإظهار قدرتهم البلاغية، كي يستمروا في عملهم، وما كان شعرُ الشعراء، إلا طريقاً للإفصاح والإبانة، عمّا يدور في أذهانهم بطريقة سلسلة مقبولة، تستريح لها الأذهان، وتتقبلها الأسماع.

وتكلم القلقشندي عن دور الأديب، وواجبه في معرفة أصول المُكاتبات الديوانية في العصر المملوكي، وإلمامه بمختلف القضايا التي ترتبط بها، ثم بعدها يكون الكاتب مُستعدّاً لمباشرة الكتابة، صائباً همّةً على حُسْن التقديم للموضوع⁽¹⁾، وأكد غير أديب أهمية إدراك الكاتب كيفية افتتاح وختام العمل الأدبي.

وبصورة عامّة، فإن العمل الأدبي في النقد القديم يُقسم إلى: المقدمة، وحُسن التخلُّص، ثمّ الخاتمة.

حسن الإبتداء

درسه غيرُ ناقدٍ ووضعه تحت تسميات مختلفة، فهذا ابن رشيق يطلق عليه تسميات (الابتداء، والاستهلال والافتتاح)⁽²⁾، وهذا ابن أبي الإصبع يدرسه تحت اسم حسن الإبتداءات،

(1) انظر القلقشندي، صُبْحُ الأعشى، ج 6، ص 180-188.

(2) انظر ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق، القيرواني، الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة، الجزء الأول، ص 217.

ويذكر أن المتأخرين فرَّعوا منه براعة الإستهلال⁽¹⁾، وعرفَ العلوي الاستهلال بقوله: "ما تكونُ البداية به من الكلام، مُشعراً بالغرض المقصود"⁽²⁾.

وعدَّ النُّقاد براعة الاستهلال وحُسْنه، جزءاً لا يتجزأ من تميُّز العمل الأدبي كُلِّه، فهي أول ما يقع على الأسماع، فإن أثَّرت لفتت نظر السامع، أو شدَّت ذهنَ القارئ، وإن نفَّرت نفَّرت الأسماع والأذهان، وأعرَضَ السامع عنه ورفضه، وإن كان في غاية الحسن⁽³⁾.

ويرى ابن رشيق، أن حسن الافتتاح يشرحُ صدرَ القارئ أو السامع ويجعله يستقبل العمل بلهفةٍ واشتياق، وبالتالي يؤدي إلى نجاح العمل الأدبي⁽⁴⁾.

ويربط ابن الأثير بين مطلع الكلام من الشعر أو النثر والمعنى المقصود من ذلك الكلام، يقول في المبادئ والافتتاحات: "وحقيقة هذا النوع: أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من ذلك الكلام، إن كان فتحاً ففتحاً، وإن كان هناءً فهناءً، أو كان عزاءً فعزاءً، وكذلك يجري الحكم، في غير ذلك من المعاني"⁽⁵⁾.

ويجعل "حازم القرطاجي" مطلع الكلام زينةً له، فهي من أحسن الأمور في صناعة الشعر، إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها، المتنزلة من القصيدة منزلة الغرّة من الوجه⁽⁶⁾.

إنَّ درسَ الأدب المعبر عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، يلمس اعتناء الأدباء بعملهم الأدبي، مع تنوُّع في المطالع اعتماداً على الغرض من القصيدة أو المكاتبة، وعلى كونها

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص 168.

(2) العلوي، يحيى بن حمزة العلوي، الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز، تحقيق الدكتور بن عيسى بالماهر، جامعة الشارقة، دار المدار الإسلامي، ط 1، 2007م، ص 430.

(3) انظر القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن قاضي القضاة، سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبدیع، مختصر تلخيص المفتاح، مكتبة النهضة، ص 241.

(4) انظر ابن رشيق، العمدة، ج 1، ص 217.

(5) ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم، المعروف بابن الأثير، الموصلي، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الجزء الثاني، ص 236.

(6) انظر عبدة عبد العزيز قلقيلة، النقد الأدبي في العصر المملوكي، ص 395.

ابتداءً أو ردّاً، وقد كانت معظم رسائل الردود تُبنى على الرسائل الواردة إلى السلطنة في افتتاحها ومادتها وخواتيمها...⁽¹⁾.

ويُعدُّ كتاب السلطان الناصر محمد بن قلاوون، الذي صَدَرَ عن ديوان الإنشاء ردّاً على كتاب إيلخان غازان، أوضح مثال على ذلك، حيث يفتتح غازان كتابه بالبسملة قائلاً: "بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى، وميامين الملة المحمّدية، فرمان السلطان محمود غازان...."⁽²⁾، ويُعدُّ هذا الاستهلال مناسباً للغرض من المكاتبة، حيث تُشعر بأهمية الحديث، وهول الحادثة.

ويردُّ عليه الناصر مفتتحاً كتابه بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى، وميامين الملة المحمّدية...."⁽³⁾.

ومن المطالع ما يهزُّ الأسماع ويطرّقها، فيجعلها تصغي، لشعورها بأهمية الحديث، وليس أعظم وقعاً على الأسماع من التكبير الذي يرفعه الشاعر جمال الدين أبو بكر بصوته، مُعبِّراً عن فرحته بنصر المسلمين في معركة مرج الصّفر، حامداً الله عز وجلّ، جاعلاً التكبير أول ما يطرّق أسماع المتلقين، ثم التحميد الذي يجعل القارئ أكثر هدوءاً واستعداداً لسماع ما يليه يقول⁽⁴⁾:

الله أكبر: جاء النّصرُ والظّفَرُ والحمدُ لله، هذا كُنْتُ أُنْتَظِرُ

ولعل هذا المطلع مختص بأدب الجهاد، حيث الموقف يستحق التكبير والحمد، فهو نصرٌ طال انتظاره، ومثله مطلع قصيدة محمد المنبجي، واصفاً شجاعة السلطان وجيوشه. مصوراً النصر من أول بيت، بل من أول كلمة "قضت" أي أنهت وهزمت، يقول⁽⁵⁾:

قَضَتْ ظَبَاكَ عَلَى أَعَادِكَ الظّفَرُ والحُكْمُ فِي الْمُلْكِ لِلْهِنْدِيَّةِ التَّتَرُ

⁽¹⁾ انظر ذكريات موسى الحمامرة، صدى الغزو المغولي في النثر الفني العربي من القرن السابع الهجري حتى أوائل القرن التاسع الهجري، رسالة جامعية، الجامعة الأردنية، عمان، 1996م، ص 100.

⁽²⁾ المقرّبي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1016.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1018. القلقشندي، صبح الأعشى، ج 7، ص 265.

⁽⁴⁾ الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 93.

⁽⁵⁾ انظر حياة ناصر الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك، ص 201-202.

فَطْلُ بَهْمَتِكَ الْعَلِيَاءِ مُفْتَخِرًا فَبَاعُ هِمَّةٍ مِنْ عَادَاكَ ذُو قِصَرٍ

ومن مطالع قصائد المدح، قول صفي الدين الحلّي قال⁽¹⁾:

بِكَ مِنْ حَادِثِ الزَّمَانِ نَعُودُ وَبِأَبْوَابِكَ الشَّرَافِ نَلُودُ
يَا مُلِكَا لِلْمَالِ مِنْهُ نَفَادُ وَلِأَرَائِهِ الشَّرَافِ نَفُودُ

إذن تختلف مطالع الأدب حسب الموضوع الذي يطرقه الأديب، فهذا ابن الوردي، يكتب شاكيًا حال الأديب المتقف في عصر السلطان الناصر، فيجعل مطلع قصيدته مشعرًا بالغضب والاحتجاج من أول كلمة، يقول⁽²⁾:

لَا تَحْرِصَنَّ عَلَى فَضْلٍ وَلَا أَدَبٍ فَقَدْ يَضُرُّ الْفَتَى عِلْمٌ وَتَحْقِيقُ

فهو يرفض العلم بقلب حزين، لأنه يرى أصحاب العلم قد طالهم ظلم كثير.

وتختلف مطالع الرثاء عن غيرها، لما لموقف الفاجعة من خصوصية مختلفة، فهذا مطلع قصيدة رثاء ابن تيمية كتبها محمود بن الأثير الحلبي⁽³⁾، وجعل مطلعها بكاءً من الكلمة الأولى، مشعرًا بغرض القصيدة، يقول⁽⁴⁾:

يَا دُمُوعِي سِحِّي كَسَحْبِ الْغَمَامِ هَاطَلَاتٍ عَلَى الْخُدُودِ سِجَامِ

وما أجمل قول صفي الدين الحلّي، فهو يبكي ويُبكي من أول كلمة، مع تبجيل الحدث، وتعظيم المرثى، يدخل مباشرة في رثائه دون تقديم، ويجعل مطلعها بكاءً ليصف حاله بعد فقد هذا السلطان، قائلاً⁽⁵⁾:

عُيُونُ لَهَا مَرَأَى الْأَحْبَةِ إِثْمِدُ عَجِيبٌ لَهَا فِي عُمْرِهَا كَيْفَ تَرْمِدُ
وَعَيْنٌ خَلَّتْ مِنْ نُورٍ وَجْهَ حَبِيبِهَا عَجِبْتُ لَهَا، مِنْ بَعْدِهِ، كَيْفَ تَرْقُدُ

(1) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 541.

(2) ابن الوردي، الديوان، ص 278.

(3) لم أجد ترجمة له، وذكر الكرمي: نظمها رجل اسمه جمال الدين محمود. انظر الكرمي، الكواكب الدرية، ص 196.

(4) الكرمي، الكواكب الدرية، ص 196.

(5) المصدر نفسه، ص 341.

هكذا كانت مطالع الأدب متنوعة، وذلك لتتبع موضوع الأدب، من أدب جهاد إلى رثاء ليكون المطلع مناسباً للموضوع مشعراً به.

ومن الأدب ما ابتداءً بالنداء، مُشعراً القارئَ بهَوْلِ الحدث، وجزالة الموضوع، وتجعله متشوقاً لمتابعة القراءة، فهذا شمس الدين بن سودة يتوجه بالنداء للسلطان الناصر محمد بن قلاوون مُهنئاً إياه بعودته إلى الملك، يقول⁽¹⁾:

أَيَا مَلِكًا جَاءَ بِالْمُعْجَزَاتِ وَأَيَّدَ عَنْهُ اضْطِرَابَ الْأُمُورِ

وتتوَّع عرض العمل الأدبي، حسب الموضوع فمن الأدباء من آثر التقديم لموضوعه بالتحميد، مع ربطه بموضوع المُكاتبة أو الشعر، خاصةً إذا كان نصراً، طالَ حمدُ الله تعالى وشُكره على هذا النصر وهذه النعمة، وأوضحُ مثالٍ على ذلك، ما كتبه علاء الدين علي بن عبد الظاهر في رسالته "الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر"، يقول: "الحمدُ لله الذي أَيْدَ الدين المحمَّديَّ بناصره، وحَمَى حماه بمن مضى هو وسلفه، بأداءِ فرض الجهاد في أوَّل الزمان وآخره..."⁽²⁾، وهذا ما تحدث عنه القلقشندي في حسن الافتتاح في المكاتبات فيكون الحسن راجعاً إلى المبتدأ به، مثل الافتتاح بالحمد أو السلام⁽³⁾.

ويحرصُ كُتَّابُ مراسيم السلطان الناصر محمد بن قلاوون، على الابتداء بالتحميد المرتبط بموضوع المرسوم، ارتباطاً وثيقاً، فهذا مرسوم السلطان محمد بن قلاوون، في عقيدة ابن تيمية، يبدأ بحمد الله، عزَّ وجل، الذي أَلْهَمَ السلطان العمل بما يرضيه فكان مطلعُه: "الحمدُ لله الذي تنزَّه عن الشبيه والنظير، وتعالى عن المثل، نحمده على أن أَلْهَمَنَا العمل بالسنة والكتاب، ورفع في أيامنا أسباب الشكِّ والارتياب...."⁽⁴⁾.

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 190.

(2) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1027.

(3) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 6، ص 274.

(4) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 139.

وما جاء أيضاً في مرسوم السلطان بشأن أهل الذمة، حيث تأتي المقدمة ملائمة للموضوع، فالسلطان يحمد الله تعالى الذي جعل الإسلام أعلى مرتبة من غيره وأكثر سلطاناً عليهم: "يقول الحمد لله مظهر هذا الدين المحمدي على كل دين، ومؤيد بنا الإسلام وأهله...."⁽¹⁾، وما جاء في مرسومه إلى العاملين في سلطنته، كان مطلعته بعد البسملة: "الحمد لله الذي بسط أيدينا الشريفة بالجد، وأطاب مناهلنا لكافة الأمم لتنتابها في الصدور والورود"⁽²⁾.

"وجرت عادة الخلفاء في مكاتباتهم للعهد إلى سلاطين الممالك أن تبدأ بالخطبة، التي قد تكثر فيها التحميدات، وكلما كثرت كان أفضل، لأنها تدلّ على عظم قدر النعمة، ثم يذكر بعد ذلك حميد أوصاف المعهود إليه، ويُطَنب فيها"⁽³⁾.

وأوضح مثال على ذلك، ما كتبه القاضي شمس الدين بن القيسراني كتاب عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون، عن الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الربيع سليمان، جاء فيه، بعد ذكر المرسل والمرسل إليه، إطناب بالتحميد، حتى وصلت إلى سبع تحميدات⁽⁴⁾، توزعت هذه التحميدات على الكتاب، من بدايته إلى نهايته، وكانت بالفعل خطبة اشتملت كل فقرة من فقراتها على التحميد، منها: " الحمد لله الذي أقام ناصر الإسلام وأهله بخير ناصر"⁽⁵⁾، " الحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين من سلالة عمّ نبيه العباس"⁽⁶⁾، " يحمدّه أمير المؤمنين حمد من اختاره من السماء فاستخلفه في الأرض"⁽⁷⁾، يلاحظ من هذه التحميدات التدرج والتسلسل المنطقي المقنع الذي ينم عن قدرة فائقة لدى الكاتب في التعبير وتقديم المعنى، فهو يتحدث عن أمر مهم وهو تولية شؤون الأمة للسلطان والعهد له بالتصرف في البلاد والعباد، فكان لا بدّ من تذكيره أن

(1) المقرئ، السلوك، ج 2، ق 3، ص 960.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 7، ص 249.

(3) الططاري، جلال يوسف حسن، النشر الفني في العصر المملوكي الأول، ص 75.

(4) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 10، ص 59-65.

(5) المصدر نفسه، ج 10، ص 59.

(6) المصدر نفسه، ج 10، ص 60.

(7) المصدر نفسه، ج 10، ص 61.

الجميع يرضخون لقدرة واحدة قادرة على الإقامة والعزل، وهي قدرة الله تعالى الذي وجبت مراقبته وخشيته.

هكذا جاءت مقدّمات الأدب في العصر المملوكي، حيث أهتمّ الأدباء بالتقديم لأدبهم، وجعلوه ملائماً للموضوع مناسباً للحدث جميعاً، يطرُق الأسماع، ويلفت انتباه القارئ أو السّامع.

واهتم النقاد بالمقدمة، وتحدثوا عنها كثيراً، محلّلين دارسين مؤكدين على الكاتب الاهتمام بمقدمة أدبه، وذكروا عادة الشعراء المتقدمين التقديم لأدبهم بالغزل أو البكاء على الأطلال، ولاحظ الأدباء الاختلاف والتنوع في مقدمات العمل الأدبي في العصر المملوكي، فظهرت مصطلحات دينية كثيرة، ولعلّ التقديم للموضوع بهذه المصطلحات لم يأت من فراغ، فقد أثّرت ظروف الحياة السياسية والاجتماعية في ذلك العصر، على الأدب فجعلت الأدباء يعتزلون الافتتاح بالمقدمات الشكلية الغزلية، وآثروا الابتداء بالمصطلحات الدينية تقريباً إلى الله تعالى، وأمثلاً في رفع الضرر عن المسلمين، واستخدموا الألفاظ القوية الجزلة الملائمة لموضوع الأدب، الذي كان معظمه أدب حروب ونزاعات ورسائل تهديد ووعيد، أو رسائل حثّ على الجهاد، كما جاء في رسالة الشيخ ابن تيمية إلى السلطان في شأن التتار، يستهلّها بآيات من القرآن الكريم، إذ قال: "بسم الله الرحمن الرحيم (هو الذي أرسلَ رَسولَهُ بالهُدَى ودين الحقّ، ليُظهِرَهُ على الدّين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)"⁽¹⁾⁽²⁾، مما يضيفي جمالاً على النص، ويجعل للموضوع هيبةً ووقاراً.

وقد عاب ابن الأثير الابتداء بالغزل، إذا كان الموضوع قصيدة في حادثة من الحوادث، يقول: "أما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث، كفتح مُققل أو هزيمة جيش أو غير ذلك، فإنّه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل، وإن فعل ذلك دلّ على ضعف قريحة الشاعر، وقصوره عن الغاية، أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه"⁽³⁾.

(¹) التوبة: 33.

(²) رسائل ابن تيمية، 9.

(³) ابن الأثير، المثل السائر، ص 2، ص 236.

وهذا ما التزم به كتاب العصر المملوكي، فلم يجد الباحث في أدبهم مقدمة مخالفة لموضوع المكاتبة أو الشعر.

ففي شعر المدح، عند صفي الدين الحلّي، أثر الابتداء بالغزل، وكان غزله لطيفاً، استغرق في بعض القصائد أكثر من عشرة أبيات⁽¹⁾، قبل الدخول بموضوع المدح، وعرض صفات السلطان، وتتوّع غزل الشاعر، فتارةً يتغزل بالنساء البيض، ذوات الشعور قائلاً⁽²⁾:

أَسْبَلَنْ مِنْ فَوْقِ النُّهُودِ ذَوَائِباً فَجَعَلَنْ حَبَّاتِ الْقُلُوبِ ذَوَائِباً
وَجَلَوَنْ مِنْ صُبْحِ الْوُجُوهِ أَشِعَّةً غَادَرَنْ فَوْدَ اللَّيْلِ مِنْهَا شَائِباً

ويستمر في غزله بتصوير جمال من يتغزل بهنّ من النساء اللواتي يستحقنّ غزله يقول⁽³⁾:

وَمُعَرِّبِ اللَّحَظَاتِ يَنْتِي عِطْفَهُ فَيَخَالُ مِنْ مَرَحِ الشَّبَّابَةِ شَارِباً
حُلُوِ التَّعْتَبِ وَالِدَّلَالِ يَرُوغُهُ عَتَبِي، وَلَسْتُ أَرَاهُ إِلَّا عَاتِباً

وتارةً أخرى ينظم قصيدة مدح، فيقدّم لها بوصف الطبيعة، ويتغزل بالربيع، ووصف جماله، قبل الدخول في موضوعه الرئيس، الذي كان مدحاً للناصر، وعرض صفات الشجاعة والكرم لديه، يقول وقد قدّم لموضوعه بأبيات بلغت ثلاثة عشر بيتاً⁽⁴⁾:

خَلَعَ الرَّبِيعُ عَلَى غُصُونِ الْبَانِ حُلَلاً، فَوَاضِلُهَا عَلَى الْكُثْبَانِ
وَنَمَتْ فُرُوعُ الدَّوْحِ حَتَّى صَافَحَتْ كَفَلَ الْكَثِيبِ ذَوَائِبُ الْأَغْصَانِ
وَتَنَوَّجَتْ هَامُ الْغُصُونِ وَضَرَجَتْ خَدَّ الرِّيَاضِ شَقَائِقُ النُّعْمَانِ
وَتَنَوَّعَتْ بُسْطُ الرِّيَاضِ فَزَهَرُهَا مُتَبَايِنِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ

ويتابع الشاعر وصف الأغصان والأشجار والزرع، حتى جعل الشمس تنظر إليها بغيرة، يقول⁽⁵⁾:

(1) انظر ابن الأثير، المثل السائر، ص 95.

(2) المصدر نفسه، ص 95.

(3) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 95.

(4) المصدر نفسه، ص 99.

(5) المصدر نفسه، ص 99.

وَكأَنَّمَا الْأَغْصَانُ سَوْقُ رَوَاقِصٍ قَدْ قُيِّدَتْ بِسِلَاسِلِ الرِّيحَانِ
وَالشَّمْسُ تَنْظُرُ مِنْ خِلَالِ فُرُوعِهَا نَحْوَ الْحَدَائِقِ نَظْرَةَ الْغِيرَانِ
وَالطَّلُعُ فِي خَلِّ الْكِمَامِ كَأَنَّهُ حُلَّ تَفْتَقَ عَنْ نُحُورِ غَوَانِ
وَالْأَرْضُ تَعَجُّ كَيْفَ تَضْحَكُ وَالْحَيَا يَبْكِي بِدَمْعٍ دَائِمٍ الْهَمَلَانِ

وَيُقَدِّمُ صَفِي الدِّينِ الْحَلِّيُّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، قَصِيدَةً، مَدَحَ فِيهَا السُّلْطَانَ النَّاصِرَ مُحَمَّدَ بْنَ قَلَاوُونَ، وَجَعَلَ مَطْلَعَهَا مَقْدَمَةً طَلَلِيَّةً، بَكَى فِيهَا عَلَى دِيَارٍ وَرَسُومٍ، مُعِيداً الذَّاكِرَةَ إِلَى الشُّعْرَاءِ الْجَاهِلِيِّينَ الَّذِينَ بَكَوا الدِّيَارَ، مُسْتَخْدِماً مَفْرَدَاتِ الْبُكَاءِ، مِنْ دَمُوعٍ وَرَسُومٍ وَدِيَارٍ، يَقُولُ⁽¹⁾:

كَمْ قَدْ أَفْضْنَا مِنْ دَمُوعٍ وَدَمَاءٍ عَلَى رُسُومٍ لِلدِّيَارِ وَدِمَنٍ
وَكَمْ قَضَيْنَا لِلْبُكَاءِ مَنَسِكاً لَمَّا تَذَكَّرْنَا بِهِنَّ مَنْ سَكَنَ

وَإِذَا كَانَ الْحَلِّيُّ ذَكَرَ الدِّيَارَ وَالْبُكَاءَ عَلَيْهَا إِلَّا أَنَّهُ تَذَكَّرَهَا فِي عَصْرِهِ وَوَقَعَهُ، فَهُوَ وَإِنْ اسْتَحْدَمَ مَفْرَدَاتٍ جَاهِلِيَّةً، فَإِنَّهُ بَلَّوْرَهَا وَأَلْبَسَهَا لِبُوساً حَدِيثاً، فِي وَصْفِهِ لِلْقَاءِ مُحِبُّوبَتِهِ وَلِعَمَلِ الْوِشَاءِ وَمَكْرَهُمْ، يَقُولُ⁽²⁾:

مَعَاهِدَا تُحَدِّثُ لِلصَّابِرِ فَنَاءً إِنْ نَاحَتْ الْوُرُقُ بِهَا عَلَى فَنَنْ
تَذَكَّرُهَا أَحَدَتْ فِي الْحَلْقِ شَجَاً وَفِي الْحَشَى قَرَحاً وَفِي الْقَلْبِ شَجَنَ
لِلَّهِ أَيَّامٌ لَنَا عَلَى مَنَى فَكَمْ لَهَا عِنْدِي أَيَّادٍ وَمِنَنْ
وَعَاذِلْ أَضْمَرَ مَكْرَاً وَدَهَاءً فَنَمَّقَ الْغِشَّ بِنُصْحٍ وَدَهْنِ

وَالْمَلَاخِظُ فِي قِصَائِدِ الْمَدَحِ، الَّتِي نَظَّمَهَا صَفِي الدِّينِ الْحَلِّيُّ، الْإِطَالَةَ فِي الْمَقْدَمَةِ حَتَّى اسْتَغْرَقَتْ فِي بَعْضِ الْقِصَائِدِ ثُلُثَ الْقَصِيدَةِ، وَقَدْ يَكُونُ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ، الْغَايَةُ مِنْ هَذِهِ الْقِصَائِدِ، فَهُوَ حَرِيصٌ عَلَى لَفْتِ نَظَرِ السَّامِعِ لِمَدْحِهِ، حَتَّى يَنَالِ إِعْجَابَهُ وَيَحْصُلَ عَلَى نِعَمِ الْمَمْدُوحِ، وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتْ الْمَقْدَمَةُ غَزَلِيَّةً، كَمَا قَالَ ابْنُ رَشِيقٍ: "لِلشُّعْرَاءِ مَذَاهِبٌ فِي افْتِتَاحِ الْقِصَائِدِ بِالنَّسِيبِ، لَمَّا فِيهِ مِنْ عَطْفِ الْقُلُوبِ، وَاسْتِدْعَاءِ الْقَبُولِ، لَمَّا فِي الطَّبَاعِ مِنْ حُبِّ الْغَزْلِ، وَالْمِيلِ إِلَى اللُّهُوِّ وَالنِّسَاءِ، وَإِنْ ذَلِكَ اسْتَدْرَاجٌ إِلَى مَا بَعْدَهُ"⁽³⁾.

(1) صَفِي الدِّينِ الْحَلِّيُّ، الدِّيْوَانُ، ص 104.

(2) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ص 105.

(3) ابْنُ رَشِيقٍ، الْعَمْدَةُ، ج 1، ص 225.

أما الشعراء الذين مدحوا الناصرَ محمداً، في مناسبة انتصاره في معركة مرج الصفر، فالملاحظ قصر المقدمة لديهم، وعدم الإطالة، وذلك أيضاً يعود إلى موضوع القصيدة، الذي لا يتحمل إطالة المقدمة، فالشاعر متشوق لعرض موضوعه، ولسانه ينطق دون تمهيد، لانفعاله وعاطفته القويّة، فهذا الشاعر محمد المنبجي، يقدم لموضوعه بتصوير نصر المسلمين في مرج الصفر، بأربع أبيات يذكر فيها اعتذار الدهر عن الهزيمة السابقة والآن يأتي ويقدم النصر⁽¹⁾.

في مقابل ذلك، أثر بعض الشعراء الابتعاد عن المقدّمة، والدخول في الموضوع مباشرة، مُراعين حُسْنَ الابتداء، وبراعة الاستهلال، فجاءت مفرداتهم مناسبة وملائمة للموضوع، خاصة الشعراء الذين تغنّوا بنصر السلطان، حيث طغى عظم الحدث وفرحة الشاعر على الألسن ولم يجدوا وقتاً للتقديم لغرضهم، وبدؤوا مباشرة بتعظيم النصر، ووصف الانتصار.

فهذا الشاعر ناصر الدين بن النقيب، يتغنّى بعودة الناصر محمد بن قلاوون إلى حكمه، ويدخل في الموضوع مباشرة، دون مقدّمات، ومن أول كلمة يصوّر عودة السلطان إلى حقه، يقول⁽²⁾:

عَادَ لِلْمَلِكِ صَاحِبُ الْمَلِكِ عَادَا ثُمَّ أَبْدَا النِّعْمَا لَنَا وَأَعَادَا

أما شعر الرثاء، وما يستدعيه من الحزن والتفجّع، وما يكون عليه الشاعر من صدق العاطفة، وحرارة المشاعر، فهو يبكي من أول كلمة، وينوح من أول بيت، لهذا ابتعد أغلب الشعراء في العصر المملوكي الأول في مرثيتهم عن المقدمة الغزلية، وولجوا إلى موضوعهم مباشرة، وهذا تقليد سار عليه جُلُّ شعراء العربية منذ العصر الجاهلي، ذلك أن الغزل لا يتلاءم وموضوع الرثاء، ولا يتفق مع حالة الشاعر النفسية⁽³⁾، فهذا صفي الدين الحلّي، يصف دموعه ويشكرها لأنها تنهمر على هذا الملك، ويجعل نظمه ملاذاً لأحزانه، يقول⁽⁴⁾:

(1) انظر الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص91.

(2) انظر المصدر نفسه، ج9، ص194.

(3) رائد مصطفى عبد الرحيم، فن الرثاء في الشعر العربي، ص306.

(4) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص377.

وَفَى لِي الدَّمْعُ إِذْ خَاتَنِي الصَّبْرُ
وَأُضْحَتْ تَقُولُ النَّاسُ والدَّسْتُ والعُلَى
وَأُنَجِدَ فَيْكَ النَّظْمُ إِذْ خُذِلَ النَّصْرُ
كَذَا فليَجِلْ الخَطْبُ وليَفْدَحِ الأمرُ

الشاعر منشغل بالإعراب عن حزنه، وتصوير دموعه وليس لديه وقت للتقديم.

هكذا يتبين أن المقدمة في المديح أوضح منها في الرثاء، فشعر المديح يحتاج إلى زيادة في التزيين والتزويق، على العكس من شعر الرثاء، الذي تغطي فيه الأحزان على صاحبها، ويدخل في بكائه مباشرة.

حُسْنُ التَّخْلُصِ

اهتم النقاد بحسن التخلُّص أو الخروج، وجعلوه من أساسيات نجاح العمل الأدبي، وقد عرفه ابن الأثير بقوله: "حقيقة التخلُّص إنما هي الخروج من كلام إلى آخر غيره، بلطفة ثلاث بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج إليه"⁽¹⁾.

ويذكره ابن رشيق، ويتحدث عن الخروج بقوله: "وأما الخروج، إنما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تخيل، ثم تتماذى فيما خرجت إليه"⁽²⁾.

ويُفرد ابن أبي الإصبع باباً خاصاً سماه، باب براعة التخلُّص، في كتابه "تحرير التحرير"، ويرى أن حُسْنَ التخلُّص "قد يقع في الشعر في بيتين متجاورين وقد يقع في بيت واحد، ويرى هذا الباب قديماً، وهو من أجل أبواب المحاسن، ويُسمى معرفة الفصل في الوصل"⁽³⁾، ويتفق مع ابن الأثير، بوجوده في القرآن الكريم، لأنه وجه الإعجاز: "وهو مبثوث في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره"⁽⁴⁾.

(1) ابن الأثير، المثل السائر، ج 2، ص 265.

(2) ابن رشيق، العمدة، ج 1، ص 234.

(3) ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق الدكتور حنفي محمد شرف، القاهرة، 1383هـ، ص 433.

(4) المصدر نفسه، ص 433.

ومما يُعدُّ من باب التخلُّصات، بعد حمد الله والثناء عليه، "أما بعد"، وقيل إنَّ قُسَّ بن ساعدة، هو أوَّل مَنْ قال "أما بعد"، وكان من حُكماء العرب⁽¹⁾.

أما حُسْن التخلُّص عند أدباء العصر المملوكي، فاختلف في بعض الأحيان، مِنْ رسالة إلى أُخْرَى، فكتاب الإنشاء استخدموا التركيب، "وبعد"، في كتاباتهم، حسب موضوعها، فهذا علاء الدين علي بن عبد الظاهر، تخلَّص في كتابه "الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر"، بعد حمد الله وشكره على نعمة النصر، بقوله: "... وبعد فإنَّ الوقائع التي عظُمت آثارُها في الآفاق..."⁽²⁾.

وظهرَ هذا الأسلوب في التخلُّص، في رسائل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، إلى غازان بعد هزيمة التتار، يُعلِّمُهُ فيها ما حلَّ بجيوشه فبعدَ الحمدِ والتَّقديم للموضوع، يقول: "وبعدُ: فليعلم الملك محمود غازان جامع الوفود، وحاشد الحشود، أنه قد كانَ ما جرى...."⁽³⁾.

ويتخلَّص مرسوم السلطان في عقيدة ابن تيمية، بعد التحميد، والشهادة، والصلاة والسلام على الرسول الكريم، يقول: "وبعدُ: فإنَّ العقائد الشرعية وقواعد الإسلام المرعية...."⁽⁴⁾.

واختلف الشعْرُ عن النثر، حيث تخلَّص الشعراء من مقدِّماتهم بطُرق مختلفة، تليقُ بموضوع القصيدة، فقد تخلَّص صفي الدين الحلِّي في قصيدة مدحه للناصر محمد، بعدما عرض مقدمة غزلية بذكر اسم السلطان في أوَّل بيت، حيث يُفاجئُ القارئ، ويَطْرُقُ أَسْماعَهُ، قائلاً⁽⁵⁾:

لا بدع إن وهب النواظر حظوة	من نوره، ودعاه قلبي ناهبا
فمواهب السلطان قد كست الوري	نعما وتدعوه القساور ساليا
الناصر الملك الذي خضعت له	صيد الملوك مشارقا ومغاربا

(1) انظر العلوي، الإيجاز لأسرار كتاب الطراز، ص 504.

(2) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1028.

(3) النوادري، كنز الدرر، ج 9، ص 119.

(4) المصدر نفسه، ج 9، ص 139.

(5) صفي الدين الحلِّي، الديوان، ص 96.

يربط الشاعر في هذه الأبيات بين المقدمة والموضوع " المدح " بإجمال تصوير عطائه،
ثمَّ يدخل في موضوعه بذكر اسم السلطان، وكأنه طرق الأسماع لتصغي لهذا المدح.

وفي قصيدةٍ أخرى افتتحها بالغزل، يتخلَّص بذكر اسم السلطان بسهولةٍ ويُسر، قائلاً⁽¹⁾:

حتى إذا كُسِرَ الخليجُ وقُسمَت أمواه لُجَّتِه على الخِلجانِ بينَ
ساوى البلادِ كما تُساوي في الندى الأنامِ مواهبُ السُّلطانِ شَكَرَ
الناصرِ الملكِ الذي في عصره الظُّباءُ صنيعةَ السَّرحانِ

الشاعر أيضاً يتخلص بذكر اسم السلطان، فيطرق الأسماع ويلفت الإنتباه.

يلاحظ إجادة صفي الدين الحلّي التخلُّص من المقدمة والدخول في الموضوع، فهو يتدرَّج في التخلُّص، بالتلميح لممدوحه ببيتين، ثمَّ يدخل مباشرة بذكر اسمه في أول كلمة، كي يُلاحظ القارئ ويُدرِك أن الموضوع هو موضوع مدحٍ للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وفي "هذا امتزاج آخر ما يُقدِّم الشاعر على المدح من نسيب أو نحوه بأول بيت في المدح"⁽²⁾، "والأحسن أن يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح، ولا يصح ان يكون التخلُّص من المدح إلى المدح"⁽³⁾.

حُسن الانتهاء

اهتمَّ النُّقاد بالخاتمة، وأطلقوا عليها أسماء كثيرة، فهي الانتهاء عند ابن رشيق، حيث يقول: "أمَّا الانتهاء، فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون مُحْكَمًا: لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أولُ الشَّعر مفتاحاً له، وجَب أن يكون الآخر قُفلاً عليه"⁽⁴⁾.

(1) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 100.

(2) انظر ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص 433-437.

(3) ابن حجة، خزائن الأدب، ص 149-150.

(4) ابن رشيق، العمدة، ج 1، ص 239.

وهي الخاتمة عند ابن أبي الأصبع، الذي يرى وجوب تحسينها، لأنها رُبَّمَا حُفِظَتْ مِنْ
دون سائر الكلام في غالب الأحيان، فيجب أن يُجْتَهِدَ فِي رِشَاقَتِهَا وَنُضْجِهَا وَحَلَاوَتِهَا
وجزالتها⁽¹⁾.

ويحرصُ القزويني على الخاتمة، حتى إنه ربط بين حُسْنِ العمل الأدبي بأكمله وحُسْنِ
الخاتمة، في موازنةٍ جعلت حُسْنَ الخاتمة تُنْسِي القارئ مساوئ العمل إن وردت، أمّا قبحُ
الخاتمة، فهو أيضاً يُنْسِي القارئ حُسْنَ العمل الأدبي وإنْ عَظُمَ، يقول في ختام الكلام: "إِنْ كَانَ
مُخْتَاراً، جَبَرَ مَا عَسَاهُ وَقَعَ فِيمَا قَبْلَهُ مِنَ التَّقْصِيرِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُخْتَارٍ، كَانَ بِخِلَافِ ذَلِكَ،
وَرُبَّمَا أَنْسَى مُحَاسِنَ مَا قَبْلَهُ"⁽²⁾.

ولم يغفل أدباء العصر المملوكي الخاتمة، بل اهتمّوا بختم أعمالهم الأدبية، فمنهم مَنْ
خَتَمَ بِالْأَدْعَاءِ بِتَسْلِسِلٍ مَنْطِقِيٍّ وَتَكَامُلٍ، كَمَا فَعَلَ الشَّاعِرُ جَمَالُ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ، فِي قَصِيدَةِ التَّهْنِئَةِ،
الَّتِي تَوَجَّهَ بِهَا إِلَى الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قِلَافُونَ، يَتَسَلْسَلُ بِعَرْضِهَا، مِنَ الْبَدَايَةِ إِلَى الْوَسْطِ إِلَى
النِّهَايَةِ، يَعْضُضُ شَجَاعَةَ السُّلْطَانِ وَفُرْسَانَهُ، وَيَفْخَرُ بِهَذَا النِّصْرِ الْعَظِيمِ، وَيَخْتَمُ فِي النِّهَايَةِ بِالْأَدْعَاءِ
قَائِلاً⁽³⁾:

فَبَيَّضَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَوْجُهًا كَرُمَتْ فَإِنَّهُمْ بِالْأَيْدِي الْبَيضِ قَدْ غَمَرُوا
وَحَاطَهُمْ أَيْتَمًا كَانُوا وَلَا بَرَحُوا فِي ذِمَّةِ اللَّهِ إِنْ غَابُوا وَإِنْ حَضَرُوا

ويتوجّه شهاب الدين الشارمساحي بالدعاء للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، ليختم به
قصيدة التهنئة، يقول⁽⁴⁾:

فَاللَّهُ يُبْقِيكَ فِي خَيْرٍ وَعَافِيَةٍ فَالْمُسْلِمُونَ إِلَى بُقْيَاكَ تَفْتَقِرُ

ويدعو محمد المنبجي بدوام ملك الناصر، ليختم بهذا الدعاء قصيدة التهنئة بالناصر،
يقول⁽⁵⁾:

⁽¹⁾ انظر ابن أبي الأصبع، تحرير التحرير، ص 616.

⁽²⁾ القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبدیع، ص 244.

⁽³⁾ الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 100.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ج 9، ص 192.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، ج 9، ص 194.

بَقِيَتْ نَاصِرَ هَذَا الدِّينِ مَا سَجَعَتْ
وَدَامَ مُلْكُكَ مَا هَبَّتْ رِيَّاحُ صَبَا
بِالرَّوْحِ وَرِقَاءُ فِي الْآصَالِ وَالْبُكْرِ
وَفُتِّحَتْ فِي رِيَّاضِ أَعْيُنِ الزَّهْرِ

ويختم محمد المنبجي قصيدته في انتصار مرج الصفر، بعدما ذكر أحداث المعركة،
وأشاد ببطولة الناصر وجيشه، يختم له بالدعاء، بدوام النصر والملك، يقول⁽¹⁾:

لَا زَالَ مُلْكُكَ مُلْكًا لَا نَفَاذَ لَهُ
مَا شَقَّ شُقَّةً جَلْبَابِ الدَّجَى سَحَرُ

ويختار ناصر الدين بن النقيب، ختم قصيدته، بعد أن هنأ السلطان بعودته للحكم، بالدعاء
له بطول العمر، يقول⁽²⁾:

زَادَكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ فِي الْمُلْكِ
اِقْتَدَارًا وَفِي الْحَيَاةِ امْتِدَادًا

ويختم علاء الدين علي بن عبد الظاهر كتابه "الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر"،
بالدعاء للسلطان محمد بن قلاوون والاتكال على الله تعالى، لحفظ هذا السلطان، يقول: "فإن الله
تعالى يُمَتِّعُ الدُّنْيَا مِنْهُ بِمُلْكٍ حَمَى شَامًا وَمِصْرًا، وَأَذَاقَ التَّتَارَ بَعْزَائِهِ مَصَائِبَ تَتَرَى، وَحَسْبُنَا اللَّهُ
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ"⁽³⁾.

وكما اعتنى الأدباء بشعر التهنية ونثره، اعتنوا أيضاً بأدب الرثاء شعراً ونثراً، فهذا ابن
فضل الله العمري يختم رثاءه لابن تيمية بالدعاء، ويجمل رثاءه، خاتماً ببيان عظمته في نفوس
المسلمين، مصوراً جنازته العظيمة، متحسراً على المصير الذي آل إليه فهو لا يستحق هذا،
يقول: "ولم يكن أعظم منها منذ مئتين سنين جنازة، رفعت على الرقاب، ووطئت في زحامها
الأعقاب، وسار مرفوعاً على الرؤوس، متبوعاً بالنفوس، تحدوه العبرات وتتبعه الزفرات، وتقول
الأمم: لَا فَقَدْتَ مِنْ غَائِبٍ، وَلَأَقْلَامُهُ النَّافِعَةُ: لَا أَبْعِدُكَ اللَّهُ مِنْ شَجَرَاتِ"⁽⁴⁾.

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص93.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص195.

(3) المقرئ، السلوك، ج1، ق3، ص1039.

(4) الكرعي، الكواكب الدرية، ص182.

ولم يختلف شعْرُ الرثاء، ولما يستدعيه من الحُزن والتفجُّع، حيث اعتنى الأدباء بانتقاء أدبهم وتنقيحهم، ليكون مؤثراً في السامع، تاركاً في قلبه عاطفة الفراق⁽¹⁾، فكان الدّعاء بالسّلام والأمن للميت من سمات شعْر الرثاء، لأن هذا السلام والأمن هو أهم مطلب للميت في اعتقادهم.

وبما أن الخاتمة، آخر ما يطرق الأسماع، كان من الواجب أن تكون كلماتها منتقاة مؤثرة، وذلك ما فعله صفي الدين الحلّي، وهو يرثي سلطان المسلمين هازم الأعداء، البطل الشجاع، فكان البكاء، واستمراره لدى الشاعر طوال الدهر وعداً من الشاعر، وكان سلام الله أفضل هدية يلقاها الشاعر على هذا الجسد الآمن، يقول خاتماً قصيدته بالسّلام⁽²⁾:

عليك سلام الله ما ذُكر اسمُكم وذلك بين الناس آخره الحشرُ

وفي قصيدة رثاء أخرى، يختم صفي الدين الحلّي أيضاً بالسلام، ولعلّه بذلك أحسن الخاتمة، فالسلام يعطي نوعاً من الأمان والطمأنينة، وهذا ما يكون الميت بأَمْس الحاجة إليه، يقول⁽³⁾:

عليك سلام الله، لا زال سرمداً كجودك حتى بعدَ فقدك سرمدُ

ويختتم ابن الوردي، رثاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، بالدّعاء له لخليفه بالخير، يقول⁽⁴⁾:

فجزى الله بخير مَنْ نأى ووقى من كل ضرٍّ مَنْ دنا

ومن الأدب ما ختم بالتهديد، وكان مناسباً لموضوع الأدب، ظهر ذلك في مراسم السلطان في شأن أهل الذمّة، وما أقرّه بحقهم، وحرّصه على تنفيذ هذه المراسيم، وتهديد مَنْ يُخالفها، فبعد عرض الشروط الواجبة عليهم وتحذيرهم يختم المرسوم بقوله: "الانتهاء عند هذا

(1) انظر رائد مصطفى عبد الرحيم، فنّ الرثاء في الشعر المملوكي، ص 304.

(2) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 380.

(3) المصدر نفسه، ص 342.

(4) ابن الوردي، الديوان، ص 144.

التحذير، فيبادرُون إلى امتثال هذا المرسوم الشريف ويسمعون ويسارعون إلى العمل بما فيه، وينفذونه، ويقفون عند حُكْمِهِ ويمتثلونه"⁽¹⁾.

وكانت سمة التهديد، سائدة في رسائل السلطان إلى غازان ملك التتار ردّاً على رسالة الأخير إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون التي ختمها أيضاً بالتهديد، وهذا ما ورد سابقاً، من بناء رسائل الردود، على الرسائل الواردة، يقول غازان مختتماً رسالته: "وقد أعذرَ مَنْ أنذرَ، وأنصفَ مَنْ حذرَ والسلام على مَنْ اتَّبَعَ الهدى"⁽²⁾.

وتُختم رسالة السلطان محمد بن قلاوون بمعنى التهديد والدعوة للمصالحة، يقول: "والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدّها، وأدركتْ الأنفة من مُقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها، فنقول: إذا جَنَحَ للسُّلْم جنحنا لها...."⁽³⁾.

ويُختم مرسوم السلطان محمد بن قلاوون في عقيدة ابن تيمية بالتهديد والوعيد لإلزامه والعمل بما جاء فيه، يقول: "فليقرأ مرسومنا هذا على المنابر، ليكون أعظم زاجر وأعدل ناهٍ وأمر، وليبلغ للغايب والحاضر"⁽⁴⁾.

أما الأدب الذي وصف الحالة العامة والمجتمع وانتقده، فمعظمه كان يهدف إلى الإصلاح، لذلك اعتنى الشاعر بإبداء النصيحة، فهذا ابن الوردي، يصف حال المثقف في تلك الفترة، ويختم شعره بالحكمة الهازئة، يقول⁽⁵⁾:

أَهْلُ الْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ قَدْ كَسَدُوا وَالْجَاهِلُونَ فَقَدْ قَامَتْ لَهُمْ سَوَاقِبُ
وَالنَّاسُ أَعْدَاءُ مَنْ سَارَتْ فَضَائِلُهُ فَإِنْ تَعَمَّقَ قَالُوا عَنْهُ زَنْدِيقُ

(1) المقرئ، السلوك، ج 2، ق 3، ص 961.

(2) المصدر نفسه، ج 2، ق 3، ص 1018.

(3) المصدر نفسه، ج 2، ق 3، ص 1023.

(4) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 142.

(5) ابن الوردي، الديوان، ص 278.

ويختم ابن الوردي قصيدة رثاء ابن تيمية، بالهزء من أعدائه، الذين تسببوا له بالأذى، والهزء أيضاً من السلطان ومعاونيه، مذكراً إياهم أن يتصرفوا بالبلاد كما يشاؤون، فقد ذهب من كان يردعهم، وهذه الخاتمة ملائمة وموضوع القصيدة التي جاءت حانقة على ما جرى للشيخ يقول⁽¹⁾:

فَهَا هُوَ مَاتَ عَنْكُمْ وَاسْتَرَحْتُمْ فَعَاطُوا مَا أَرَدْتُمْ أَنْ تُعَاطُوا
وَحُلُّوا وَاعْقَدُوا مِنْ غَيْرِ رَدٍّ عَلَيْكُمْ وَانْطَوَى ذَاكَ الْبَسَاطُ

ويختم ابن فضل الله العمري قصيدة رثاء ابن تيمية، بالتوجه إليه وهو في لحده، باكياً، مطمئناً قلبه، معبراً عن الظلم الواقع على هذا الشيخ الذي رُمِيَ بالباطل، فهو علمٌ ما بعده علم، يقول⁽²⁾:

هَلْ كَانَ مِثْلُكَ مَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ هُدًى وَمِنْ سَمَائِكَ تَبْدُو الْأَجْمُ الزُّهْرُ؟
وَكَيْفَ تَحْذَرُ مِنْ شَيْءٍ تَزَلُّ بِهِ أَنْتَ التَّقِيُّ، فَمَاذَا الْخَوْفُ وَالْحَذَرُ؟

ومن الأدب ما ختم بالتعبير عن حرص الكاتب على الوفاء لمن يكتب، وبيان عجزه عن سداد الجميل، فهذا صفي الدين الحلي، يختم قصيدة مدح السلطان بقوله⁽³⁾:

لَوْ أَنَّ أَغْصَانًا جَمِيعاً أَلْسُنَ تُثْنِي عَلَيْكَ لَمَّا قَضَيْنِ الْوَاجِبَا

فهو يعبر عن رغبته في أداء الواجب، ولكنه لعظم ممدوحه لا يستطيع ردَّ جميله.

هكذا اهتم أدباء العصر المملوكي الأول بأدبهم في البدء والعرض والخاتمة، مما جعل هذا الأدب يتسم بالجمال والقوة، وفقاً لما قاله ابن رشيق: "حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح، ولطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح، وخاتمة الكلام أبقى في السمع وألصق

(1) ابن الوردي، الديوان، ص266.

(2) الكرمي، الكواكب الدرية، ص186.

(3) صفي الدين الحلي، الديوان، ص98.

بالنفس، لقرب العهد بها، فإن حَسُنَتْ حَسُنَ وإن قَبَحَتْ قَبَحَ، والأعمال بخواتيمها، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾.

ثانياً: اللغة الشعرية

اهتم النقاد باللغة الشعرية، وافردوا لها درساً مستقلاً، مؤكدين الارتباط الوثيق بين اللفظ والمعنى، فمنهم من أوصى باللفظ، ليكون عمله مزِيناً بالألفاظ الجزلة القوية، ومنهم مَنْ أكَّـد ضرورة الوصول إلى المعنى المقصود والغاية المرتجاة من العمل الأدبي، بألفاظ سلسلة منتقاة، ومن الأدباء من ربط بين اللفظ والمعنى، وجعلوا كلاً منهم متمماً للآخر، فهذا ابن رشيق، يجعل اللفظ جسماً وروحه المعنى، فلا تقوى الروح دون الجسد ولا يقوى الجسد دون الروح، " فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه، كان للفظ من ذلك أوفر حظ " ⁽²⁾، ويجعل ابن رشيق اختلال المعنى من جهة اللفظ، يقول: " ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب " ⁽³⁾.

واهتم العسكري بقضية اللفظ والمعنى، وأوصى بضرورة إيفاء المعنى حقه من الألفاظ، فلا يكون المعنى صائباً، واللفظ ركيكاً، وجعل يوازن بين اللفظ والمعنى، وجعل سلامة الاثنين من سلامة العمل الأدبي ⁽⁴⁾، يقول في ضرورة عرض المعنى بألفاظ مناسبة: "لأنَّ الكلام إذا كان لفظه غثاً كان مردوداً ولو احتوى على أجل معنى وأنبله " ⁽⁵⁾. ويرى أن الكلام يحسن بحسن سلاسته وسهولته، وتخيره لفظه، وإصابة معناه، ولين مقاطعه " ⁽⁶⁾.

(1) ابن رشيق، العمدة، ج1، ص217.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص124.

(3) المصدر نفسه، ص124.

(4) انظر أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، الصناعتين، تحقيق علي محمد الجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1371هـ، ص59-133.

(5) المصدر نفسه، ص67.

(6) المصدر نفسه، ص55.

ويفرد ابن الأثير في المثل السائر بابا في قوة اللفظ لقوة المعنى، ويقول: إن "الألفاظ أدلة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها" (1).

ويراعي ابن أبي الإصبع المناسبة بين الألفاظ والانتلاف بين المعاني حتى لا تتنافر الكلمات وتتعدد المعاني (2).

يقول ابن الأثير في المثل السائر في الفصاحة: "الفصاحة هي الظهور والبيان، لا الغموض والخفاء" (3).

ويقول: "الألفاظ تقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، أما الرقيق، فإنه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام العباد، وفي استجلاب المودات، وملاينات الإستهطاف" (4).

والناظر إلى الشعر والنثر في عصر السلطان محمد بن قلاوون، يجد بعض السهولة والرقّة في الألفاظ التي دعا إليها النقاد، والتي تؤدي إلى موافقة المعنى، وأدائه للمتلقى على أتم وجه من الفصاحة، والمواءمة بين الألفاظ والمعاني، وهذا ما تتسم فيه قصيدة صفي الدين الحلي في رثاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، صور فيها حرقته وأسفه وتلفهه، بل حسرات المسلمين وتأسفهم، وذلك سبيل شعر الرثاء، كما يقول ابن الأثير (5)، ومن قوله (6):

تَقَاصَرَتِ الْأَشْعَارُ عَنْ وَصْفِ رُزْئِهِ	لَقَدْ جَلَّ حَتَّى دَقَّ عَنْ وَصْفِهِ الشَّعْرُ
أَحَاطَ بِهِ الْأَسُونُ يَبْغُونَ طِبَّهُ	وَقَدْ حَارَتِ الْإِفْهَامُ وَاشْتَغَلَ السَّرُّ
وَمِمَّا يُسْلِي النَّفْسَ حُسْنَ انْتِقَالِهِ	عَفِيفَ إِزَارٍ لَا يُنَاطُ بِهِ وَزَرُّ

(1) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر، ج2، ص60.

(2) انظر ابن أبي الإصبع، تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ص21.

(3) ابن الأثير، المثل السائر، م2، ص167.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص168.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص147.

(6) صفي الدين الحلي، الديوان، ص169.

ويجد الجزالة التي تستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ⁽¹⁾، لأن هذه المواقف تحتاج إلى ألفاظ خاصة، تتسم بالقوة والجزالة، لتكون مناسبة للمعنى.

وقد أوضح ابن الأثير المقصود بالجزل والرقيق، فالجزل من الألفاظ هو: " أن يكون متينا على عذوبته في الفم ولذائته في السمع، وأما الرقيق، فهو: اللطيف الرقيق الحاشية"⁽²⁾.

راعى الأدب في العصر المملوكي هذه السمة في الألفاظ واستخدامها ⁽³⁾، فهذا الدوادري جمع بين الرقة والجزالة في كتابه " كنز الدرر " الجزء التاسع منه " الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر "، فتارة يصف الناصر بجمل جزلة قوية، تتناسب مع موضوع الوصف والصورة، يقول في موقع واصفا الناصر وأعداءه: " فكان الرمز الظاهر أنّ هذا العقاب الكاسر، هو الملك الناصر، وأنّ هذا البوم المكسور ببيرس الباغي المقهور " ⁽⁴⁾.

وتارة أخرى يصور اشتياق الناس إلى ذلك السلطان على لسان نسيم النيل، بألفاظ رقيقة سلسلة سهلة، أوفت المعنى حقه، يقول: " أنا النسيم العليل، شوقا إلى ذلك الملك الجليل، فكل من لاذ إليه يرتاح... وأناي سأزوره وقت الأسحار، إذا غردت الأطيّار، على الأشجار... " ⁽⁵⁾.

أما الشعر الذي واكب هزائم المغول، فمن المعروف أن مثل هذا الشعر يكون مشتملا على مدح السلاطين والقادة الذين حققوا الانتصارات، وعلى وصف الحروب ومجرياتها، وحركة الجيوش والمقاتلين وغير ذلك، وسبيل الشاعر كما يقول ابن رشيق: " إذا مدح ملكاً - أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح، وان يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية " ⁽⁶⁾، وهذا ما اتصف به شعر المدح في هذه الحقبة، فعندما يدخل صفي الدين الحلي على

⁽¹⁾ ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص240.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ج1، ص240.

⁽³⁾ انظر جلال يوسف أبطاري، النشر الفني في العصر المملوكي الأول، ص316.

⁽⁴⁾ الداداري، كنز الدرر، ج9، ص162.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، ج9، ص165.

⁽⁶⁾ ابن رشيق، العمدة، ج2، ص128.

السلطان محمد مادحاً، لا بد أن يختار كلماته ومعانيه ويحاول صياغتها بطريقة تتناسب مع سلطان غير عربي، ومع شاعر يهدف إلى إرضاء ذلك السلطان لنيل عطاياه، لذلك فهو يمدح بكل صفات المدح، بألفاظ سهلة متينة متزنة⁽¹⁾.

ومن الطبيعي أن يكون أسلوب وصف الحروب قويا، فالكلمات قوية الجرس، هي رماح وسيوف وطعن وضرب، وقتل وانتصار ودماء وأشلاء ووقائع، والجملة جزلة، موجزة⁽²⁾، تُشعر القارئ بالحركة، وتجعله يتخيل المعركة وكأنه يراها، خاصة إذا كان الكاتب قد أجاد الوصف والتصوير، وانتقى الألفاظ القوية المناسبة للمعنى وأوضح مثالٍ نثري على جزالة الألفاظ في وصف الحروب وتصوير شجاعة السلطان، كتاب "الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر" تأليف القاضي علاء الدين علي بن عبد الظاهر، فمن جمله: "فإن الوقائع التي عظمت آثارها في الآفاق، وحُفظت بها دماء المسلمين من أن تُراق، وبقي بها الملك والممالك، وأشرف بها سواد الخطب الحالك...."⁽³⁾.

وفي موقع آخر من الكتاب، لم يترك الكاتب قوة إلا اسقطها على كلماته، يقول مصوراً بداية الحرب: "فبينما الركاب قد استقلت في السرى، ورقمت في البيداء من أعناق جيادها سطور من قرأها استغنى بحسنها عن القرى، إذا بالبشير قد وفد، ونجم المسرة قد وقد..."⁽⁴⁾.

واتسمت الأشعار التي صورت حرب المسلمين في مرج الصفر، بقوة الألفاظ وجزالتها، وتأثير وقعها على الأسماع، فكل لفظة من ألفاظها تنطق وتحرك العواطف، وتجعل القارئ يتمنى لو كان في المعركة حتى يشفي صدره وصدور المسلمين، فهذا الشاعر جمال الدين أبو بكر، يصور أفعال المغول وأحلافهم في بلاد المسلمين، التي توجب قتالهم، محرّضاً المسلمين على قتالهم والوقوف في وجههم، يقول⁽⁵⁾:

(1) انظر صفي الدين الحلي، الديوان، ص 96.

(2) انظر رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص 171.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 1028.

(4) المصدر نفسه، ج 9، ص 1029.

(5) المصدر نفسه، ج 9، ص 96-97.

اشفوا صدوركم إن كنتم غيراً
كم من عجوز ومن شيخ ومكتهل
وكم أراقوا وكم ساقوا وكم هتكوا
وسارعوا واقتلوهم إنهم قتلوا
سجلاً بسجل إن الدهر ذو نوب
على نسايتكم يا قوم واذكروا
ومن فتاة نماها الحسن والخفر
وكم تملأوا بما نالوا وكم فجروا
وبادروا واسيروهم مثلما أسروا
من ذا يغالب ما يأتي به القدر

ومن أمثلة تلك الأشعار التي مدحت الناصر محمداً، عند انتصاره في معركة مرج الصفر، ما قاله القاضي شرف الدين بن الوحيد من أبيات يصف فيها الحرب (1):

وكان نهار السبب بالنصر شاهداً
فله در الترك كم سفكوا دماً
فولت ولادت بالجبال تحصناً
بصدق وكان الوقت قد قارب العصرا
وكم قطعوا رأساً وكم جزروا نحرا
ولولا تخاف القتل لاختارت الأسرى

ومثل ذلك قول جمال الدين أبي بكر في معركة مرج الصفر، واصفا هزيمة الأعداء وقتالهم، بجمل واضحة سهلة الألفاظ (2):

وافى بهم أجل يمشي على مهل
لم ينفروا خيفة من كل قصورة
حتى محاهم فلا عين ولا أثر
وفر جمعهم إلا وهم حمر

دمج الشاعر في قصيدته بين الجزالة والسهولة، ليكون كما أوصى ابن أبي الإصبع لإتمام العمل الأدبي، ففي رأيه "ألا يجعل الأديب كلامه كله شريفاً عالياً، ولا وضعياً نازلاً، بل يفصله تفصيل العقود، وإذا كان الكلام منوعاً فإن الأسماع تفتن فيه، ولا يلحق النفوس ملل من ألفاظه ومعانيه" (3).

"ظل الشعر الذي صور هزائم المغول، يحتفظ في معظمه بجزالة ألفاظه وعباراته، وفصاحتها، والملاءمة بين الألفاظ والمعاني، وحرص الشعراء على ذلك، لشعورهم بأهمية

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص89.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص96.

(3) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص421-412.

التمسك بالأصالة العربية، ومواجهة الغزو المغولي، والصمود في وجه محاولاته الدائبة لهدم حضارة امتنا⁽¹⁾.

ولم يخل أدب العصر المملوكي، من الألفاظ الدخيلة، وسبب ذلك اختلاط العرب بالعجم وبخاصة الأتراك الذين حكموا هذه الدولة، إلى جانب حروب المسلمين مع المغول الذين قادوا الجيوش لغزو بلاد الشام، وهي أسماء غير عربية⁽²⁾، مثل "غازان"، ونعته بعضهم "قازان"، يقول الشاعر شرف الدين بن الوحيد: (3).

وَلَمَّا غَزَا غَازَانُ عَقَرَ دِيَارِنَا وَأَعْطَاهُ مَنْ يُعْطِي وَمَنْ يَمْنَعُ النَّصْرَ

وذكر الأدباء أيضا أسماء الأمم المجاورة، التي تحالفت مع المغول، وقد هاجموا الدولة الإسلامية، وارتكبوا فيها ما لم يرتكبه المغول أنفسهم، منهم "الكرج"، و"الأرمن"، و"الترك"، و"الروم"، و"الفرنج"، و"العجم"⁽⁴⁾، ولم تكن هذه الألفاظ إلا مادة أغنت اللغة الشعرية في ذلك العصر، وعبرت عن مرحلة تاريخية مهمة، بين المسلمين والشعوب المجاورة.

وتملأ الأسماء التركية أدب العصر المملوكي، فهذا الدواداري يعرض أسماء رفقة الملك الناصر محمد بن قلاوون في حجته الثالثة، فكان منهم "طقتمر"، و"طوغان"، و"بيغرا"، و"بيغا"، و"ياياقا"، و"اياق"، و"سنجر"، و"بكتمر"، و"أيد غمش"، و"صوصون"، و"طنجي"، و"بُغا"، و"جركتمر"، و"أرس"، و"آقبا" وغيرهم⁽⁵⁾.

(1) رائد عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص 175.

(2) انظر المرجع نفسه، ص 186.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 89.

(4) المصدر نفسه، ج 9، ص 255.

(5) انظر المصدر نفسه، ج 9، ص 366.

واستخدم الشعراء ألفاظاً مستمدة من النصرانية، فقد أورد الشاعر جمال الدين أبو بكر لفظة "نواويس"، وهي بمعنى مقابر النصارى، في قصيدته التي صور فيها هزيمة المغول في مرج الصفر، فمن قوله (1):

لَمْ يُقْبَرُوا فِي نَوَاوِيسٍ وَلَا جُدْتُ وَإِنَّمَا فِي بُطُونِ الْوَحْشِ قَدْ قُبِرُوا

وأغنى الشعراء لغتهم الشعرية بالألفاظ الدالة على أسماء الأماكن التي وقعت فيها حروب المسلمين مع المغول، مثل "مرج الصفر"، "والفرات"، و"سيس"، و"جلق"، و"الصالحية"، و"مصر"، و"الشام"، و"الخليل"، و"القدس"، و"القاهرة"، و"شقحب"، و"دمشق"، وغيرهم، ومن الأمثلة على ذلك ما قاله جمال الدين أبو بكر في وصف جيش المسلمين (2):

حَتَّى أَتَوْا جِلْقًا فِي يَوْمٍ مَلْحَمَةٍ فِيهِ الْأَسْوَدُ أَسْوَدُ الْغَابِ تَهْتَصِرُ
ويقول في بيت آخر (3):

جَمِيعُهُمْ قُتِلُوا صَبْرًا وَأَعْظَمُهُمْ جَمِيعُهَا بَضَوَاحِي جِلْقٍ صُبِرُوا
وفي بيت آخر يذكر دمشق في قوله (4):

حَاشَا دِمَشْقُ مِنْ الْأَسْوَاءِ تَطْرُقُهَا أَوْ أَنْ تُغَيِّرُهَا عَنْ وَصْفِهَا الْغَيْرُ
وقوله في بيت آخر وقد جمع الخليل والقدس، في تصوير هيبة السلطان على تلك البلاد واعتناؤه بها بخاصة أنها بلاد مقدسة يفخر الشاعر بمجاورتها يقول (5):

وَفِي جَوَارِ خَلِيلِ اللَّهِ مَا بَرُحْتَ وَحَضْرَةُ الْقُدْسِ قُلْ لِي: كَيْفَ تَحْتَقَرُ
وقول جمال الدين أبو بكر، في وصف هزيمة التتار وخيبة أملهم (6):

أَمُّوا الْفِرَاتَ وَقَدْ رَامُوا النَّجَاةَ فَكَمْ حَلَّتْ بِهِمْ عِبْرٌ فِيهَا وَمَا اعْتَبَرُوا

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص96.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص94.

(3) المصدر نفسه، ج9، ص96.

(4) المصدر نفسه، ج9، ص98.

(5) المصدر نفسه، ج9، ص98.

(6) الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص96.

هَبُّوا إِلَى سَيْسٍ مِنْ أَحْلَامٍ رَقَدَتْكُمْ وَسَارِعُوا فِي طَلَابِ الثَّارِ وَابْتَدَرُوا

ويقول الدواداري في تصوير معركة مرج الصفر، ذاكراً أسماء أماكن وبلاد كثيرة: "واطمانت نفوس أهل الشام، ودخل مولانا السلطان إلى دمشق يوم الوقعة بأرض شقُوب، ثم عادت الركاب إلى الديار المصرية، وزُيّنت القاهرة، وأقام الفرح والسرور والغبطة والحبور بالديار المصرية وبالقاهرة المعزّية"⁽¹⁾.

ومن الملاحظ كثرة ألفاظ القتل والحرب والضرب والطعان، والتهديد والوعيد في أدب هذا العصر، ولعلّ الظروف التي عانت منها الدولة الإسلامية، ودولة السلطان محمد بن قلاوون خاصة، أثرت على الأدب، وصبغته بصبغة الحرب والجهاد أكثر من غيرها فهذا الشعر الذي صورّ الحرب، يملؤه الشعراء بألفاظ: "غزا"، و"النصر"، و"غلت"، و"القتل"، و"الأسر"، و"العسكر"، و"دماً"، و"سفكوا"، و"أباد"، و"طعّانون" ⁽²⁾، وغيرها الكثير، حتى في شعر المدح، نجد الشعراء يمدحون السلطان الناصر بالشجاعة ويذكرون المواقف الحازمة التي أبدى فيها شجاعته، فيضطرون لاستخدام هذه الألفاظ، دون تنميق أو تزيين للألفاظ.

في المقابل يظهر بعض الأدباء الذين يهتمون بتزيين أدبهم بالأساليب البلاغية الكثيرة، يحشدون بها أدبهم، ويكون غايتهم وهدفهم، تزيين الأدب لا غير مثال ذلك مقامة الصفدي في وصف الحريق الذي ألمّ بدمشق سنة 740هـ، حيث يلاحظ التزيين اللفظي والتكلف من البداية، يقول: "حكى شعله بن أبي لهب عن أبي الزناد شهاب أنه قال: "لم تزل أذني متشنقة بأوصاف دمشق، متلذذة بما للأقلام في ذكر محاسنها من التعليق والمشق، حتى رأيت الحزم، شدّ الكور إليها والحزم، فآزمتُ السَّير، ولم أجزر الطير، وقطعتُ أديم الأرض في السَّير، ولم يلتفت القلبُ إلى الوطن، ولا حنَّ النجيبُ إلى العطن، حتى بلغتُها بعد مكابدة السَّرى، وإثارة العجاج من النَّرى"⁽³⁾.

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص88.

(2) انظر المصدر نفسه، ج9، ص90-100.

(3) مقامة الصفدي، رشف الحريق في وصف الحريق، ص96.

ولم تختلف مقامة ابن الوردي في وصف حريق دمشق عن مقامة الصفدي في استخدام المحسنات البديعية، إلا أنَّ مقامة ابن الوردي أكثر سهولةً وابتعاداً عن التكلُّف والتعقيد، فمقامة ابن الوردي تتصف بالسهولة والركة، والملاءمة بين الألفاظ والمعاني⁽¹⁾، يقول من سطورها في بيان عاقبة النصارى الذين افتعلوا الحريق: "ولما أخذ منهم السُحت الذي جمعوا، وصرف شرعاً في ترميم ما صنعوا، ورد المرسوم الشريف بتسميرهم، على الجمال التي دينهم بغضها، وجعلهم عبرةً للبرية فما بكت عليهم سماؤها ولا أرضها، وصلبوا بإعتقادهم صلب المسيح " وما صلبوه"⁽²⁾، ونصبوا أغراضاً لسهام السب بما كسبوه، فقالوا: أوسعتمونا سباً ورحنا بالإبل، قلنا بل الإبل راحت بكم"⁽³⁾.

هكذا ساهمت اللغة الأدبية شعرية ونثرية في إيصال المعنى المقصود مع تلاؤم بين الألفاظ والمعاني.

ثالثاً: الأساليب

تختلف أساليب الأدباء وتتنوع حسب درجات ثقافتهم، وموروثهم المعرفي، وحصيلة تجاربهم العلمية، والأغراض الشعرية والأدبية التي يبدعون فيها، فهي تدفعهم إلى اختيار الأسلوب الأنسب لها لتأدية المعنى، واشتُرط في الأديب أن يكون ذا ذكاء وطبع⁽⁴⁾.

وقد تحدث كثيرٌ من النقاد عن الأساليب في الإبداع الأدبي، وخاضوا في أساليب الأدباء القديمة والحديثة، فمنهم من رأى أنَّ مفهوم الأسلوب في تراثنا القديم قد ارتبط بعدة مسارات، " فهو يدل على طرق العرب في أداء المعنى، أي الخواص التعبيرية التي تتناسب وكيفية أداء المعنى المقصود، كما يرتبط مفهوم الأسلوب بالنوع الأدبي، على معنى إن الخواص التعبيرية تتمايز من جنس أدبي إلى جنس آخر فللشعر طريقه، وللنثر أساليبه، وقد يمتد مفهوم الأسلوب إلى

(1) انظر ابن الوردي، الديوان، ص119-128.

(2) انظر سورة النساء، آية رقم 157.

(3) ابن الوردي، الديوان، ص228.

(4) انظر عبده قلقيله، النقد الأدبي في العصر المملوكي، ص224-228.

الاتصال بشخصية المبدع، وقدرته الفنية، وإمكاناته الخاصة في اختيار مفرداته ثم تركيبها على نحو مميز في الشعر أو في النثر " (1).

ودارس أدب العصر المملوكي، يكتشف كثيراً من الأساليب الأدبية التي امتاز بها أدب هذا العصر، كان منها الاعتماد على المحسنات البديعية، والاعتماد على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والشعر، والأمثال، وقصص العرب (2).

ويجد أدباء العصر متقنين، يتقنون في عرض أدبهم، ويحرصون كل الحرص على أن يكون لأدبهم وتأليفهم إيقاعات موسيقية مؤثرة، وبخاصة أولئك الأدباء الذين عملوا في ديوان الإنشاء، حيث اعتنت الدولة كثيراً بهذا الديوان، حتى كان " يتخذ كمعهد علمي يتخرج فيه من يريد أن يشغل منصبا من مناصبه، وقد دفعت أهمية هذا الديوان من يريد الوصول إلى مناصبه أن يأخذ بحظ كبير من الثقافة (3).

ويتسم أدب هذا العصر بكثيرٍ من الخصائص الأسلوبية التي تدل على ثقافة الأدباء الواسعة، أجملها في الآتي:

أولاً: التناس

عرّف الكثير التناس، وقدموا دراسات كثيرة حول هذه الظاهرة، القديمة الحديثة حتى وجد الدكتور محمد مفتاح التناس " بمثابة الهواء والماء والزمان والمكان للإنسان، فلا حياة له بدونها، ولا عيشة له خارجهما " (4)، وقدم تعريفاً للتناس من خلال استخلاص مقوماته، فكان

(1) محمد عبد المطلب، بناء الأسلوب في شعر الحداثة (التكوين البديعي)، كلية الآداب جامعة عين شمس، ط2، 1995م، دار المعارف، ص17.

(2) انظر ذكريات سليمان موسى الحمامرة، صدى الغزو المغولي في النثر الفني الأدبي ص116. رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص177.

(3) انظر ذكريات موسى الحمامرة، صدى الغزو المغولي، ص129.

(4) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناس)، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص125.

منها: " أنه فسيفساء من نصوص أخرى أدمجت في النص بتقنيات مختلفة، ومعنى هذا أن التناص هو تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة " (1).

فكان لا بُدَّ أن تترك النصوص المقروءة أثراً لغوياً أو معنوياً لدى القارئ، الذي بدوره يعتمد في كتاباته على ما تأثر به، واعياً أو غير واع، وترى ليديا وعد الله، " أن ظاهرة التناص - تفاعل النصوص وانفتاحها على بعضها البعض - قديمة قدم الممارسة النصية ذاتها" (2).

وقد استخدم الأدباء في عصر الناصر محمد بن قلاوون، أساليب متنوعة من التناص، كان أولها:

أ- التناص الديني

أولاً: أثر القرآن الكريم

الملاحظ أن آية أو جزء آية من القرآن الكريم يقتصر على النثر دون الشعر، وهذا ما اتفق عليه العلماء في قولهم: "إنَّ الشاعر لا يقتبس، بل يعقد ويضمّن، أما النثر فهو الذي يقتبس، كالمُنشئ والخطيب" (3).

حيث بدا الأثر الديني جلياً في أدب العصر المملوكي، فقد أحسَّ فيه الأدباء بحاجتهم الماسة للتقرب إلى الله تعالى، والتوسل إليه في رد كيد أعداء الإسلام، الذين يهدفون إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، فكان قتالهم قتالاً عقدياً أكثر منه سياسياً، فهو قتال بين الكفر والطغيان من جهة والإسلام والمسلمين من جهة أخرى، والمنتصر هو الذي يفرض عقيدته، ويهدم عقيدة عدوه.

وبدت نزعة الدعوة إلى الجهاد، وإنقاذ الأمة، ظاهرة غالبية على هذا الأدب مستمدة ألفاظها ومعانيها من القرآن الكريم، سواء في الحث على الجهاد، أم في وصف هذا الجهاد وتصويره، أم

(1) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، ص 121.

(2) ليديا وعد الله، التناص المعرفي في شعر عز الدين المناصرة، عمان، دار جدلاوي، 2005م، ص 10.

(3) ابن حجة، خزانة الأدب، ج 2، ص 459.

في رسم الصورة الأمتل التي تصور القائد الذي حقق آمال الأمة، وهزم أعداءها، وقد تجلى أثر القرآن الكريم في صورتين:

التأثر بالمعاني والصور، واستخدام القصص القرآني⁽¹⁾، إضافة إلى استخدام الآيات القرآنية شاهداً ودليلاً على القول، وهذا مظهر في معظم رسائل ذلك العصر، سواء الرسائل السلطانية الصادرة عن السلطان محمد بن قلاوون⁽²⁾، أم الرسائل الواردة إليه من السلاطين⁽³⁾، أم من غيرهم، أم في المراسيم السلطانية في مختلف أمور الدولة⁽⁴⁾.

أما التأثر بالمعاني، فقد ورد في القرآن الكريم كثير من المعاني والصور التي استغلها الأدباء، وأسقطوها على أدبهم، لإضفاء لمسات دينية ذات تأثير واضح، فلم يكن نصر السلطان محمد بن قلاوون نصراً عادياً، يتغنى به الشعراء كغيره، لكنه كان نصراً بعد هزائم، وبعد ظلم واضطهاد، لذلك جعله الأدباء فتحاً مبيناً تشبيهاً له بفتح مكة، الذي نقل الإسلام نقلة نوعية، وكان الأساس الأقوى للانطلاق بالدعوة، وبناء الدولة، فهذا الشاعر شرف الدين بن الوحيد، يجعله فتحاً مبيناً في أول بيت من قصيدته⁽⁵⁾، وهذا الشاعر محمد البراز المنبجي يجعله فتحاً على جبهة الإسلام طال انتظاره⁽⁶⁾، ويعود الشاعر جمال الدين أبو بكر ليؤكد هذا الفتح المبين قائلاً⁽⁷⁾:

وهوَّ الصَّعبَ بالفتحِ المُبِينِ لَكُمْ رَبُّ يَهونُ عَلَيْهِ المَقْعَلُ العَسِيرُ

(1) مأمون فريز جزار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص 241.

(2) انظر رسالة السلطان محمد بن قلاوون إلى غازان ملك التتار، الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 7، ص 266-272. المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1016-1023.

(3) انظر رسالة محمود غازان إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1016-1023. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 136-168.

(4) انظر مرسوم السلطان في عقيدة ابن تيمية، الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 139-142.

(5) (الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 89.

(6) المصدر نفسه، ج 9، ص 91.

(7) المصدر نفسه، ج 9، ص 94.

وهم في هذا المعنى يتأثرون في المعنى الذي تحمله الآية القرآنية في وصف فتح مكة: [إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا] ⁽¹⁾، وهي سورة الفتح، التي ذكرها باسمها علاء الدين علي بن عبد الظاهر، في كتابه "الروض الزاهر"، في أثناء وصفه جيش المسلمين قائلًا: "... والدروع قد لزمت الأبطال قائلة: لا أفارق الأبدان حتى تتلى سورة الفتح المبين... " ⁽²⁾، ويورد الآية كاملة، بعد أن أخبرنا وأعلمنا عن نصر المسلمين، يقول: "... ولسان النصر يتلو على السلطان" أننا فتحنا لك فتحاً مبيناً " ⁽³⁾.

وهذا الربط بين فتوح الإسلام الكبرى في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، وبين فتوحات قادة المماليك بارز في أدب الجهاد، وذلك لبيان أن انتصارات هؤلاء القادة المسلمين هي إمتداد لانتصارات أسلافهم في سبيل رفع شأن المسلمين.

وقد تمثل أثر القرآن الكريم في كتاب "الروض الزاهر" في جوانب عديدة ؛ كان منها اقتباس الآية القرآنية كاملة أو كلمة من الآية وهذا هو الإجماع في تعريف الاقتباس ⁽⁴⁾، أو حلّ الآية القرآنية مع بقاء شيء من لفظها.

وقد أشار ضياء الدين بن الأثير إلى ذلك، قائلًا: "وأما حلُّ آيات القرآن العزيز، فليس كنثر المعاني الشعرية، لأن ألفاظه ينبغي أن يحافظ عليها لمكان فصاحتها، إلا أنه لا ينبغي أن يؤخذ لفظ بجملة، فإن ذلك من باب "التضمين"، وإنما يؤخذ بعضه... " ⁽⁵⁾.

وهذا ما قام به علاء الدين بن عبد الظاهر، حيث ضمّن في كتابه الكثير من الآيات القرآنية بجملتها في مواقع، وفي مواقع أخرى أخذ بعض ألفاظ هذه الآيات للدلالة على المعنى الذي يريد.

⁽¹⁾ سورة الفتح، آية رقم (1).

⁽²⁾ المقرئزي، الملوك، ج1، ق3، ص1030.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج1، ق3، ص1033.

⁽⁴⁾ انظر ابن حجة الحموي، تقي الدين أبا بكر علي، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، م2، ص455.

⁽⁵⁾ ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص170.

ومن أمثلة ذلك، قوله في وصف سير جيش السلطان الناصر: "... ويطوي المراحل، طيَّ السجل للكتاب " (1)، وهو بهذا يتناص مع الآية القرآنية التي تصف أهوال يوم القيامة قوله تعالى: [يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِّلِ لِلْكِتَابِ...] (2)، وهو بهذا المعنى يهدف إلى تعظيم هول المعركة، وتعظيم قوة جيش المسلمين، حتى وصف ما أوقعوه على الأعداء من عذاب، كما أوقع الله تعالى عذابه على الكافرين، يقول علاء الدين في كتابه: " فنهض بعض العساكر المؤيدة، فأخذتهم أخذ القرى وهي ظالمة... " (3)، متأثراً بالمعنى الذي تحمله الآية القرآنية: [وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ] (4)، وهدف الكاتب من هذا الاقتباس بيان عقيدة أعداء الإسلام، وأنهم كفرة يستحقون ما أوقع فيهم جيش الإسلام من عذاب.

ويستمر علاء الدين بن عبد الظاهر، في وصف المسلمين وصفاً - انتقاه من القرآن الكريم ووصف أعداءهم وصفاً انتقاه أيضاً من القرآن الكريم للقوم الظالمين، ويقول في وصف منة الله على المسلمين: " وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه " (5). فهو في قوله يضمن الآية القرآنية حرفياً، يقول الله تعالى: [وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ] (6)، وهذه دلالات على أن جنود المسلمين هم جنود الله المؤيدين بنصره.

ولم يكن تأثر ابن عبد الظاهر بالقرآن الكريم، إلا لإسباغ صفة الكفر والطغيان على الأعداء، والإطمئنان إلى مصير المؤمنين الذين يقف الله إلى جانبهم ويؤيدهم بنصره.

وانظر إليه أيضاً، في وصفه للحروب، يقول: " وقامت الحرب على ساق، والتفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق " (7) يشبهها بيوم القيامة، لهول وقعها، ويضمن الآية القرآنية

(1) المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص1029.

(2) سورة الأنبياء، آية رقم 104.

(3) المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص1029.

(4) سورة هود، آية رقم 102.

(5) المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص1029.

(6) سورة الفتح، آية رقم 20.

(7) المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص1031.

التي تصف يوم القيامة، قول الله عز وجل: ﴿وَأَنفَتِ الْأَسَاكُ بِالسَّاقِ ۖ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَذِ الْمَسَاقِ ۖ﴾ (1)، ويُنابح كتابه مقتبساً آيات قرآنية كثيرة منها قول الله عز وجل: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ۖ﴾ (2)، في قوله: "والمؤمنون قد وفوا بما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر" (3).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ۖ﴾ (4)، اقتبس الكاتب هذه الآية لتصوير مصير الكافرين بعد الهزيمة، يقول: "وينظرون فيما أسلفوه من ذنوب، ولسان الانتقام يتلو عليهم، يوم ينظر المرء ما قدمت يداؤه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً" (5).

وتعجُّ مراسيم السلطان بالافتباس من القرآن الكريم، فهذا مرسوم السلطان محمد بن قلاوون، منذ بدايته يقتبس كاتبه الآيات القرآنية، لتُسعر بجزالة الموضوع، يقول مقتبساً الآية القرآنية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۖ﴾ (6)، في قوله: "الحمد لله الذي تنزه عن الشبيه والنظير، وتعالى عن المثل، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير" (7).

ويقول في موقع آخر، مُصَوِّراً عمل الخير: "والطريق التي من سلكها فقد فاز فوزاً عظيماً" (8)، مقتبساً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۖ﴾ (9).

وافتبس علماء بغداد آيات من القرآن الكريم، في كتبهم الموجهة إلى السلطان الناصر في نصرة شيخ الإسلام ابن تيمية، مُستشعدين بهذه الآيات، لتكون عوناً لهم لإيصال المعنى الذي يريدون، منها في أحد الكتب: "اللهم إنَّ بابك لم يزل مفتوحاً للسائلين، ورفدك مما برح مبذولاً

(1) سورة القيامة، آية رقم (29، 30).

(2) سورة الأحزاب، آية رقم 23.

(3) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1032.

(4) سورة النبأ، آية رقم 40.

(5) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1032.

(6) سورة الشورى، آية 11.

(7) الدوادري، كنز الدرر، ج 9، ص 139.

(8) المصدر نفسه، ج 9، ص 139.

(9) سورة الأحزاب، آية 71.

للوافدين...، "وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون"⁽¹⁾، مقتبساً الآية القرآنية، قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾⁽²⁾.

ويقتبس الدواداري الكثير من الآيات القرآنية، في سياق حديثه عن الناصر، ومجريات الأحداث في عصره، ففي وصفه معركة المسلمين والمغول في مرج الصفر، يقول، مقتبساً آيات كثيرة من الذكر الحكيم، مُستعيناً بها لإيفاء المعنى: "وَقَدْ كُتِبَ بِالنُّورِ عَلَى تَاجِهِ ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽³⁾... وهذه الليلة مع همومهم كانت عليهم أَقْصَرُ مِنْ طَيفِ الْخِيَالِ وَإِنْ ﴿سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾⁽⁴⁾... فَأَصْبَحُوا جَانِثِينَ ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾⁽⁵⁾...⁽⁶⁾. وهكذا يستمر في معظم فقراته بالافتباس الذي يطول ذكره، والذي يدلُّ على صورة السلطان الدينية والتأييد الإلهي له، وكُفر المغول وظلمهم ومصيرهم الذي يشبه مصير الأمم التي عاقبها الله.

أما حلّ الآيات، وأخذ بعض ألفاظها من الأمثلة عليه، ما ذكره علاء الدين بن عبد الظاهر عندما وصف هزيمة التتار، قال: "لَوْ عَلِمُوا سُوءَ صَبَاحِهِمْ، لَفَرُوا عِشَاءً وَنَجَوْا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُتْلَى فِي حَقِّهِمْ: وَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ"⁽⁷⁾، متأثراً بالآية القرآنية قوله تعالى: ﴿أَفَعَدَّيْنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾⁽⁸⁾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِطِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾⁽⁹⁾.

وفي موقع آخر يجعل نصر الله للمؤمنين نصراً عظيماً، وتأييداً بجنود من عنده، يقول: "وَأَنْزَلَ اللَّهُ نَصْرَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَأَيَّدَهُمْ بِجُنُودٍ لَمْ يَرَوْهَا"⁽⁹⁾، وهذا المعنى مقتبسٌ من قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾⁽¹⁰⁾.

⁽¹⁾ الكرعي، الكواكب الدرية، ص 167.

⁽²⁾ سورة العنكبوت، آية 43.

⁽³⁾ سورة الصف، آية 13.

⁽⁴⁾ سورة الحاقة، آية 7.

⁽⁵⁾ سورة الصافات، آية 177.

⁽⁶⁾ الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 83-87.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1032.

⁽⁸⁾ سورة الصافات، آية رقم 176، 177.

⁽⁹⁾ المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1033.

⁽¹⁰⁾ سورة التوبة، آية رقم 40.

ومن الأمثلة عليها بعض جمل علاء الدين في كتابه: "والملائكة تحييه عن ربّه، وتتلو عليه وعلى جيوشه ادخلوها بسلام"⁽¹⁾، وقال: "ادخلوا مصر إن شاء الله آمين"⁽²⁾، متأثراً بقوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾⁽³⁾، فكما هو مصير المؤمن عند ربّه، جنّةٌ ونعيماً، فإنّ مصير المجاهد، الحصول على الأمن والسلام والرضا.

أما الشعر، فقد اقتصر على التأثير بألفاظ القرآن الكريم، حيث اختار كثيرٌ من الشعراء ألفاظاً من القرآن الكريم، في وصف نصر المؤمنين، أو هزيمتهم، متأثرين بكتاب الله عزّ وجلّ، فهذا محمد البزاز المنبجي يصف هزيمة التتار، قائلاً⁽⁴⁾:

أَتَوْا وَقَدْ مَكَرَ اللَّهُ الْعَزِيزُ بِهِمْ فَرَدَّ طُغْيَانَهُمْ بِالْغَيْظِ إِذْ مَكَرُوا
متأثراً بالمعنى الذي يحمله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾⁽⁵⁾، ويقول أيضاً في وصف خوف الأعداء⁽⁶⁾:

وَصَافَتْ الْأَرْضُ مَذًى وَلَوْ بِمَا رَحَبَتْ عَلَيْهِمْ فَهُمْ بِالْخَوْفِ قَدْ حُصِرُوا
فهو يستوحي معناه من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَسَتْ مَذْرِبُكُمُ الْيَوْمَ﴾⁽⁷⁾، وقوله تعالى: ﴿أَلَا الْفَلَكَةُ الَّتِي خَلَفُوا حَتَّىٰ پَ صَافَتْ عَلَيْهِمُ بِمِا رَحَبَتْ﴾⁽⁸⁾.

(1) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1035.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1037.

(3) سورة الحجر، آية 45-46.

(4) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 92.

(5) سورة آل عمران، آية 54.

(6) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 93. انظر رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص 178.

(7) سورة التوبة، آية 25.

(8) سورة التوبة، آية 118.

ويختار جمال الدين أبو بكر معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنَّ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ (1)، ليزين به قصيدته، مؤكداً أن النفع والضرر بيد الله تعالى، يقول (2):

وَأَبْرَزَ الْقَدَرَ الْمُحْتَمُومَ بَارِئُهُ سُبْحَانَهُ بِيَدَيْهِ النَّفْعُ وَالضَّرَرُ
ويقول في بيت آخر مُصَوِّراً ما فعله الأعداء بالمسلمين، مُشْجَعاً جيش الإسلام وواصفاً أعمال التتار وظلمهم وعدوانهم بنار جهنم (3):

إِنْ تَتْرَكُوهُمْ فَإِنَّ الْقَوْمَ مَا تَرَكُوا يَوْمًا عَلَيْكُمْ وَلَا أَبْقُوا وَلَمْ يَذَرُوا
وهو بهذا المعنى يتأثر بقول الله تعالى في وصف نار جهنم: ﴿لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرٌ﴾ (4)، ويكتب الدواداري عن الناصر محمد قائلاً: "أدام الله أيامه إلى آخر الأبد، وكفاه شر حاسد إذا حسد" (5)، متأثراً بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (6).

ويمدح صفي الدين الحلّي السلطان الناصر محمداً، واصفاً مصر والنيل وقد زهت بوجوده، يقول (7):

وَبِهِ الْجَوَارِي الْمُنْشَاتُ كَأَنَّهَا أَعْلَامُ بَيْدٍ، أَوْ فُرُوعُ قَنَانٍ
فهو في هذا المعنى يتأثر بالآية القرآنية، قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (8)، ليدلّ على الخير والحركة التي عمّت النيل بعد عودة الناصر.

(1) سورة الفتح، آية 11.

(2) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 94.

(3) المصدر نفسه، ج 9، ص 96.

(4) سور المئثر، آية 28.

(5) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 64.

(6) سورة الفلق، آية 6.

(7) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 100.

(8) سورة الرحمن، آية 24.

ولم يكن أديب في العصر المملوكي يحشد في أدبه كثيراً من الآيات القرآنية والمعاني والألفاظ الدينية أكثر من "ابن الوردي" الذي أكثر من الاقتباس، حتى يلاحظ القارئ، أن معظم جملة مقتبسة.

وقد ظهر الأثر الديني جلياً، في المقامة الدمشقية المعروفة "بالصفو الحريق في وصف الحريق"، وهي في وصف حريق سنة 740هـ، الذي أحدثه النصارى في بيوت المسلمين ومساجدهم، حيث ترخر المقامة بآيات من القرآن الكريم⁽¹⁾، تحتاج إلى دراسة كاملة للإلمام بها.

أما معاني القرآن الكريم وألفاظه، فمن الأمثلة عليها عند ابن الوردي، بعض جمل المقامة يقول في موقع: "وثارت النار... فتبت يدا أبي لهبها"⁽²⁾، متأثراً بالآية القرآنية: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ﴾⁽³⁾، حيث يتوعد الله تعالى أبا لهب بالعذاب الشديد، مقابل ما فعله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا هو المعنى الذي قصده ابن الوردي، حين شبه النصارى بأبي لهب، ليستحقوا عذاب الله.

ومن جملة أيضاً في وصف الذهول الذي أصاب النائب ومماليكه، يقول ابن الوردي: "وجاست مماليكه الحسان خالها"⁽⁴⁾، متأثراً بقوله تعالى: ﴿فَجَاسُوا خَلَلِ الدِّيَارِ﴾⁽⁵⁾.

ويقول ابن الوردي أيضاً في وصف صباح اليوم التالي للحريق: "بغيط أحم الصبح فتفّس الصعدا"⁽⁶⁾، وكأنه لا يستطيع أن يتنفّس وهو يشتم رائحة الدخان التي ملأت الأرجاء، فيبدأ بالظهور تدريجياً وببطء، متأثراً بقوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾⁽⁷⁾، تُعبّر الآية القرآنية عن ظهور الصبح تدريجياً، وكأنه يُنزع من الظلمة.

(1) انظر ابن الوردي، الديوان، ص 119.

(2) المصدر نفسه، ص 120.

(3) سورة المسد، آية 1.

(4) ابن الوردي، الديوان، ص 125.

(5) سورة الإسراء، آية 5.

(6) ابن الوردي، الديوان، ص 126.

(7) سورة التكوين، آية 18.

ويتابع ابن الوردي، متأثراً بالقرآن الكريم، حتى يستخدم أسماء سور القرآن الكريم في وصف الحريق لتعطي المعنى المقصود، يقول: "أحزاب"، و"زمر"، و"جاثية"، و"غاشية"، و"الدخان"⁽¹⁾، وكلها أسماء لسور من القرآن الكريم، وهي تعطي ابن الوردي المعنى الذي يريده في تصوير هَوَل الحريق وشِدَّتِه.

وهذه مقامة الصفدي، في وصف حريق دمشق، المسمّاة "رشف الحريق في وصف الحريق"، يتأثر كاتبها بالقرآن الكريم، آياته ومعانيه وألفاظه، يقول في إحدى فقراتها: "وصبروا على النار والشَّعَثَ بعد النعيم والنضارة، وكادت نارها تكون كنار القيامة، ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾"⁽²⁾،... فكم زمر، أضحت لذلك الدخان جاثية، وكم نفس كانت في النازعات، وهي تتلو: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَشِيَةِ﴾"⁽³⁾..."⁽⁴⁾.

متأثراً بالقرآن الكريم، مقتبساً آياته، وأسماء سورته، مثل: "زمر"، و"الدخان"، "النازعات"، ومع ذلك تبقى مقامة الصفدي لوحة مزخرفة الألفاظ، دون المعاني، يظهر فيها التكلف، بتعمد من الكاتب، ليظهر قدرته الأدبية، دون أن يوفق بشدّ القارئ أو تشويقه.

إضافةً إلى التناصّ اللفظي والمعنوي مع آيات القرآن الكريم، وُجِدَ حشدٌ من الألفاظ الدينية، لا تكاد تخلو قصيدة أو رسالة أو مرسوم منها، ولهذه الألفاظ دلالات دينية، فهي توحى بالتمسك بالإسلام، والافتخار به، ومحاربة الشرك والطغيان، والاستهزاء بالكافرين وهزيمتهم، فقد أكثر الشعراء من استخدام ألفاظ "الطغيان" و"الكفر" في وصف التتار أعداء الإسلام، فهذا محمد المنبجي، يصف التتار بالبُغاة، ووصف عملهم بالطغيان، وهذا الطغيان والظلم هو الذي أهلكهم وجعلهم يُهزَمون على يد المسلمين، يقول⁽⁵⁾:

إِنَّ الْبُغَاةَ بَنِي خَاقَانَ أَقْدَمَهُمْ عَلَى هَلَاكِهِمُ الطُّغْيَانُ وَالْأَشْرُ

(1) ابن الوردي، الديوان، ص 120.

(2) سورة البقرة، آية 24.

(3) سورة الغاشية، آية 1.

(4) مقامة الصفدي "رشف الحريق في وصف الحريق"، ص 102-104.

(5) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 91.

ويؤكد السلطان محمد بن قلاوون، طغيان التتار، ممثلين بملكهم "غازان" في مرسومه له بعد معركة مرج الصفر، ويجعل طغيانهم وبغيهم سبباً في هزيمتهم، يقول: "... وقلدناك من البغي ما عاد وبأله عليك...، وقد فهمنا مقصدك ومرمائك، فأرسلنا إليك ما طلبت، وركبناك فرس البغي، فيا بنس ما ركبت..."(1).

ويستوحي الشاعر شرف الدين بن الوحيد ألفاظه من قاموس الألفاظ الدينية، في موازنة بين الإسلام والكفر، والهدى والشرك، فهو لم يجعل النصر نصراً للشجاعة على الضعف، فهذا لا يعطي الشعر المعنى الذي قصده، لأنه تعمد إظهار الصورة الدينية، والنزاع العقائدي، يقول(2):

حَبَانَا إِلَهَ الْخَلْقِ بِالنَّصْرِ وَالْهُدَى عَلَى الشَّرِّكِ وَالْإِيمَانُ قَدْ غَلَبَ الْكُفْرَا
واستخدم الأدباء ألفاظاً وعبارات دينية إسلامية، في وصف النصر، وفي وصف تأييد الله سبحانه وتعالى للناصر محمد بن قلاوون، جاعلين صفاته الدينية سبباً رئيسياً لهذا التأييد، وفي هذه الألفاظ شعوراً بالاطمئنان بيبته الأديب في نفسه وفي نفوس مَنْ حوله، ليزيدهم ثباتاً، ويحثهم على الجهاد في سبيل الله.

ومن ذلك، تصوير تأييد الله سبحانه للملك الناصر محمد بن قلاوون، قول ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر مُصَوِّراً الناصر محمداً(3):

لَكَ اللَّهُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعِينٌ وَبِالنَّجْحِ فِيهَا كَافِلٌ وَضَمِينٌ
وقول شمس الدين بن سواده(4):

وَنَوَّلَكَ اللَّهُ مَا رُمَّتْهُ وَسَهَّلَ بِالنَّصْرِ صَعْبَ الْعَسِيرِ

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 119.

(2) ابن الوردي، الديوان، ج 9، ص 89.

(3) المصدر نفسه، ج 9، ص 190.

(4) المصدر نفسه، ج 9، ص 190.

وقول محمد المنبجي، الذي جعل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقدم الوعد للمسلمين بالنصر، لأنهم قاموا بواجبهم الديني، يقول⁽¹⁾:

مِنْ سَيِّدِ الرُّسُلِ بِالتَّأْيِيدِ قَدْ وُعِدَتْ فَالنَّصْرُ يَخْدِمُهَا مَا زَالَ وَالظَّفَرُ
ويتأثر صفي الدين الحلي بالألفاظ الدينية، فيستعمل ألفاظ الصلاة "القصر" و"الجمع" في بيت واحد، يقول⁽²⁾:

فَتَى يَكْرَهُ التَّقْصِيرَ حَتَّى تَظُنُّهُ يَكُونُ حَرَاماً عِنْدَهُ الْجَمْعُ وَالْقَصْرُ
إضافةً إلى هذا، فهناك كثيرٌ من الألفاظ والعبارات الدينية، التي حشدت في الأدب، منها "ناصر الدين"، و"قرت به أعين الإسلام"، و"الله أكبر"، و"الحمد لله"، و"الملاك"، و"المساجد"، و"جامع"، وأسماء الكتب السماوية، التي حشدها جمال الدين أبو بكر في بيت واحد، مُعَرِّباً ومُعَبِّراً عن فرحته بنصر المسلمين في معركة مرج الصفر، جاعلاً إيمان الملك الناصر وتمسكه بالدين من أهم أسباب النصر، وهذا التمسك بالدين هو ما نعت به الله سبحانه وتعالى أوليائه المسلمين في جميع الكتب السماوية، يقول⁽³⁾:

مَاذَا أَقُولُ بِمَدْحِهِ وَقَدْ تَلَيْتُ فِي مَدْحِ آبَائِهِ الْآيَاتُ وَالسُّورُ
جَاءَتْ بِنِعْمَتِهِمُ التَّوْرَةُ مُعَرِّبَةً وَمُحْكَمِ الذِّكْرِ وَالْإِنْجِيلُ وَالزُّبُرُ
يعبر الشاعر في هذه الأبيات عن مدح الله سبحانه وتعالى أوليائه المؤمنين في كتابه العزيز، والسلطان الناصر مع والده يستحقان هذا المدح، لأنهم عملوا على إرضاء الله تعالى.

ويقول أيضاً مُصَوِّراً إيمان خليفة المسلمين أبي الربيع سليمان، مستخدماً ألفاظ الحج والعمرة⁽⁴⁾:

وَزَمَزَمُ وَالصَّافَا وَالْمَأْزَمَانِ مَعَا وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحَجَرُ وَالْحَجَرُ

⁽¹⁾ ابن الوردي، الديوان، ج 9، ص 92.

⁽²⁾ صفي الدين الحلي، الديوان، ص 378.

⁽³⁾ الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 99.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ج 9، ص 99.

يُعبّر الشاعر عن حرص خليفة المسلمين على أداء فريضة الحجّ، باستمرار حتى أصبح المكان يعرفه لكثرة تردّده إليه.

وفي دعوة خالصة لوجه الله تعالى، يدعو المسلمين للمحافظة على دينهم، والقيام بواجباتهم الدّينية، شكراً لله على هذا النصر، كي يستمر ويدوم، يقول⁽¹⁾:

صُومُوا وَصَلُّوا وَزَكُّوا وَارْحَمُوا وَصَلُّوا وابغُوا النِّجَاةَ وَحُجُّوا الْبَيْتَ وَاعْتَمِرُوا
وَيُطَمِّنُ نفسه والمسلمين، ويبثّ في نفوسهم الأمن والأمان، فهم المُجاوِرون للقدس الشريف، وخليل الرحمن، هذه الأرض التي وُعدت بالطهارة، وأعزّها الله تعالى وذكرها بالقرآن الكريم، فكيف إذن تضام؟!، يقول⁽²⁾:

حَاشَا دِمَشْقَ مِنَ الْأَسْوَاءِ تَطَرَّفُهَا أو أن تُغَيِّرَهَا عَنْ وَصْفِهَا الْغَيْرُ
مَلَائِكُ اللَّهِ تَحْمِيهَا وَتَحْرُسُهَا تَعَاقِبُهَا وَلَهَا مِنْ رَبِّهَا خَفَرُ
وَفِي جَوَارِ خَلِيلِ اللَّهِ مَا بَرِحَتْ وَحَضْرَةُ الْقُدْسِ قُلْ لِي: كَيْفَ تُحْتَقَرُ؟
ويلاحظ تأثر الأدباء بقصص القرآن الكريم ذات الدلالات والإيحاءات التي يستمد منها الشعراء المعنى الذي يتوافق مع الحدث الذي يتحدثون عنه، فهذا الشاعر جمال الدين أبو بكر يتأثر بقصة موسى والخضر، التي وردت في القرآن الكريم وذكر ملازمة الخضر لموسى عليه السلام في رحلته⁽³⁾، يقول في وصف خليفة المسلمين أبي الربيع سليمان، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون اللذين ترافقا في رحلة الحرب والجهاد ضد الفرنج، فكما كانت رحلة موسى والخضر صعبة، كانت رحلة السلطان والخليفة⁽⁴⁾:

وَلَوْ رَأَيْتَهُمَا لَخَالَكَ أَنَّ موسى بن عمران قد وافاك والخضرُ
فَذَاكَ مَلِكٌ لَكُمْ طَابَتْ أَرْوَمَتُهُ وذا أميرٌ بأمرٍ الله يَأْتِمُرُ

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 98.

(2) المصدر نفسه، ج 9، ص 98.

(3) سورة الكهف، من آية 65-82.

(4) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 99.

ويتأثر كُتّاب الإنشاء في دولة الناصر بالقصص القرآنيّة، عند كتابتهم المراسيم السلطانية، مُظهرين براعتهم اللغوية والأدبية، فهذا كاتب المرسوم السلطاني لأهل النصيرية، يتأثر بقصة موسى عليه السلام، يقول في وصف المقرّرات التي تفرض ظلماً وطغياناً: "ويحتجّ في ذلك بقرارات سحت لا تجدي نفعاً، وتبقى بين يدي أخذها كأنّها حيّة تسعى"⁽¹⁾، فهو قد تأثر بالآية القرآنية قول الله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَىٰ ۖ فَالْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۚ ﴾⁽²⁾.

أما علاء الدين بن عبد الظاهر، فلم يتوان عن مدح السلطان الناصر محمد بن قلاوون وهو يصف دخوله مصر منتصراً، جاعلاً أهلها لا يُصدّقون أنّ هذا بشرٌ، يقول: "وشاهدت عيون أهلها، فلما رأينّه أكبرنّه وقطعن أيديهنّ وقلن حاشَ لله ما هذا بشراً، إنّ هذا إلهٌ كريم"⁽³⁾، وهو في قوله هذا يتأثر بقصة سيدنا يوسف عليه السلام، التي ذُكرت في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۖ ﴾⁽⁴⁾، يهدف الكاتب من هذه القصة إظهار السلطان بصورة عظيمة مختلفة عن بقية البشر، فهو عند دخوله مصر منتصراً يتجلّى الجمال في وجهه من فرح النصر، ويظهر بصورة الملك.

ويتأثر في موقع آخر، بقصة قوم عاد، الذين كان لهم طول لم يُعطَ لغيرهم وقوة لا تُوصف، ذُكروا في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَرُبُّكَ يُعَادِ ۖ ۚ إِرْمَ ذَاتَ الْعِمَادِ ۖ ﴾⁽⁵⁾ التي لم يُخلَقْ مثُلهَا في الْبَلَدِ⁽⁶⁾، وتأثر الكاتب بقصّتهم، وهو يصف الأسارى من أعداء المسلمين، الذين أُسروا في معركة مرج الصفر، مخذولين، ونظروا إلى قوة المسلمين، وقوة مدنهم، فتخلّوا عنها لِقَوْم عاد لِقَوَّتْهَا يقول: "والأسارى قد جُعِلوا بين يديه مُقرّتين في الأصقَاد، يُشاهدون مدينة ماثلت إرم ذات العمد، التي لم يُخلَقْ مثُلهَا في البلاد"⁽⁶⁾.

(1) المقرّبي، السلوك، ج 2، ق 3، ص 939.

(2) سورة طه، آية 19-20.

(3) المقرّبي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1036.

(4) سورة يوسف، آية 31.

(5) سورة الفجر، آية 6-8.

(6) المقرّبي، السلوك، ج 2، ق 3، ص 1038.

وتأثر الأدباء بقصة سليمان عليه السلام، التي استوحى منها الشعراء، صورة للناصر محمد بن قلاوون، واصفين أعداءه بالشیطان الذي أخذ خاتم سليمان، وطرده عن ملكه وجلس على كرسيه، وحاول الغدر به لولا عناية الله⁽¹⁾، وهذا ما حدث مع الناصر الذي طرد عن ملكه، وتعرض للخيانة، ثم عاد إليه، يقول الشاعر⁽²⁾:

الملك الناصر قد أقبلت دولته مشرقة الشمس
عاد إلى كرسيه مثل ما عاد سليمان إلى الكرسي

وتأثر الشاعر ناصر الدين بن النقيب، بقصة سليمان عليه السلام، وملكه الذي امتد حتى شملت سلطته جميع الكائنات من إنسان وحيوان، وهذا ما تمناه الشاعر للناصر محمد بن قلاوون عندما قال⁽³⁾:

أعدت للدولة الغراء بهجتها فاملك كملك سليمان بن داود

فهو ملك لم يعط لغيره، تمناه من الله تعالى فأجاب له سؤاله، وسخر له من الأشياء، التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده، ولم يكن أيضاً لمن كان قبله، قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾⁽⁴⁾، ومع علم الشاعر أن هذا الملك لسليمان، لا يهبه الله لأحد بعده، إلا أنه يتمناه للسلطان تعبيراً عن حبه وتقديره.

ويتأثر صفي الدين الحلي، بقصة لقمان الحكيم، الذي أنزل الله سبحانه وتعالى على لسانه وعظاً وحكماً، وآتاه الله العلم والديانة والإصابة في القول، وجعله يعظ أقرب الناس إليه، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾⁽⁵⁾.

(1) محمد بيومي، قصص القرآن الكريم، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط 1، 1999م، ص 356-357.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 94.

(3) العيني، عقد الجمان، ج 3، ص 456.

(4) سورة ص، آية 35.

(5) سورة لقمان، آية 12.

وذلك يبدو في قول صفي الدين الحلي، مادحاً الناصر محمد⁽¹⁾:

فَلَنْ رَحَلْتُ، فَقَدْ تَرَكْتُ بَدَائِعاً غَصَبَتْ فُصُولَ الْحُكْمِ مِنْ لُقْمَانَ

حيث يجعل حكمة السلطان، كحكمة لقمان الحكيم.

هكذا كان القرآن الكريم، بسوره ومعانيه وألفاظه، منهل الشعراء، وقاموس الأدباء، يتأثرون فيه، مقتبسين ألفاظه ومعانيه، مُحلِّلين آياته مستنبطين منها المعنى الذي يهدفون إليه، في تصويرهم للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، ومُجريات الأحداث في عهده.

ثانياً: أثر الحديث النبوي الشريف

تأثر أدباء العصر المملوكي بالحديث النبوي الشريف، ولا عَجَب في ذلك إذ سيطرت النزعة الدينية على كتاباتهم، التي كان مصدرها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، الذي يُعدُّ من أهمِّ مصادر الكاتب.

ويبدو التأثير بالحديث لفظاً ومعنى واضحاً في كتابات الأدباء، وذلك بقصد إظهار ثقافتهم الدينية واللغوية، وقدرتهم على الكتابة، ففي نصِّ كتاب السلطان محمد بن قلاوون إلى غازان، يستشهد الكاتب بالأحاديث النبوية في غير موضع من الكتاب، لتوضيح المعنى وتثبيتته، يقول مبيناً ابتعاد التتار عن دين الإسلام، وما ادَّعائهم بامتثال أوامر الله ورسوله إلا باطلاً، يقول: "... ومتى اتَّصفت جيوشهم بهذه الأخلاق؟... كيف، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: "المسلم مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ"، وأسارى المسلمين عندهم في أشدَّ وثاق"⁽²⁾.

حيث تأثر الكاتب بالحديث الشريف: "المسلم مَنْ سَلِمَ المسلمون مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، والمهاجر مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ"⁽³⁾، موظفاً معنى الحديث، الذي يَحُثُّ على عدم الاعتداء وعدم

(1) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 102.

(2) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1021.

(3) البخاري، أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم بن برزويه البخاري الجعفي، صحيح البخاري، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، المجلد الأول، كتاب الإيمان، باب 4+5، ص 68.

التعرض للإسلام والمسلمين، في حثَّ غازانَ للامتنال بأوامرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والابتعاد عن الاعتداء على الإسلام وأهله، وفي هذا دلالة على الشك في صدق إسلام غازان.

وفي موضع آخر من الكتاب يقول الكاتب واصفاً الجيوش الإسلامية المُرابطة في سبيل الله: "... الموعودة بالنصر... الوثيقة بقوله صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على عدوهم إلى يوم القيامة، المُبلَّغة في نُصرة دين الله آملاً..."⁽¹⁾.

متأثراً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمرُ الله وهم ظاهرون"⁽²⁾.

ويتأثر الشعراء بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظاً ومعنى، حيث تأثروا بمعنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين قال: "أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ"⁽³⁾، تَلَقَّفَ الشعراء هذا المعنى، وجعلوه في شعرهم فافتخروا به على أعدائهم المهزومين، جاعلين خاصية الانتصار بالرعب على أعداء الإسلام، محصورة في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه، يقول محمد المنبجي⁽⁴⁾:

وَصَافَتْ الْأَرْضُ مُذْ وَلَّوْا بِمَا رَحِبَتْ عَلَيْهِمْ فَهُمْ بِالْخَوْفِ قَدْ حُصِرُوا

ويقول شاعر آخر، وقد جعل السلطان محمداً بن قلاوون ينتصر بالرعب⁽⁵⁾:

يَا أَيُّهَا النَّاصِرُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ نُصِرْتَ بِالرَّعْبِ وَالْأَعْدَاءِ قَدْ قُهِرُوا

ويقول ناصر الدين بن النقيب⁽⁶⁾:

قُرْنِ الرَّعْبِ فِي مُحَمَّدٍ بِالنَّصْرِ وَلَمْ يُشْرَعْ الْقَتْلُ الْمِيَادَا

⁽¹⁾ المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1022 + 1028.

⁽²⁾ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، باب 1175، ص 757.

⁽³⁾ المصدر نفسه، كتاب التَّيْم، باب 233، ص 209.

⁽⁴⁾ الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 93.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، ج 9، ص 192.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه، ج 9، ص 195.

ويُقول شاعرٌ آخر⁽¹⁾:

هُوَ النَّاصِرُ الْمَنْصُورُ بِالرُّعْبِ إِذْ غَدَا وَقَدْ فَرَّ مَنْ قَدْ خَانَهُ وَهُوَ هَارِبُ

ويتأثر الشاعر جمال الدين أبو بكر بالحديث النبوي الشريف عندما وصّف جيش

المسلمين وشجاعتهم قال⁽²⁾:

وَأُسْهِرُوا أَعْيُنًا فِي اللَّهِ مَا رَقَدَتْ أَكْرِمَ بِقَوْمٍ إِذَا نَامَ الْوَرَى سَهْرُوا

حيث يتأثر بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف المؤمنين الذين يعملون

جاهدين لحماية دين الله: "عَيْنَانِ لَا تَمْسَهُمَا النَّارُ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"⁽³⁾.

ويُكثرُ العلماء المسلمون في دفاعهم عن شيخ الإسلام ابن تيمية، من الاستشهاد بأحاديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم، في كتبهم إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكلّ حديث

كان يُغني المعنى وَيَزِيدُهُ ثَبَاتًا وَإِقْنَاعًا، جاء في كتبهم مخاطبين الناصر: "والذي عهده المسلمون

وتعوّده المؤمنون من المراحم الكريمة، والعواطف الرحيمة إكرام أهل العلم والدين، وإعظام

علماء المسلمين، والذي حمل على رفع هذه الأدعية الصريحة إلى الحضرة الشريفة وإن كانت

لم تزل مرفوعة إلى الله سبحانه بالنية الصحيحة، قوله صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة،

قيل: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قال: لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"⁽⁴⁾، وقوله صلى الله عليه

وسلم: "إنما الأعمال بالنيات"⁽⁵⁾، وهذان الحديثان المشهوران بالصحة مستفيضان في الأمة"⁽⁶⁾.

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 398.

(2) المصدر نفسه، ج 9، ص 94.

(3) الترمذي، الإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، اعتنى به أبو عبيدة مشهور بن حسن بن آل سلمان،

مكتبة العارف، الرياض، الطبعة الأولى، كتاب فضائل الجهاد، ص 385.

(4) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة.

(5) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي.

(6) الكرمي، الكواكب الدرية، ص 168.

هكذا كانت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ملهمة الأدباء في الأدب الذي واكب حقبة الناصر محمد.

ب- التناسل الأدبي

القارئ للأدب في العصر المملوكي، يجد تأثر الأدباء بمن سبقوهم، في المعاني والصور، والألفاظ، ويرى في هذا الأدب انجذاباً للقديم، وتمثل هذا الانجذاب في صور مختلفة، يمكن القول إن أولها "المعارضة"، حيث افتتن الشعراء في العصر المملوكي، بشعر المتنبي وأبي تمام، فهما من أنشدا مادحين ورائيين وواصفين، ولعل هذه المناسبات تتشابه مع مناسبات العصر المملوكي، الذي أنشد شعراؤه مادحين ورائيين ومحاربين وواصفين لذلك وجدوا في أشعارهم قرباً لهم ولأدبهم، يمكن أن يحاوروها ويعارضوها بمتلها جمالاً، أو بأجمل منها أو أقل جمالاً.

فهذا صفي الدين الحلّي قد أتقن المعارضة، لذلك نراه قد تأثر بقصيدة الرثاء التي قالها أبو تمام، عندما رثى محمد بن حميد الطوسي، بقصيدة يصفها النقاد أنها من أجمل أشعار أبي تمام، وهي مثل أعلى يُحتذى في فنّ الرثاء⁽¹⁾، عارضها صفي الدين الحلّي معارضة واعية، من أول القصيدة إلى نهايتها، متأثراً بالمعاني والأفكار والأوزان والقوافي، فهذا أبو تمام يبدأ قصيدة الرثاء بالدخول مباشرة في الموضوع، دون مقدمات تُذكر، فالموقف لا يتحمل مقدمات، يقول⁽²⁾:

كَذَا فَلْيَجَلِ الْخُطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لَعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عَذْرُ
تُوْفِّيتِ الْأَمَالَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفَرُ

وبالطريقة نفسها ودون مقدمات، يدخل صفي الدين الحلّي في رثائه للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، مع تضمين الشطر الأول من قصيدة أبي تمام، يقول⁽³⁾:

وَفِي لِي فِيكَ الدَّمْعُ إِذْ خَانَنِي الصَّبْرُ وَأُنْجَدَ فِيكَ النَّظْمُ إِذْ خُذِلَ النَّصْرُ

(1) انظر راجح نجيب محمد البهيني، أبو تمام الطائي حياته وحياته شعره، دار الثقافة، المغرب، ص 103-10. انظر فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ص 416.

(2) البهيني، أبو تمام، ص 103.

(3) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 377.

وَأُضْحَتْ تَقُولُ النَّاسُ وَالِدَسْتُ وَالْعُلَى كَذَا فَلْيَجَلِ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ

ثمَّ يخوض أبو تمام في عرض موضوعه، وبيان وتصوير هذا الحدث العظيم، والمصيبة الكبيرة التي حلت على الجميع، لموت مَنْ يرثي، مُصَوِّراً الأسباب التي جعلت الجميع يحزنون لفقده، وهي الشجاعة والكرم وقوة الإيمان، يقول⁽¹⁾:

فَتَى مَاتَ بَيْنَ الطَّغْنِ وَالضَّرْبِ مَيْتَةً
وَمَا مَاتَ حَتَّى مَاتَ مَضْرَبُ سَيْفِهِ
غَدَا غُدُوَّةَ وَالْحَمْدُ نَسْجُ رِدَائِهِ
كَأَنَّ بَنِي نَبْهَانَ يَوْمَ وَفَاتِهِ
يُعَزُّونَ عَنْ ثَاوٍ تُعَزَّى بِهِ الْعُلَا
تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِنْ فَاتَهُ النَّصْرُ
مِنْ الضَّرْبِ وَاعْتَلَّتْ عَلَيْهِ الْقَنَا السُّمْرُ
فَلَمْ يَنْصَرِفْ إِلَّا وَأَكْفَانُهُ الْأَجْرُ
نُجُومُ سَمَاءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِهَا الْبَدْرُ
وَيَبْكِي عَلَيْهِ الْيَأْسُ وَالْجُودُ وَالشَّعْرُ

وقد اقتدى به الحلِّي في عرض موضوعه وفي تصويره الحزن الذي أصاب الجميع، لفقد سلطانٍ لم يترك من صفات الشجاعة والكرم صفةً إلا تحلَّى بها، يقول⁽²⁾:

وَلَمْ يُغْنِ عَنْهُ الْجَاشُ وَالْجَيْشُ وَاللَّهُى
كَرِيمٌ أَفَادَ الدَّهْرُ مِنْهُ خَلَانِقَا
فَتَى ذَخَرَ الْحُسْنَى، فَأَعْقَبَ فِعْلُهُ
وَمِمَّا يُسْكِي النَّفْسَ حُسْنَ انْتِقَالِهِ
وَفَرَطُ النُّهَى وَالْحُكْمُ وَالنَّهْيُ وَالْأَمْرُ
فَأَيَّامُهُ مِنْهُ مُجَلَّلَةٌ غُرٌّ
عَوَاقِبُهُ الْحُسْنَى، فَقَدْ نَفَعَ الذُّخْرُ
عَقِيفَ إِزَارٍ لَا يُنَاطُ بِهِ وَزْرُ

ويصلُ الشاعران إلى الخاتمة، فتكونُ الخاتمة عند أبي تمام بإسدال السلام على هذا الجسد الطاهر، الذي شَرَّفَ الثرى، وجَعَلَ الأرضَ كُلَّهَا تستهي أن تكون قَبْراً له، يقول⁽³⁾:

مَضَى طَاهِرَ الْأَتْوَابِ لَمْ تَبْقَ رَوْضَةٌ
ثَوَى فِي الثَّرَى مَنْ كَانَ يَحْيَا بِهِ الثَّرَى
عَلَيْكَ سَلامُ اللَّهِ وَقَفَا فَإِنِّي
غَدَاةُ ثَوَى إِلَّا اشْتَهَتْ أَنَّهَا قَبْرُ
وَيَغْمُرُ صَرْفَ الدَّهْرِ نَائِلُهُ الْغَمْرُ
رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمْرُ

(1) البهيبتي، أبو تمام الطائي، حياته وحياة شعره، ص 104.

(2) صفي الدين الحلِّي، الديوان، ص 378.

(3) البهيبتي، أبو تمام الطائي، ص 104.

وبالسلام والدعاء للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، يختم صفي الدين الحلّي قصيدة الرثاء⁽¹⁾، كما سبق وتحدّث البحث في حُسن الخاتمة وبالفعل يُحسن الحلّي المعارضة، ويُتقن هذا الفن، فتأتي معارضاته رشيقة متينة، مُتقنة النظم، دون تكلفٍ ولا تعقيد.

يجد صفي الدين الحلّي، أيضاً في مدح المتنبي مجالاً ليعارضه في مدحه للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، مُعارضةً واعية، على نفسِ الوزن والقافية متأثراً بالمعاني في المطلع والمتن والخاتمة، حيث يفتح المتنبي قصيدته في المدح بالنسيب، مستغرقاً في ذلك أحد عشر بيتاً، منها⁽²⁾:

بأبي الشُّموسُ الجانحاتُ غوارِبا	اللابساتُ من الحريرِ جلابِبا
المنهباتُ عقولنا وقلوبنا	وجنابهنَّ الناهباتُ الناهِبا
الناعماتُ القاتلاتُ المحيياتُ	المبدياتُ من الدلالِ غرائبِبا
حاولنَ تفديتي وخفنَ مراقِبا	فوضعنَ أيديهنَّ فوقَ ترائبِبا

ويستمر المتنبي في الغزل، حيث يصل إلى موضوع مدحه، وبالطريقة نفسها، يفتح صفي الدين الحلّي قصيدة مدحه للسلطان الناصر محمد بن قلاوون بالغزل، حتى تصل أبيات غزله أربعة عشر بيتاً، منها⁽³⁾:

أسبلنَ من فوقِ النهودِ ذوائِبا	فجعلنَ حباتِ القلوبِ ذوائِبا
وجلّونَ من صُبحِ الوجوهِ أشعةً	غادرنَ فودَ الليلِ منها شائِبا
بيضُ دَعاهنَّ الغبيُّ كواعِبا	ولو استبانَ الرشدُ قالَ كواكِبا
أشرقنَ في حللِ كأنَّ وميضَها	شفقُ تدرعه الشُّموسُ جلابِبا
وغربنَ في كللٍ، فقلتُ لصاحبي:	بأبي الشُّموسُ الجانحاتُ غوارِبا

ومن الملاحظ أن صفي الدين الحلّي، لا يقتصر على المعارضة في المعاني والقوافي، بل هو يضمنُ معارضته ألفاظاً من قصيدة المتنبي التي يُعارضها.

(1) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 380.

(2) المتنبي، الديوان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 22.

(3) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 95.

ثمَّ يَدْخُلُ الْمُتَنَبِّي فِي مَوَاضِيْعٍ مَدْحِهِ، بَعْدَ التَّخْلُصِ مِنَ الْغَزْلِ، وَيَبْدَأُ بِذِكْرِ كَرَمِ الْمَدْحُوحِ،
الَّذِي عَمَّ الْأَرْجَاءَ، وَأَغَاثِ الْمُسْتَجِيرِ، وَأَكْرَمَ الْوُفُودِ، بِكَرَمٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُصَوَّرَ، يَقُولُ⁽¹⁾:

مَلِكٌ سِنَانُ قَنَاتِهِ وَبَنَائِهِ يَتَبَارِيَانِ دِمَاءً وَعُرْفًا سَاكِبًا
يَسْتَصْغِرُ الْخَطَرَ الْكَبِيرَ لَوْفَدِهِ وَيَظُنُّ دَجَلَةً لَيْسَ تَكْفِي شَارِبًا
كَرَمًا فَلَوْ حَدَّثَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ بَعْظِيمٌ مَا صَنَعْتَ لَظَنِّكَ كَاذِبًا

وبالطريقة نفسها يدخل صفي الدين الحلِّي، مادحاً كَرَمَ النَّاصِرِ مُحَمَّدًا، مجتهداً في إظهار
هذه الصورة عند ممدوحه، وقد ذكر البحث هذه الأبيات في صورة الكرم،⁽²⁾ منها⁽³⁾:

لَمْ تَخُلْ أَرْضٌ مِنْ ثَنَاءٍ وَإِنْ خَلَّتْ مِنْ ذِكْرِهِ مُلِئَتْ قَنَاءً وَقَوَاضِبًا

ثمَّ يُتَابِعُ الشَّاعِرَانِ عَرْضَ صِفَاتِ الشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ لَدَى مَدْحِهِمْ، فَهَذَا الْمُتَنَبِّي، يَنْصَحُ
الْجَمِيعَ أَنْ يَعْلَمُوا بِشَجَاعَةِ مَدْحُوحِهِ، لِيَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْهُ وَيَحَاوِلُونَ مَسَالِمَتَهُ دَائِمًا، وَإِلَّا
سَيَلْقَوْنَ الطَّعْنَ وَالضَّرْبَ، يَقُولُ⁽⁴⁾:

سَلْ عَنْ شَجَاعَتِهِ وَزُرْهُ مُسَالِمًا وَحَذَارِ ثُمَّ حَذَارِ مِنْهُ مُحَارِبًا
إِنْ تَلَقَّاهُ لَا تَلْقَ إِلَّا جَفَلًا أَوْ قَسْطَلًا أَوْ طَاعِنًا أَوْ ضَارِبًا

ويعرضُ صفي الدين الحلِّي أيضاً شجاعة ممدوحه، وينصح هو الآخر الجميع عدم
تجريب قتاله، فلا أحد يستطيع نزأله، يقول:

لَا يَنْفَعُ التَّجْرِبُ خَصْمَكَ بَعْدَمَا أَفْنَيْتَ مِنَ أَفْنَى الزَّمَانِ تَجَارِبًا

ونتشابه صورة السيف وصورة الخيل المشاركة في الحرب عند الشاعرين، فهذا المتنبّي
يُصَوِّرُ خَيْولَ وَسَيْفَ مَدْحُوحِهِ، وَهُوَ فِي حَالَةِ الْهَجُومِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، تُطِيعُ السِّيفُ قَائِدَهَا فِي
هَجُومِهِ وَمُوجِهَتِهِ الضَّرْبَ وَالطَّعَانَ، يَقُولُ⁽⁵⁾:

⁽¹⁾ المتنبّي، الديوان، ص 23.

⁽²⁾ انظر صفحة 82 من هذا البحث.

⁽³⁾ صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 96-97.

⁽⁴⁾ المتنبّي، الديوان، ص 23.

⁽⁵⁾ ناصيف اليازجي، العُرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب، صَوَّبَ نصوصه وضبطها وقَدَّمَ له الدكتور عمر فاروق
الطَّبَّاع، دار القلم، بيروت-لبنان، ص 491.

وَقَدَّتْ إِلَيْهَا كُلَّ أَجْرَدٍ سَابِحٍ يُؤْدِيكَ غَضَبَانَا وَيُثْنِيكَ رَاضِيَا
وَمُخْتَرَطَ مَاضٍ يُطِيعُكَ أَمِيراً وَيَعْصِي إِذَا اسْتَنْثَيْتَ أَوْ صَرْتَ نَاهِيَا
كَتَائِبَ مَا انْفَكَّتْ تَجُوسُ عَمَائِرَا مِنْ الْأَرْضِ قَدْ جَاسَتْ إِلَيْهَا فَيَافِيَا

وَيُصَوِّرُ الْحَلِيَّ خِيُولَ النَّاصِرِ مُحَمَّدًا، وَهُوَ يَقُودُهَا فِي الْحَرْبِ، تَطِيعُ قَائِدَهَا فِي هُجُومِهِ،
وَلَا تَعْصِي أَمْرَهُ، يَقُولُ⁽¹⁾:

صَرَّمَتْ شَمْلَ الْمَارِقِينَ بَصَارِمٍ تَبْدِيهِ مَسْلُوبًا فَيَرْجِعُ سَالِبَا
بِذَوَائِبٍ مُلْدٍ يُخْلِنَ أَرَاقِمَا وَشَوَائِلَ جُرْدٍ يُخْلِنَ عَقَارِبَا
بِأَقْبَ يَعْصِي الْكَفَّ ثُمَّ يُطِيعُهُ فَتَرَاهُ بَيْنَ تَسْرُعٍ وَتَوَانٍ

وَتَأْتِي خَاتِمَةُ الْقَصِيدَتَيْنِ وَاحِدَةً، فَالْمُتَنَبِّيُّ يُنْتِجِي عَلَى مَمْدُوحِهِ، وَيُصَوِّرُهُ بِكُلِّ صِفَاتِ
الْكَمَالِ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ وَصْفَ أَعْمَالِ هَذَا الْمَمْدُوحِ لِأَنَّهَا فَوْقَ أَنْ تُوصَفَ، يَقُولُ⁽²⁾:

خُذْ مِنْ ثَنَائِي عَلَيْكَ مَا اسْطِيعُهُ لَا تُلْزِمْنِي فِي الثَّنَاءِ الْوَاجِبَا
فَلَقَدْ دَهَشْتُ لِمَا فَعَلْتَ وَدُونَهُ مَا يُدْهِشُ الْمَلِكَ الْحَفِيظَ الْكَاتِبَا

وَيَخْتَمُ صَفِي الدِّينِ الْحَلِيَّ قَصِيدَتَهُ أَيْضًا، بِالاعْتِرَافِ أَنَّ كَلِمَاتِهِ لَا تَسْتَطِيعُ إِيفَاءَ النَّاصِرِ
حَقَّهُ، وَقَدْ بَيَّنَّ الْبَحْثُ سَابِقًا كَيْفَ أَحْسَنَ الْحَلِيَّ خَتَمَ قَصِيدَتِهِ وَأَجَادَ، يَقُولُ⁽³⁾:

أُنْتِنِي فَتَنَّتْنِي صِفَاتُكَ مُظْهِرَا عِيًّا، وَكَمْ أَعْيَتْ صِفَاتُكَ خَاطِبَا

يُلاحِظُ أَنَّ صَفِي الدِّينِ الْحَلِيَّ قَدْ أَحْسَنَ الْمَعَارِضَةَ، وَأَجَادَ التَّأَثُّرَ أَفْكَارَ الْمُتَنَبِّيِّ وَمَعَانِيَهُ،
ثُمَّ إِنَّهُ ضَمَّنَ قَصِيدَتَهُ بَعْضَ أَلْفَاظِ الْمُتَنَبِّيِّ، وَقَدْ جَاءَتْ فِي أَمَاكِنِهَا، لِتُعْطِيَ الْمَعْنَى قُوَّةً وَوُضُوحًا،
وَلَمْ يَظْهَرْ فِي قَصِيدَتِهِ التَّكْلُفُ أَوْ الزَّخْرَفَةُ، وَهَذِهِ هِيَ الْمَعَارِضَةُ الْوَاعِيَةُ.

شَبِيهِ بَظَاهِرَةِ الْمُعَارِضَةِ، ظَاهِرَةُ التَّضْمِينِ، وَسَمَّاها نُقَادُ الْعَصْرِ بِالْإِيدَاعِ، وَتَتِمُّنُّ فِي أَنْ
يُودِعَ الشَّاعِرُ شَعْرَهُ بَعْضَ شَعْرِ غَيْرِهِ، وَقَدْ عَدَّ نُقَادُ الْعَصْرِ ذَلِكَ الصَّنِيعَ مِنْ مَظَاهِرِ الْجَمَالِ،
وَصَنَّفُوهُ ضَمْنَ أَلْوَانِ الْبَدِيعِ⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ انظر صفي الدين الحلي، الديوان، ص 97-101.

⁽²⁾ المتنبّي، الديوان، ص 24.

⁽³⁾ انظر صفي الدين الحلي، الديوان، ص 98.

⁽⁴⁾ انظر فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ص 418.

"والإيداع هو أن يودع الناظم شعره بيتاً من شعر غيره أو نصف بيت أو ربع بيت، بعد أن يوطئ له توطئة مناسبة"⁽¹⁾.

ويتحدث ابن الأثير عن التضمين، فيرى أن التضمين يُعين الشعراء في تأكيد المعنى، يقول: "هو أن يُضمّن الشاعر شعره، والناثر نثره، كلاماً آخر لغيره قصداً للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود، وربما ضمّن الشاعر البيت من شعره بنصف بيت أو أقلّ منه"⁽²⁾.

وهذا ما يجده الدارس للأدب الذي صورّ الناصر محمداً، حيث استعان الشعراء بشعر المتقدمين، لتشابهه المواقف والأغراض، فهذا الصفيّ يضمّن أبياتاً للمتنبّي، ليؤكد فيها المعنى المقصود، في أثناء حديثه عن الناصر محمد بن قلاوون وتصوير شجاعته، يقول في الناصر: "هادنه الفرنج والتتار، وسالمة حتى زنج الليل وروم النهار، وأصبح سيفه:

عَلَى عَاتِقِ الْمَلِكِ الْأَعَزِّ نَجَادُهُ	وَفِي يَدِ جَبَّارِ السَّمَاوَاتِ قَائِمُهُ
تُقْبَلُ أَفْوَاهُ الْمُلُوكِ بِسَاطَةِ	وَيَكْبُرُ عَنْهَا كُفُّهُ وَبِرَاجِمِهِ
تَحُولُ رِمَاحُ الْخَطِّ دُونَ مَحَلِّهِ	وَتُسَبَّى لَهُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَرَائِمُهُ
لَهُ عَسْكَرَا خَيْلٍ وَطَيْرٍ إِذَا رَمَى	بِهَا عَسْكَراً لَمْ يَبْقَ إِلَّا جَمَاجِمُهُ
تُحَارِبُهُ الْأَعْدَاءُ وَهِيَ عَبِيدُهُ	وَتُدْخَرُ الْأَمْوَالُ وَهِيَ غَنَائِمُهُ
وَيَسْتَكْبِرُونَ الدَّهْرَ وَالدَّهْرُ دُونَهُ	وَيَسْتَعْظَمُونَ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ خَادِمُهُ" ⁽³⁾

هذه الأبيات هي أبيات المتنبّي في ممدوحه⁽⁴⁾، والمتنبّي يمدح فالصفيّ يمدح، وكلاهما يُصورُ شجاعة الممدوح، وقد وجد الصفيّ في هذه الأبيات معيناً له ليؤدي المعنى الذي يرغب.

ويَتَأَثَّرُ الدواداري بالأخطل، في أثناء حديثه عن معركة مرج الصفر، وتصويره رَحْمَةَ السلطان بأعدائه، فهو العظيمُ عند المقدرة، يقول: "فلما نظر الله تعالى إلى ذلهم وكسرهم، أوحى

(1) ابن حجة الحموي، خزانة الأدب، ص 461.

(2) ابن الأثير، المثل السائر، ج 2، ص 289.

(3) الصفيّ، أعيان العصر، ج 5، ص 74-75.

(4) انظر ناصيف اليازجي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ص 285-290.

إلى قلب مولانا السلطان جبرهم، فحنى عليهم بقلبٍ رؤوف وأجارهم من حُتوف السيوف، وعُلمَ
أنَّ الإيمانَ من الكُفرِ قد اشتفى وأنه قد قَدَرَ وعفا:

شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَكْثَرُ النَّاسِ أَحْلَاماً إِذَا قَدِرُوا⁽¹⁾

فهو يُضَمِّنُ بيت الأخطل في تصويره لممدوحه⁽²⁾:

شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَاماً إِذَا قَدِرُوا

لقد أشار القلقشندي إلى استخدام الكاتب للشعر، قائلاً: "اعلم أنَّ للكاتب في استعمال
الشعر في كتاباته ثلاث حالات: الأولى الاستشهاد: وهو أن يورد الكاتب البيت من الشعر أو
البيتين، أو أكثر خلال الكلام المنثور، مطابقاً لمعنى ما تقدّم من النثر، ولا يُشترط فيه أن يُنبه
عليه "بقال" أو نحوه"⁽³⁾.

ويُضَمِّنُ شهاب الدين الشارمساحي، صدرَ بيتٍ للشاعر يوسف بن موسى⁽⁴⁾، الذي قال
مستعظفاً كرم الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز بن صلاح الدين الكبير، ويشكو قِلَّةَ
ذات اليد، قائلاً⁽⁵⁾:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ وَمَنْ لَهُ نِعَمٌ تَنْهَلُ كَالْمَطَرِ

ولكنَّ الشارمساحي لا يستخدم معنى يوسف بن موسى، فهو يُضَمِّنُ بيته متوجّهاً بالنداء
للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، لتصوير نصره، ومدحه وتهنئته بهذا النصر الذي قهر
الأعداء، يقول⁽⁶⁾:

يَا أَيُّهَا النَّاصِرُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ نَصِرْتَ بِالرُّعْبِ وَالْأَعْدَاءِ قَدْ قُهِرُوا

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 87.

(2) إسماعيل اليوسف، الأخطل شرح ديوانه ونبذة عن حياته، دار الكتاب العربي، سوريا، ص 24.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص 321.

(4) ابن محمد بن مسعود، بهاء الدين بن الشيخ تاج الدين المراغي، المعروف بابن الحيوان، له شعر واشتغال ومحفوظات
699هـ. انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 669.

(5) فادي عبد الرحيم محمود عودة، الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز، رسالة
ماجستير، إشراف الدكتور رائد مصطفى عبد الرحيم، جامعة النجاح الوطنية، ص 196.

(6) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 192.

وآيةً أخرى من آيات تأثر شعراء العصر المملوكي بالتراث الأدبي، وبما تقدّمهم من الشعراء، حيث تأثّروا بمعاني المتقدمين وصورهم، وإذا تناول الشاعر معنى سبق إليه فأبرزه وأحسن كسوته فله فيه فضل⁽¹⁾ وبخاصّة عند تصوير شجاعة الممدوح، فالشعراء عندما جعلوا الناصر محمداً سيّد ملوك الأرض، يخضعون له ويلون لهيبته، يتأثّرون بهذا المعنى بمن سبقهم إليه من الشعراء المتقدمين فهي صورة الممدوح عند المتنبي، يقول الشاعر ببيرس الفارقاني في الناصر محمد⁽²⁾:

وَلَا زَالَتْ مُلُوكُ الْأَرْضِ طُرّاً لَهُ مَا عَاشَ، أَمْثَالُ الْعَبِيدِ
مُتَأَثِّرًا بِقَوْلِ الْمُتَنَبِّي الَّذِي جَعَلَ مَدُوحَهُ بَطَلًا، تَخَضَعُ لَهُ الْمُلُوكُ، وَتَسْجُدُ بَيْنَ يَدَيْهِ،
يقول⁽³⁾:

تَظَلُّ مُلُوكُ الْأَرْضِ خَاشِعَةً لَهُ تَفَارِقُهُ هَلَكِي وَتَلْقَاهُ سُجْدًا
وقد تبين أن صورة الممدوح هذه، صورة متوارثة منذ العصر الجاهلي، فالممدوح هو الملك والبقية عبيد له، يقول الشاعر عبيد بن الأبرص الأسدي في ممدوحه⁽⁴⁾:

أَنْتَ الْمَلِكُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ الْعَبِيدُ إِلَى الْقِيَامَةِ
ذُلُّوا لِسُوطِكَ مِثْلَ مَا ذَلَّ الْأَشْيَقِرُّ⁽⁵⁾ ذُو الْخِزَامَةِ
ويُصوّر الشعراء شجاعة ممدوحهم، وهو يخوض غمار المعارك، على ظهر فرسٍ شجاعٍ يجول ويصول، لا يهابُ الحروب، فهو كالبرق، وهذه الصورة أيضاً متوارثة، فهي صورة خيل الممدوح عند أبي تمام في قوله⁽⁶⁾:

يَا بَرْقُ طَالِعٍ مَنْزِلًا بِالْأَبْرِقِ وَاحِدُ السَّحَابِ لَهُ حُدَاءُ الْإِيْتِقِ

(1) انظر ابن طباطبا، محمد احمد العلوي، عيار الشعر، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر، بيروت - لبنان، ص 79.

(2) ابن اياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 415.

(3) اليازجي، العرف الطيب، ص 404.

(4) امرؤ القيس، الديوان، شرح د. محمد الإسكندراني، ود. نهاد رزوق، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ص 380.

(5) الأشيقر: تصغير الأشقر وهو الأحمر من الدواب، والمراد هنا الحمل الأحمر الصعب المراس يذلّ عندما يوضع في أنفه الخزامة. انظر ديوان امرؤ القيس، ص 9.

(6) محمد بركات حمدي أبو علي، أبو تمام بين أشعاره وحماسه، مؤسسة الخافقين، ط 1، 1982م، ص 225.

يتأثر الشاعر شمس الدين الطيبي بهذه الصورة وهذه المعاني، فهو يتوجه بالنداء للجواد، ويخاطبه "بالبرق"، كما فعل أبو تمام، يقول⁽¹⁾:

يَا بَرْقُ بَلِّغْ إِلَى غَازَانِ قِصَّتَهُمْ وَصِفْ فِقِصَّتَهُمْ مِنْ فَوْقِ مَا تَصِفُ
ويرسم أبو تمام صورة لممدوحه، فيجعله غيثاً ينسكب أنسكاباً، تعبيراً عن كثرة العطاء، يقول⁽²⁾:

الْحَسَنُ بْنُ وَهَبٍ كَالْغَيْثِ فِي أَنْسَابِهِ
ويُصورُ المتنبي ممدوحه، ويجعل كَرَمَهُ سحاباً ينفع ويضر في وقت واحد، يقول⁽³⁾:
إِنَّمَا بَدْرُ بْنُ عَمَّارٍ سَحَابٌ هَطِلَ فِيهِ ثَوَابٌ وَعِقَابٌ
يتلقف شعراء العصر المملوكي هذه الصورة، لئیسقطوها على ممدوحهم السلطان الناصر، فهو أيضاً يستحق أن يكون كالغيث في كَرَمِهِ، يقول فيه الشاعر⁽⁴⁾:

وَالْغَيْثُ يَهُمُّ فِيهِ مُزْنُ هَبَاتِهِ فَتَخَجَّلُ مِنْ شُحِّ الْعَطَايَا السَّحَابُ
ويقول صفي الدين الحلّي في الناصر محمد⁽⁵⁾:
كَالْغَيْثِ يَبْعَثُ مِنْ عَطَاهُ وَابِلًا سَبِطًا وَيُرْسِلُ مِنْ سَطَاهُ حَاصِبًا
أما صورة البطل المسلم، الذي وهبه الله تعالى النصر والظفر على الأعداء، فهي صورة متوارثة يفخر بها أدب المدح، لأنها هبة الله لأوليائه الصالحين، يقول أبو تمام في ممدوحه⁽⁶⁾:
وَعَادَاتُ نَصْرٍ لَمْ تَزَلْ تَسْتَعِيدُهَا عُصَابَةُ حَقٍّ فِي عَصَابَةِ بَاطِلٍ

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 95.

(2) محمد بركات حمدي، أبو تمام بين أشعاره وحماسته، ص 222.

(3) المتنبي، الديوان، ص 24.

(4) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 398.

(5) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 96.

(6) محمد بركات حمدي، أبو تمام بين أشعاره وحماسته، ص 217.

يتأثر الشاعر محمد المنبجي بهذه الصورة، ويُسقطها على ممدوحه الناصر محمد وجيشه بعد انتصارهم في مرج الصفر، يقول⁽¹⁾:

عَصَابَةٌ لَمْ تَزَلْ بِالْحَقِّ ظَاهِرَةً فِي الْحَرْبِ بِاللَّهِ وَالْأَمْلاكِ تَنْتَصِرُ
ويُشير الفلقشندي إلى حالة أخرى من حالات استخدام الأديب للشعر، فيقول: "أن يَعْمَد الكاتب إلى الأبيات من الشعر، ذوات المعاني فيحلها من عُلِّ الشَّعر وَيَسْكُبُهَا فِي كَلَامِهِ الْمُنْثُور"⁽²⁾.

وهذا ما قام به الكاتب، علاء الدين علي بن عبد الظاهر، عندما كتب كتاب "الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر"، حيث وَصَفَ السلطان الناصرَ قائلًا: "والسلطان قد ثبت في موقف المنايا، حتَّى كأنَّه في جفن الرَّدَى وهو نائم، ورأى الأبطال جرحى في سبيل الله، والأعداء مهزومة، والوجه منه وضَّاحٌ وَالتَّغَرُّ بِاسْمِ"⁽³⁾، حيث حلَّ قول المتنبي مادحاً⁽⁴⁾:

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلُّمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَتَغْرُكَ بِاسِمٌ

ومن الأمثلة على حل المنظوم، ما جاء في رثاء ابن فضل الله العمري شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يختم ابن فضل الله العمري رثاءه، بالدعاء لابن تيمية، وبيان عظمته في نفوس الناس، يقول: "ونقول الأمم: لَا فَقَدْتَ مِنْ غَائِبٍ، ولأقلامه النَّافعة: لَا أَبْعَدُكَ اللَّهُ مِنْ شَجَرَاتِ"⁽⁵⁾

فهو حلَّ قول الشاعرة⁽⁶⁾:

إِذَا لَمْ يَكُنْ ظِلٌّ وَلَا جَنَى فَأَبْعَدُكَ اللَّهُ مِنْ شِيرَاتِ

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 92.

(2) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص 321.

(3) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1031.

(4) اليازجي، العرف الطيب، ص 422-423.

(5) الكرسي، الكواكب الدرية، ص 182.

(6) السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، ج 1، ص 146.

(أي شجرات)، وقد استخدم ابن فضل الله العمري، الشطر الثاني من البيت، في عكس معناه.

ومن مظاهر تأثر الأدباء بالتراث الأدبي، استخدام المثل في أدبهم شعراً ونثراً، وقد أشار القلقشندي إلى أهمية المثل في الأدب بقوله: "اعلم أن الكاتب يحتاج إلى النظر في كتب الأمثال الواردة عن العرب نثراً أو نظماً"⁽¹⁾.

"والأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تُعارضُ كلامها، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها من المنطق بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وقد ضربها النبي صلى الله عليه وسلم، وتمثل بها هو ومن بعده من السلف"⁽²⁾.

ولم يأت استخدام المثل في الأدب زخرفة لفظية، بل لإعطاء الأدب قوة الإبانة والكشف عن المعنى المقصود، فالمثل من أبلغ الحكمة، فاه به الناس في السراء والضراء، ووصلوا به إلى المقصود⁽³⁾.

ويفسر أبو هلال العسكري موقع المثل من الأدب، وفضله فيه، وأن الله سبحانه وتعالى، ضرب للإنسان أروع الأمثال، فيقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَعْمُوا لَهُ﴾⁽⁴⁾، وقال: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾⁽⁵⁾، ثم يذكر العسكري فائدة الاستعانة بالمثل في الأدب، يقول: "فإن ذلك يزيد المنطق تفخيماً، ويكسبه قبولاً، ويجعل له قدراً في

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص 346.

(2) عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وضبطه وعلق حواشيه جماعة، ج 1، ط 1، ص 486.

(3) انظر المصدر نفسه، ج 1، ص 486.

(4) سورة الحج، آية رقم 73.

(5) سورة إبراهيم، آية رقم 5، سورة النحل، آية رقم 75.

النفوس، وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، وإنما هو في الكلام، كالتفصيل في العقد، والتتوير في الروض⁽¹⁾.

ومن عجائب الأمثال، أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب⁽²⁾.

وقد تأثر أدباء العصر المملوكي بالأمثال، فظهرت في كتاباتهم، ولكن لم يكن تأثرهم بالمثل بقدر تأثرهم بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ذلك أن الأحداث السياسية، والتهديد الدائم لأرض المسلمين، كان سبباً في انشغال الأدباء في الحث على الجهاد، وحماية الدين، متخذين من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف مادة للوصول إلى هدفهم، أما الأمثال، فكانت قليلة.

ومن الأمثلة على ذلك، ما كتبه علاء الدين علي بن عبد الظاهر، في انتصار "شقحب"، مصوراً افتتان الناس بآثار الملك الناصر بقوله: "ومن عجائب إذا حدث المرء عنها قيل له حدث عن البحر ولا حرج..."⁽³⁾، متأثراً بالمثل "الذي صور جود معن بن زائدة بن عبد الله الشيباني: "حدث عن معن ولا حرج"⁽⁴⁾، أي ما قلت عن جوده فأنت مقصر.

وفي عرض الدواداري وحديثه عن عطايا السلطان الناصر محمد بن قلاوون ومنه على الصالحين من الرعية، يذكر في المقابل خيبة المسيئين الذين لم ينالوا من العطاء شيئاً، يقول في من كانت سيرته ذميمة، وأحواله غير مستقيمة: "وخرج المقطوع يُقْلَب كَفَيْهِ وَلَمْ يَلْقَ مِنْ حُنَيْنٍ غَيْرَ خَفَيْهِ"⁽⁵⁾.

(1) أبو هلال العسكري، **جمهرة الأمثال**، حققه وعلّق حواشيه ووضع فهرسه محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، دار الجليل، بيروت، ج 1، ص 3.

(2) انظر أبو هلال العسكري، **جمهرة الأمثال**، ج 1، ص 4-5.

(3) المقرئ، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1037.

(4) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري، **مجمع الأمثال**، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، 2002م، الجزء الأول، ص 258.

(5) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 238.

مُتَأَثِّرًا بِالْمَثَلِ الَّذِي يُقَالُ عِنْدَ الْيَأْسِ مِنَ الْحَاجَةِ وَالرَّجُوعِ بِالْخِيْبَةِ: "رَجَعَ بِخُفْيٍ حُنَيْنٌ"⁽¹⁾،
وبالمثل "يُقَلَّبُ كَفْيُهُ"⁽²⁾، الذي يُطْلَقُ أَيْضًا عِنْدَ الْيَأْسِ مِنَ الْحَاجَةِ.

وفي موضعٍ آخر، يقول في عودة الفرح بعد الأحزان ومجيء النصر بعد الهزيمة مُبَيِّنًا
أَنَّ النَّصْرَ هُوَ مَا تَعَوَّدَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، وَلَمْ تَكُنْ الْهَزِيمَةُ سِوَى طَارِئٍ وَانْتَهَى: "وَتُمَحَى عَنَّْا هَذِهِ
الرُّسُومُ السُّودُ، وَيَرْجِعُ الزَّمَانُ وَيُدَارِيهِ، وَيَعُودُ الْمَاءُ إِلَى مَجَارِيهِ"⁽³⁾⁽⁴⁾، وَكَانَتْ طَرِيقَةُ تَوْظِيفِ
الدُّوَادَارِيِّ لِلْأَمْثَالِ فِي مَحَلِّهَا، فَقَدْ زَادَتْ الْمَوْضُوعَ جَدِّيَّةً، وَأَكَّدَتْ الْمَعْنَى الْمَقْصُودَ.

وفي رسالة السلطان ردًّا على رسالة غازان، يَتَأَثَّرُ الْكَاتِبُ بِالْأَمْثَالِ فِي دَعْوَةِ غَازَانَ
لِلتَّأَدُّبِ مَعَ السُّلْطَانِ النَّاصِرِ مُحَمَّدٍ كَمَا كَانَ مَنْ سَبَقُوهُ، يَقُولُ: "وَتَقَرَّبَ إِلَى قَلْبِهِ بِحُسْنِ الْخِطَابِ
وَأَتَى الْبَيْوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا بِحُسْنِ الْأَدَبِ"⁽⁵⁾، وَالْكَاتِبُ يَنْصَحُ غَازَانَ وَيُعَلِّمُهُ التَّصَرُّفَ اللَّائِقَ، عِنْدَ
مُخَاطَبَةِ سُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ، مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ.

مُتَأَثِّرًا بِالْمَثَلِ الَّذِي يَقُولُ: "ادْخُلُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا"⁽⁶⁾.

وَكَثِيرًا مَا اسْتَعْدَمَ الْأَدْبَاءُ الْأَمْثَالَ، لِتَعْطِيِ الْمَعْنَى الَّذِي يَقْصِدُهُ الْأَدِيبُ، فَهَذَا صَفِيّ الدِّينِ
الْحَلِّيّ يَسْتَخْدِمُ الْمَثَلَ الشَّعْبِيَّ "هَلْ يُصْلِحُ الْعَطَّارُ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ"⁽⁷⁾ حَرْفِيًّا فِي قَوْلِهِ⁽⁸⁾:

وَرَأَمُوا بِأَنْوَاعِ الْعَقَاقِيرِ بُرَاهُ "وَهَلْ يُصْلِحُ الْعَطَّارُ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ"

وَجَاءَ هَذَا الْمَثَلُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، فِي شَعْرِ أَعْرَابِيٍّ "عِنْدَمَا نَظَرَ إِلَى زَوْجَتِهِ تَتَصَنَعُ وَهِيَ

عَجُوزٌ، فَقَالَ:

⁽¹⁾ الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 366.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ج 3، ص 456.

⁽³⁾ لم أجد المثل عند الميداني، ولم أجد في معجم الأمثال الفلسطينية.

⁽⁴⁾ الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 165.

⁽⁵⁾ المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1023.

⁽⁶⁾ حسين علي لوباني، معجم الأمثال الفلسطينية، مكتبة لبنان، ط الأولى، 1999م، ص 35.

⁽⁷⁾ المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية،

بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1999م، ج 1، ص 369.

⁽⁸⁾ صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 379.

تَدُسُّ إِلَى الْعَطَارِ سِلْعَةً أَهْلِهَا وَهَلْ يُصْلِحُ الْعَطَارُ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ⁽¹⁾

ويستخدم الصفدي الأمثال، لبيان الأمن والأمان الذي ساد في عهد السلطان الناصر فيضرب مثلاً لذلك قائلاً: "وهذه المرة الثالثة من عَوْدِهِ إِلَى الْمَلِكِ، قبض في يوم واحد على اثنين وثلاثين أميراً، (ولم ينتطح فيها عنزان)⁽²⁾، أي لا يكون له تغيير، ولا له نكير، حيث لا مُعَارِض ولا مُنْكَرٍ لحقّ الناصر في السلطنة متأثراً بالمثل الذي يحمل هذا المعنى: "لا ينتطح فيه عنزان"⁽³⁾.

وفي فرمان السلطان محمود غازان المُوجَّه إِلَى الْمَلِكِ الناصر، محذراً ومتوعداً، يتأثر بالمثل في قوله: "وَلَقَدْ أُعْذِرَ مَنْ أَنْذَرَ، وَأَنْصَفَ مَنْ حَذَرَ"⁽⁴⁾، متأثراً بالمثل القائل "أُعْذِرَ مَنْ أَنْذَرَ"⁽⁵⁾، مستخدماً إياه في نفس المعنى المقصود، وهو التحذير.

وفي مقامة الصفدي "رشف الرحيق في وصف الحريق"، يقول في وصف العقاب الذي ناله النصاري بعد أن أحرقوا دمشق: "أَشْبَعْتُمُونَا سَبًّا وَرُحْنَا بِالْإِبِلِ"⁽⁶⁾، متأثراً بالمثل العربي الذي يقول: "أَوْسَعْتُمْ سَبًّا وَأَوْدُوا بِالْإِبِلِ"⁽⁷⁾، يُضْرَبُ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إِلَّا الْكَلَامُ وينطبق على حال هؤلاء النصاري، الذين لا يملكون عند العقوبة إلا الكلام يحاولون فيه الدفاع عن أنفسهم.

ويقول الصفدي فيهم أيضاً: "وَسَبَقَ السَّيْفُ فِيهِمُ الْعَدْلُ"⁽⁸⁾، متأثراً بالمثل العربي "سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلُ"⁽⁹⁾، يُقَالُ لِمَنْ يُلَامُ عَلَى قَتْلِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ.

(1) المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج 1، ص 369.

(2) الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 92.

(3) الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 175.

(4) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1018.

(5) أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ج 1، ص 162.

(6) مقامة الصفدي، رشف الرحيق في وصف الحريق، ص 114.

(7) الميداني، مجمع الأمثال، ج 3، ص 426.

(8) مقامة الصفدي، رشف الرحيق في وصف الحريق، ص 115.

(9) الميداني، مجمع الأمثال، ج 2، ص 97.

هكذا عمَدَ أدباءُ العصر المملوكي الأوّل إلى الأمثال، واستخدموها في أدبهم، فزادت المعنى وضوحاً وتأكيّداً.

ثانياً: التناصّ العلمي

كان لثقافة أدباء العصر المملوكي أثرٌ واضحٌ على أدبهم، حيث كان بعضهم علماء وفقهاء ونحاة وقضاة وأطباء، وكان من الطبيعي أن تنعكس هذه الثقافة على أعمالهم الأدبية شعراً ونثراً،⁽¹⁾ لذلك ظهرت المصطلحات العلمية المتنوعة، من نحوية وصرفية وعلوم اللغة والمصطلحات الدينية وغيرها.

وقف نقّاد العصر المملوكي موقفين مُتناقضين مُعبرين عن رأيهم في غزو المصطلحات العلمية للغة الأدبية، فمنهم مَنْ دَعَا إلى تجنب استخدام المصطلحات والمسائل العلمية، وتحميل لغة الشعر عبء ذلك، دعوا إلى تنقية لغة الأدب من المصطلحات العلميّة.⁽²⁾

فهذا القلقشندي يستحسن ترصيع اللغة الأدبية بالمصطلحات العلمية، ويرى: أن لكلّ مادّة علميّة وظيفة مزدوجة، إحداها رسالتها الأساسية في مجالها الخاص بها، والأخرى هي هذا الاستغلال لمصطلحاتها، وأسماء كتبها ورجالها في الكتابة الأدبية⁽³⁾.

كما استحسن قبله ابن حجة ترصيع اللغة الأدبية بالمصطلحات العلمية، فيما سمّاه "(بالتوجيه)"، وهو أن يوجه المتكلم بعض كلامه أو جملة كلامه إلى أسماء مُتلائمة اصطلاحاً، من أسماء الأعلام، أو قواعد العلوم، أو غير ذلك، توجيهاً مُطابقاً لمعنى اللفظ الثاني، من غير اشتراك حقيقي "⁽⁴⁾".

(1) انظر محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 401.

(2) انظر المصدر نفسه، ص 401.

(3) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص 171-179.

(4) ابن حجة، خزانة الأدب، ص 135-144.

"ومنهم من يرفض هذه الصناعة، كأبي الفرج قدامة وأضرابه، قد نصّ جميعهم على قُبْح إيراد المعاني العلمية والصناعية، والعبارات المصطلح عليها، في جميع ذلك، ونهوا عن إيراد جميع ذلك في الشعر"⁽¹⁾، لأنها في رأيهم لا تؤثر في الجمهور أيّ تأثير ولا يُحسن تلقّيها إلاّ العالم المتخصّص⁽²⁾.

1- المصطلحات الدينية

من المصطلحات التي استخدمها أدباء العصر المملوكي، في تصويرهم الناصر محمداً المصطلحات الدينية، التي عَجَّ بها الأدب، فهذا ابن عبد الظاهر في "الروض الزاهر" يملأ كتابه بالألفاظ والمصطلحات الدينية، وكل هذه المصطلحات جاءت في موقعها لتعطي المعنى الذي يرغب فيه الكاتب، يقول: "نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة ترفع منار هذا الدين، وتضاعف أجر المجاهدين، الذين أضحوا في درج المتّقين مرتّقين.... وهاجروا فسُموا المهاجرين والأنصار...، وكُنْتُ ممّن شملته نفاتح الرحمة فيها، وهبّت عليه رياح النصر التي كانت تزجّجها... وركب مولانا السلطان الملك الناصر بنيةً صالحةً أخلصها في سبيلة الله، بجيوشه التي نهضت بسنن الجهاد وفرضه..."⁽³⁾. فهو يستعمل مصطلحات ذات دلالات دينيّة، استعمالاً يفي بالغرض المطلوب مثل: "المتّقين"، و"المهاجرين"، و"المجاهدين"، و"و"، "سُنن"، و"فرض".

وتكثر الألفاظ الدينيّة في قصائد رثاء شيخ الإسلام ابن تيمية، لما لها من دلالات قصد الشعراء إظهارها، يقول ابن الوردي⁽⁴⁾:

تَقِيُّ الدِّينِ أَحْمَدُ خَيْرُ حَبْرٍ	خَرُوقُ الْمُعْضَلَاتِ بِهِ تُحَاطُ
وَكَانَ إِلَى التَّقَى يَدْعُو الْبَرَايَا	وَيَنْهَى فِرْقَةً فَسَقُوا وَلَا طَوَا
وَكَانَ يَخَافُ إِبْلِيسَ سَطَاهُ	بِوَعْظٍ لِلْقُلُوبِ هُوَ السَّيَاطُ

(1) عبده قلقيلة، النقد الأدبي في العصر المملوكي، ص 288.

(2) انظر المصدر نفسه، ص 290.

(3) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1031-1033.

(4) ابن الوردي، الديوان، ص 266-267.

وَسَجَنُ الشَّيْخِ لَا يَرْضَاهُ مِثْلِي فَفِيهِ لَقَدْرٌ مِثْلَكُمْ انْحِطَاطُ
سَيُظْهِرُ قَصْدَكُمْ يَا حَابِسِيهِ وَنِيَّتَكُمْ إِذَا نَصِبَ الصَّرَاطُ

حيث استخدم ابن الوردي مصطلحات: "حَبْر"، و"التَّقِي"، و"فَسَقُوا"، و"الوَعْظ"، و"إِبْلِيس"، و"الشَّيْخ"، و"النِّيَّة"، و"الصَّرَاط" وكلها مصطلحات أغنت المعنى وزادته وضوحاً.

ومن الألفاظ الدينيّة، ما جاء في مقامة الصفدي "رشف الحريق"، يقول في وصف جامع دمشق بعد الحريق: "أصبح بابُ الساعات، وهو من آيات الساعة، وخلت مصاطب الشُّهود من السنّة والجماعة...، فَعِلْ مَنْ صَوَّرَ الصُّورَ بِيَدِهِ وَعَبَدَهَا، وكَفَرَ بِالوُجْدَانِيَةِ وَجَدَّهَا..."⁽¹⁾.

فقد استخدم الألفاظ: "آيات"، و"السَّاعَة"، و"الشُّهُود"، و"السنّة"، و"الجماعة"، و"عَبَد"، و"كَفَرَ"، و"الوحدانية"، و"جَدَّ"، وقد جاءت هذه المصطلحات في موقعها من المقامة، فأعطت المعنى المقصود.

واستخدم الأدباء ألفاظ: "البدع"، و"النّظير"، و"التّجسيم"، و"إمامة"، و"الزهد" و"الوسيلة" و"الأركان" و"نُسْك". وكل هذه المصطلحات كانت في مرسوم السلطان في عقيدة ابن تيمية، ليتوصل فيها إلى المعنى المطلوب، جاء فيه: "ولهذا يجب.. أن تُصان عقائدُ هذه الأمّة عن الاختلاف...، وتُخمد ثوائرُ البدع، وكان النّقيُّ ابن تيمية، تحدّث في مسائل الذات والصفّات، ونصّ في كلامه على أمور مُنكرات... حتّى اتصل بنا أنّهم صرّحوا في حقّ الله بالحرف والصّوت والتجسيم قمنا في الله تعالى مستعظمين لهذا النّبأ العظيم، فأنكروا هذه البدعة...، فإنّه جلّ جلاله تنزّه عن العديل والنّظير.. فليُلزم بالرجوع عمّا أنكره الأئمّة، والخروج من هذه المشتبهات الشّديدة"⁽²⁾.

⁽¹⁾ مقامة الصفدي رشف الحريق في وصف الحريق، ص 96-112.

⁽²⁾ الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 139-142.

وبملاً الشاعر عبد الله بن خضر بن عبد الرحمن الرومي الأصل، ثمَّ الدمشقي، المعروف بالمتيم⁽¹⁾، قصيدة رثاء ابن تيمية، بمصطلحات "الملة"، و"الموسوية"، و"العيسوية"، و"زنادقة"، و"الاعتزال"، و"الروافض"، و"التشبيه"، و"التناسخ"، وغيرها الكثير⁽²⁾، يقول⁽³⁾:

وَبَيْنَ تَكْذِيبِ الْيَهُودِ وَخُبْنِهِمْ	وَمَا بَدَّلُوا فِي الْمِلَّةِ الْمُسَوِيَّةِ
وَأَظْهَرَ أَيْضاً لِلنَّصَارَى ضَلَالَهُمْ	وَمَا أَحْدَثُوا فِي الْمِلَّةِ الْعِيسَوِيَّةِ
وَرَدَّ عَلَى جَهْمٍ وَجَعَدَ بَنَ دُرْهَمٍ	وَبَشَّرَ الْمَرِيسِيَّ عُمْدَةَ الْجَهْمِيَّةِ
زَنَادِقَةً كَمَ أَهْلَكُوا مِنْ عَوَالِمٍ	بِسُوءِ اعْتِقَادَاتِ النَّفُوسِ السَّقِيمَةِ
وَجَادَلَ أَهْلَ الْاِعْتِزَالِ جَمِيعَهُمْ	وَسَلَّ عَلَيْهِمْ سَيْفَهُ بِالْأَدْلَةِ
وَرَدَّ عَلَى أَهْلِ التَّنَاسُخِ عِنْدَمَا	تَجَرَّدُوا وَخَاضُوا فِي أُمُورٍ عَظِيمَةِ

واستخدم الأدباء ألفاظاً مُستمدَّة من النصرانية، يقول ابن الوردي في فتح البلاد السييسية: "يا له فتحاً كسر صلب الصليب، وقلع يد الزنار..."⁽⁴⁾.

ويقول صفي الدين الحلّي⁽⁵⁾:

وَأَفَى وَقَدْ عَادَ السَّمَاخُ وَأَهْلُهُ رِقْمًا، فَكَانَ لَهُ الْمَسِيحُ الثَّانِي
استخدم الأديبان ألفاظاً مستمدة: "الصليب"، "الزنار"، و"المسيح".

واستخدم الشاعر جمال الدين لفظة "نواويس" وهي بمعنى مقابر النَّصارى، في قصيدته التي صور فيها هزيمة المغول في مرج الصفر⁽⁶⁾.

(1) أحد أصحاب ابن تيمية، وُلد في بلاد الروم، وعمر طويلاً، ت سنة 731هـ. انظر الكرمي، الكواكب الدرية، ص 221.

(2) انظر الكرمي، الكواكب الدرية، ص 223-226.

(3) المصدر نفسه، ص 223-225.

(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص 279.

(5) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 101.

(6) انظر الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 96، رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص 185.

2- المصطلحات الأدبية

ومن المصطلحات التي استخدمها الأدباء، مصطلحات أدبية نحوية، فهذا الصفدي في مقامة "رشق الحريق" يقول في وصف ما ألحقه حريق دمشق: "وَكَمْ مِنْ طَائِرٍ لِرَفْعِ نَسْرِهِ مخفوض، وكم حُسْنُ بِنَاءٍ عِنْدَ بِنَائِهِ يُعَرَّبُ أَنَّهُ مَرْفُوضٌ....، وقع حريقُ ثانٍ...، ولم يوجد لعنانها ثانٍ، فجمعت بين عين الوداع، وسين السلام... سَكَتَ زُبْرَةٌ، وَرُفِعَ خَبْرُهُ"⁽¹⁾، مستخدماً مصطلحات "الرفع" و"الخفض" و"بناء" و"يعرب" و"الجمع" و"الخبر" إضافة إلى استخدامه حروف العين والسين، في محاولة منه الإلمام بجوانب موضوعه، وإظهار المعنى المطلوب.

ويستخدم صفي الدين الحلّي، مصطلحات: "الإعراب" و"الحن" في قوله⁽²⁾:

لَا حَ غَدَا يَعْرِفُ لِلْقَلْبِ لَحَاً إِنَّ أَعْرَبَ الْقَوْلِ بَعْدَ لِي أَوْ لَحْنٍ

ويتلاعب بحروف النفي، لتعطي المعنى المقصود، قائلًا⁽³⁾ في الناصر محمد:

دَعْوَتُهُ بِالْمَدْحِ عَنْ صِدْقٍ وَلَا فَلَمْ يُجِبْ يَوْمًا بَلَمٍّ، وَلَا، وَلَنْ

أعطت هذه المصطلحات المعنى المقصود، واغنت النص، وزادت من جماله، وأكسبته موسيقى داخلية.

ويستخدم جمال الدين أبو بكر مصطلح "الجزم" و"الخبر" في قوله⁽⁴⁾:

وَلَمْ تَزَلْ شِرْعَةً الْإِسْلَامِ ظَاهِرَةً أَجْزَمَ بِهِ فِيهِذَا صُحَّحَ الْخَبَرُ

ويستخدم ابن الوردي مصطلحات نحوية كثيرة، في مقامته الدمشقية المعروفة "بالصفو الرحيق في وصف الحريق"، يقول في وصف ماحلٍّ بالأماكن إثر حريق دمشق: "وَلَمَّا اسْتَوْلَى الحريقُ مِنَ الدَّورِ عَلَى الْمَجَالِسِ السَّامِيَةِ، وَصَعَدَ مِنَ الْمَنَارَةِ، وَوَصَلَ مِنْهَا إِلَى الْمَقَامِ الْكَرِيمِ، فَفَكَّرَ مِنْهُ مَا تَعَرَّفَ...، وكيف لا، وهي المنارة لهذا المعبد العظيم، والمقاسمة له في نحو الحُسْنِ

(1) مقامة الصفدي رشف الرحيق، ص 96-109.

(2) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 104.

(3) المصدر نفسه، ص 106.

(4) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 94.

فمنها الإعراب في النداء، ومنه البناء في الترخيم⁽¹⁾، فهو يستخدم مصطلحات "النكرة" و"المعرفة" و"الإعراب" و"البناء" و"النحو"، وكلّ هذه المصطلحات تعطي المعنى المطلوب، مع ملاحظة حسن اختيار ابن الوردي لمفرداته، فجاءت سلسلة، يفهمها القارئ ويتشوق لمتابعة القراءة، أكثر من مقامة الصفي "رشف الرحيق" التي تحدّثت عن نفس الموضوع.

ويقول في المقامة نفسها في موضع آخر: "ورُمي بسهام من النيران وقالت له النار، قد دخلت في باب "أن" من الأنين، وستدخل في باب "كان"⁽²⁾.

ويستخدم ابن الوردي مصطلحات نحوية في أبيات تعزية بموت الملك الناصر، يقول⁽³⁾:

عَلَمًا أَبْدَلَهُ مِنْ عِلْمٍ ظَاهِرِ الإِعْرَابِ مَرْفُوعِ الْبِنَا

فقد استخدم مصطلحات: "علم" و"الإعراب"، "الرفع"، "البناء"، لتعطي المعنى المطلوب، دون أن يظهر تكلف الشاعر، أو تعمّد الزخرفة.

هكذا كان لثقافة الأدباء الواسعة، وذكاؤهم دور مهم في حسن استخدام الكلمات، ليس عبثاً ولا تتمقاً لفظياً بقدر ما كان براعة وإظهاراً للقُدرة الأدبية، وفي الوقت نفسه وضع اللفظة في مكانها المناسب، ليس فقط لتأدية المعنى، بل لتعزيزه بمعانٍ إضافية تزيد من جمال النصّ فالنص الغنيّ بالألفاظ ذات الدلالات المختلفة والمتنوعة يجعل القارئ يمعن النظر فيه، ويتعمق في قراءته ويشعر بجمال المعنى.

3- المصطلحات الفلكية

واستخدم الأدباء مصطلحات فلكية، تنم عن ثقافة واسعة، يقول علاء الدين في الروض الزاهر مستخدماً مصطلحات فلكية: "وعاد السلطان إلى قلعتة ظافراً، وغدت ربوعها الموحشة

⁽¹⁾ ابن الوردي، الديوان، ص 121.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 124.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 144.

لُبْعُهُ لِقَرْبِهِ أَوَاهِلَ، وَطَلَعُهَا فِي أَيْمَنِ طَالِعٍ، لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى اخْتِبَارٍ أَوْ رَصْدٍ، وَجَلَّتْ شَمْسُ
مَلِكِهِ فِي بُرْجِهَا، وَكَيْفَ لَا وَهُوَ فِي بُرْجِ الْأَسَدِ⁽¹⁾، وَيَقُولُ فِي مَوْقِعٍ آخَرَ مِنَ الْكِتَابِ: "وَالْأَقَالِيمُ قَدْ
تَاهَتْ بِسُلْطَانِهَا بِهَجَةٍ وَسُرُورًا، وَهَامُ الْجُوزَاءِ تَوَدَّ لَوْ كَانَتْ مَنْبَرًا وَسَرِيرًا"⁽²⁾، كُلُّ هَذِهِ
الْمِصْطَلَحَاتُ اسْتُخْدِمَهَا الْكَاتِبُ لِبَيَانِ عِظَمَةِ النَّاصِرِ وَمَكَانَتِهِ.

وَيَسْتَخْدِمُ الشَّاعِرُ جَمَالَ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ، مُصْطَلَحَ "الْمَدِّ" وَ"الْجَزْرِ" فِي تَصْوِيرِ جَيْشِ
الْمُسْلِمِينَ، يَقُولُ مُصَوِّرًا شَجَاعَةَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي خَوْضِهِ الْحَرْبِ، وَهَجُومِهِ عَلَى الْأَعْدَاءِ الَّذِينَ
تَرَجَعُوا خَوْفًا⁽³⁾:

حَتَّى إِذَا عَبَّ مِثْلَ الْبَحْرِ جَحْفُنَا وَمَدَّ فَيْضًا عَلَى أَعْدَائِنَا جُزِرُوا
وَيَمْدَحُ صَفِي الدِّينِ الْحَلِي السُّلْطَانُ النَّاصِرَ مُحَمَّدًا، مَفْتَحًا مَدْحَهُ بِالْغَزْلِ، مُسْتَخْدِمًا
مِصْطَلَحَاتِ "الشُّرُوقِ" وَ"الشَّفَقِ" فِي قَوْلِهِ: ⁽⁴⁾

أَشْرَقْنَ فِي حُلِّ كَأَنَّ وَمِيزُهَا شَفَقَ تَدَرَّعُهُ الشُّمُوسُ جَلَابِيبَا
وَيَسْتَخْدِمُ صَفِي الدِّينِ الْحَلِّي مُصْطَلَحَاتٍ فَلَكَيَّةَ كَثِيرَةً، مِنْهَا "الْمَجَرَّةُ" "الدَّبْرَانُ"⁽⁵⁾،
وَالسَّرَطَانُ⁽⁶⁾، فِي قَوْلِهِ:

يَرْتَوِ إِلَى حُبِّكَ السَّمَاءِ تَوْهُمًا أَنْ الْمَجَرَّةَ حَلَبَةَ الْمِيدَانِ
أَوْ قِيلَ جُزْ فَوْقَ الصَّرَاطِ مُسَارِعًا لَمْشَى عَلَيْهِ مَشْيَةُ السَّرَطَانِ
وَذَلِكَ لِبَيَانِ شَجَاعَةِ خَيْلِ النَّاصِرِ فِي الْحَرْبِ وَسُرْعَتِهَا، حَيْثُ يَتَقَنَّ الشَّاعِرُ فِي عَرْضِ
قُدْرَتِهِ وَمَا لَدَيْهِ مِنْ مَوْسُوعَةٍ لَفْظِيَّةٍ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغْنِيَ بِهَا شَعْرَهُ، وَيُوصِلَ الْمَعْنَى بِطَرِيقَةٍ جَمِيلَةٍ.

⁽¹⁾ المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1039.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ج 1، ص 174.

⁽³⁾ الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 95.

⁽⁴⁾ صفي الدين الحلي، الديوان، ص 95.

⁽⁵⁾ الدبران: منزل للقمر وهو مشتمل على خمسة كواكب في برج الثور. انظر الحلي، الديوان، ص 102.

⁽⁶⁾ انظر صفي الدين الحلي، الديوان، ص 102.

ويستخدم شمس الدين بن القيسراني مصطلحات فلكية في كتاب العهد الذي كتبه للناصر محمد عن الحاكم بأمر الله أحمد، يقول من جملة: "تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ الْآيَاتِ الشَّرِيفَةَ الْحَاكِمِيَّةَ فَلَكًا أَبَدِيًّا سَالِفًا مِنَ الْبَيْتِ الشَّرِيفِ الْمَنْصُورِيِّ أَقْمَارًا، وَأَطْلَعَ مِنْهُمْ بَدْرًا مَلَأَ الْخَافِقِينَ أَنْوَارًا... وَمَنْ شَاهَدَهُمْ وَشَاهَدَ شَمْسَ سَعَادَتِهِ الْمَنْزَهَةَ عَنِ الْأَفْوَلِ قَالَ هَذَا أَكْبَرُ"⁽¹⁾.

حيث استخدم مصطلحات "الفلك" و"أقماراً" و"بدرًا" و"أنواراً" و"شمس" و"أفول" وهي أعطت المعنى المقصود دُونَ تَكْلُفٍ، حيث جاءت الكلمات في أماكنها، وأدَّت المعنى الذي قصده الكاتب، إضافة إلى أنها أشعرت القارئ بثقافة الكاتب.

وهذا ابن الوردي أيضاً، يستخدم مصطلحات "الكسوف" و"الفلك" في وصف حُزْنِهِ وتعازيه بموت الملك الناصر، يقول: "وما ظَنُّكَ بِكُسُوفِ شَمْسِ النَّهَارِ وَالْفُلْكِ الْأَعْلَى إِذَا انْهَارَ"⁽²⁾، مُسْتَغَلًّا هَذِهِ الْمِصْطَلَحَاتِ فِي إِعْطَاءِ النَّاصِرِ مُحَمَّدٍ صُورَةَ الْعُلُوِّ وَالشُّمُوخِ، وَبَيَانِ صُورَةَ الْحُزَنِ لِفَقْدِ مِثْلِ هَذَا الشَّجَاعِ، وَتَصْوِيرِ الْمَأْسَاءِ الَّتِي حَلَّتْ بِمَوْتِهِ.

ويستخدم الصفدي مصطلحات فلكية في مقامته، يقول: "وَلَا أَقْدَرُ الْكُسُوفِ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ كَوَاكِبِ الثَّمَرَاتِ.. وَأَطْلَعَ الشَّرَارُ فِيهَا كَوَاكِبَ زَهْرًا"⁽³⁾، فَهُوَ يَسْتَخْدِمُ مِصْطَلَحَاتِ "الْكُسُوفِ"، "الْكَوَاكِبِ"، "الزَّهْرَةَ".

4- مصطلحات الرياضيات

ومن المصطلحات العلمية، مصطلحات الرياضيات، التي استخدمها صفي الدين الحلي في قوله⁽⁴⁾:

حَتَّى إِذَا كُسِرَ الْخَلِيجُ وَقُسِّمَتْ
أَمْوَاهُ لُجَّتِهِ عَلَى الْخُلْجَانِ

(1) الفلقشندي، صُبْحُ الْأَعَشَى، ج 10، ص 64.

(2) ابن الوردي، الديوان، ص 140.

(3) مقامه الصفدي "رشف الرحيق في وصف الرحيق"، ص 102-104.

(4) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 100.

فقد استخدم مصطلح "الكسور" و"القسمة".

ومصطلحات "الزيادة" و"النقصان" في قوله⁽¹⁾:

وَلَرَبَّمَا طَلَبَ الْحَرِيصُ زِيَادَةً فَغَدَتْ مُؤَدِّيَةً إِلَى النُّقْصَانِ
ويُوظَّف الحَلِّي الأرقام، ليصوِّر الحزن والفاجعة التي حَلَّت عليه، عند موت الناصر
محمد، يقول⁽²⁾:

تَرْتَبَّتِ الْأَحْزَانُ فِيكَ مَرَاتِباً بِقَلْبِي، وَرَقْمُ الصَّبْرِ مِنْ بَيْنِهَا صِفْرُ
ويستخدم ابن الوردي مصطلح الحساب في وَصَف مرتكبي جريمة حريق دمشق بقوله:
"فَغَيَّبَهُمُ اللَّهُ عَنْ صَوَابِهِمْ، وَحَسَبُوا حِسَاباً، فَكَانَ حِسَابُ الدَّهْرِ غَيْرَ حِسَابِهِمْ"⁽³⁾.

* * * * *

التناص التاريخي

اسْتَمَدَّ الْأُدْبَاءُ مَعَانِيَهُمْ مِنَ التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ، وَتَأَثَّرُوا بِشَخْصِيَّاتٍ كَانَتْ لَهَا
إِحْيَاءَاتٌ مَعِينَةٌ، رُبَّمَا الْأُدْبَاءُ بِشَخْصِيَّةِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ بْنِ قِلَافُونَ، يَقُولُ صَفِي الدِّينِ الْحَلِّي،
مُصَوِّراً السُّلْطَانَ النَّاصِرَ بِالْحِكْمَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْعِظَمَةِ، حَيْثُ وَجَدَ الْحِكْمَةَ عِنْدَ لُقْمَانَ، وَالْعِظَمَةَ عِنْدَ
كِسْرَى، يَقُولُ⁽⁴⁾:

فَلَنْنَ رَحَلْتُ، فَقَدْ تَرَكْتُ بَدَائِعاً غَصَبَتْ فُصُولَ الْحُكْمِ مِنْ لُقْمَانَ
ويقول⁽⁵⁾:

شَاهَدْتُهُ، فَشَهِدْتُ لُقْمَانَ الْحَجِي وَنَظَرْتُ كِسْرَى الْعَدْلَ فِي الْإِيوَانِ

⁽¹⁾ صفي الدين الحلي، الديوان، ص 101.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 379.

⁽³⁾ ابن الوردي، الديوان، ص 126.

⁽⁴⁾ صفي الدين الحلي، الديوان، ص 102.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، ص 101.

ولقمان وكسرى لا يخفيان على أحد، وإيوان كسرى من أعظم الأبنية التي ربّطها الأدباء بما بناه الملك الناصر فيُشيرون إليه دليلاً على فخامة بنيائه، يقول علاء الدين بن عبد الظاهر، في وصف أولوين الملك الناصر: "ومن أولوين تترى، بإيوان كسرى، التي تعظم بناؤه"⁽¹⁾.

ولم يجد صفي الدين الحلّ حزناً، وقلباً موجوعاً فقد عزيزاً أكثر من قلب الخنساء التي فقدت أباها صخراً وبكته حتى الممات، فصور قلبه وقد أصبح لفقدان الناصر كقلب الخنساء، يقول⁽²⁾:

وَزَلَّتْ حَصَاةُ الْحِلْمِ عَنْ مُسْتَقَرِّهَا وَأَصْبَحَ كَالْخَنَسَاءِ فِي قَلْبِهِ صَخْرُ
وتأثر الأدباء بأعظم رجال التاريخ، عمر بن الخطاب، الذي كان له صور متنوعة أسقطوها على الناصر محمد، فهذا الشاعر محمد البزاز المنبجي، يقرن فتوحات الناصر بتلك الفتوحات التي قام بها عمر بن الخطاب، يقول⁽³⁾:

مَا شَاهَدَ النَّاسُ فَتْحًا مِثْلَهُ أَبَدًا إِلَّا فَتُوحًا تَوَلَّى أَمْرَهَا عُمَرُ
ويقول جمال الدين أبو بكر، مصوراً عدل الناصر محمد والخليفة، مشبهاً عدلهما بعدل عمر بن الخطاب⁽⁴⁾:

لَمَّا تَأَمَّلْتُ فَحْوَى سِرِّ حِلْمِهِمَا لَمْ أَدْرِ أَيُّهُمَا فِي عَدْلِهِ عُمَرُ
ويتخذ ابن فضل الله العمري، من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، أعظم شخصيات التاريخ، ليجعل ابن تيمية يمشي على طريقتهما المستقيم، يقول⁽⁵⁾:

طَرِيقُهُ كَانَ يَمْشِي قَبْلَ مَشْيِهِ بِهَا أَبُو بَكْرُ الصَّدِيقُ وَعُمَرُ
ويختار صفي الدين الحلّي سيف بن ذي يزن، من الشخصيات التاريخية الذي ملك اليمن، وطرّد الأحباش منها، ولشجاعة الناصر محمد شبّهه بهذه الشخصية، يقول⁽⁶⁾:

(1) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1037.

(2) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 377.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 91.

(4) المصدر نفسه، ج 9، ص 98.

(5) الكرّمي، الكواكب الدرية، ص 183.

(6) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 105.

النَّاصِرُ الْمَلِكُ الَّذِي فَاضَ جَدًّا فَخَلَّتْهُ ذَا يَزْنِ أَوْ ذَا جَدَنٍ

ويتأثر ابن عبد الظاهر في كتاب الروض الزاهر بشخصيات تاريخية بارزة مثل "الحسن بن سهل" و"المأمون" و"ابن طولون" و"المعتضد"، في تصويره زينة القاهرة عندما استقبلت الملك الناصر بعد انتصاره في مرج الصفر، يقول فيها: "وَمِنْ حَلِي لَوْ ظَفِرَ بِهَا الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ لَاتَّخَذَ مِنْهَا لِهَاجِزِ ابْنَتِهِ عَلَى الْمَأْمُونِ مَا لَا أَلْفَ مِثْلِهِ فِي زَمَنِهِ وَلَا عُهُدٍ، وَلَوْ رَأَى ابْنُ طُولُونٍ لَاعْتَضَدَ بِهِ فِي إِهْدَاءِ عَقِيلَتِهِ لِلْمَعْتَضِدِ..."⁽¹⁾.

ويصور علاء الدين بن عبد الظاهر، كرم الناصر محمد، وبذله وعطاءه لجنوده، جاعلاً كرم حاتم الطائي لا يساوي شيئاً إلى جانب كرم الناصر، يقول: "ثُمَّ أَذْهَبَ السُّلْطَانُ عَنْ أَوْلِيَائِهِ وَجِيوشِهِ مَشَقَّةَ التَّعَبِ، وَأَنْسَى بِمَكَارِمِهِ حَاتِمَ طِيٍّ، فَلَوْ عَاشَ لَاسْتَجْدَى مِمَّا وَهَبَ..."⁽²⁾.

ويستحضر الحليّ حادثة الطوفان "طوفان نوح المذكور في القرآن الكريم"، في مدحه الناصر محمداً، يقول⁽³⁾:

فَالطَّيْرُ تَلْجَأُ بِالْخُصُونِ لِأَنَّهَُا بِنْدَاهُ لَمْ تَأْمَنْ مِنَ الطُّوفَانِ

هكذا كان التاريخ حاضراً في أذهان أدباء العصر المملوكي، مجلّين ذلك التاريخ العظيم، بأحداثه وشخصياته، مُتمنّين أن يكون السلطان الناصر، كما كان أسلافه العرب.

ثانياً: المبالغة

ومن الأساليب التي استخدمها الأدباء، أسلوب المبالغة والتهويل، وبرز هذا الأسلوب جلياً في تصوير الأدب نصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون على التتار في معركة مرج الصفر، حين وقف الأدب محتقلاً بهذا النصر، مُعبِّراً عن شجاعة السلطان وجيشه، فالشاعر

(1) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1037.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1035.

(3) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 101.

محمد المنبجي يصوّرُ شِدَّةَ القتل في جيش النتر، حتى عادوا ودمأؤهم من كثرتها "غُدر" جمع "غدير" يقول⁽¹⁾:

وَأَمَّلُوا أَنَّهُا مِثْلُ الَّتِي ذَهَبَتْ فَعُودُوا وَدَمَاهُمْ فِي الْفَلَا غُدرُ
ويُصوّرُ علاء الدين علي بن عبد الظاهر، كثرة قتل الأعداء المنهزمين في حديثه وتصويره المعركة، حيث يُبالغُ في جعل السهل يرتفع بالقتلى حتى يصل الجبل، يقول: "فتساوى السَّهلُ من قتلاهم الجبل"⁽²⁾.

ويُبالغ جمال الدين أبو بكر، في تصوير شجاعة الخليفة والسلطان الناصر، اللذين كانا مع الجنود في المعركة، فيجعل الخليفة يُعيد اليأس أخضراً بكفَّ يده تعبيراً عن إيمانه وصدق نيَّته، يقول⁽³⁾:

لَوْ مَسَّ عوداً يَبِيساً بَطْنُ راحِتهِ أعادَهُ وَهُوَ رَطْبٌ يانِعٌ خَضِرُ
لقد ساندت هذه المبالغة المعاني، وجعلت القارئ بالفعل يتخيّل عِظَمَ المعركة، وقيمة النصر، فهو نصرٌ حقاً يستحقُّ المبالغة في وصفه.

ويُصوّر الصفدي الحريق الذي شبَّ في دمشق، ويُبالغ في التصوير، فيجعل النيل والفرات، يعملان على إخمادها، يقول: "وكان أهل دمشق دعوا طارق النيل والفرات ليعرّى، وخافوا ضلاله فرفعوا له من النار في الظلماء أُلويةً حمراءَ إلى أن أتاها البحر..."⁽⁴⁾.

ثالثاً: التكرار:

ومن السمات الأسلوبية التي برزت في الشعر ظاهرة التكرار، "وتعني تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير، بحيث تشكّل نغماً موسيقياً يتقصّده الناظم"⁽⁵⁾، وهذا ما تعمّده الشاعر

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 92.

(2) المقرّبي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1033.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 99.

(4) مقامة الصفدي رشف الرحيق في وصف الحريق، ص 104.

(5) رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص 188.

الشيخ عبد الله بن خضر الرومي، في قصيدته رثى فيها ابن تيمية، حيث تعمّد تكرار ألفاظ كثيرة، لإظهار صورة شيخ الإسلام ابن تيمية، وأعماله التي عادت على المسلمين بالخير، فهو عندما يُصور فضل ابن تيمية عليه، يُكرّر الضمير "هم" إحدى عشرة مرّة، مما يُضفي على النص موسيقى داخلية، إضافةً إلى إصرار الشاعر على تأكيد المعنى الذي يريد، ومثال على ذلك قوله⁽¹⁾:

وَهُمْ عَيْنُ أَعْيَانِي وَقَلْبِي وَقَالْبِي	وَهُمْ مُنْتَهَى قَصْدِي، وَمَشْهُدُ رُؤْيِي
وَهُمْ فِي مَعَانِيهِمْ حَيَاتِي حَقِيقَةٌ	وَهُمْ فِي مَغَالِيهِمْ، أَهْيَلُ مَوَدَّتِي
وَهُمْ فِي تَجَلِّيهِمْ شُمُوسٌ إِذَا بَدَوُ	وَهُمْ فِي تَجَنُّبِهِمْ رِيَاضِي وَجَنَّتِي
وَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا نِهَآيَةُ مَقْصَدِي	وَهُمْ أَيْنَمَا حَلُّوا مُرَادِي وَبُغْيَتِي

ويُكرّر الشاعر في القصيدة نفسها الكثير من الألفاظ، الدّالة على أعمال ابن تيمية، مثل الفعل "أتى" سبع مرّات⁽²⁾، ويُكرّر الجملة "فَقَدْتُ إِمَاماً" ثلاث مرّات، يقول⁽³⁾:

فَقَدْتُ إِمَاماً كَانَ أَوْحَدَ عَصْرِهِ	وَقَدْ فَجِعَتْ فِيهِ جَمِيعُ الْبَرِيَّةِ
فَقَدْتُ إِمَاماً، لَمْ يَزَلْ مُتَوَكِّلاً	عَلَى اللَّهِ لَا يُصْغِي إِلَى غَيْرِ سُنَّةِ
فَقَدْتُ إِمَاماً كَانَ بِالْعِلْمِ عَامِلاً	وَكَانَ حَقِيقَةً قَامِعاً كُلَّ بِدْعَةٍ

ويُكرّر الشاعر شمس الدين بن سواده، لفظة "الوف" للتأكيد على تأييد الجميع للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهذا التكرار أكسب بيت الشعر لحناً موسيقياً إضافةً إلى تقوية المعنى وتأكيده، يقول⁽⁴⁾:

وَأَقْبَلَ نَحْوَكَ جَيْشُ الْبِلَادِ	أُلُوفاً أُلُوفاً بِجَمٍّ غَفِيرِ
---------------------------------------	-----------------------------------

ويُكرّر ناصر الدين بن النّقيب، اللفظ الترحيب والتّغني بعودة الناصر محمد إلى حكمه ممّا أضفى جرساً موسيقياً خاصاً على أبياته، وأغنى معناه، يقول⁽⁵⁾:

(1) الكرّمي، الكواكب الدّرّية، ص 222.

(2) انظر الكرّمي، الكواكب الدّرّية، ص 223.

(3) المصدر نفسه، ص 223.

(4) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 190.

(5) المصدر نفسه، ج 9، ص 194.

عَادَ لِلْمُلْكِ صَاحِبُ الْمُلْكِ عَادَا ثُمَّ أَبْدَا النِّعْمَا لَنَا وَأَعَادَا
مَرْحَبًا مَرْحَبًا بِأَوْفَى مُلُوكِ الْأَرْضِ قَدَّرَا فِي مُلْكِهِ وَسَادَا

ويُكرَّر صفي الدين الحلِّي لفظة "فتى" سبع مرّاتٍ في رثائه السلطان الناصر محمدًا، تأكيداً منه على المدح، ففي كلِّ بيت، صورةٌ جديدة، يصوِّر فيها الناصر محمدًا، ليكون لتكراره جرساً موسيقياً خاصّاً، يقول منها⁽¹⁾:

فَتَى لَفْظُهُ مَعَ رَأْيِهِ وَتَوَالِيهِ يَجِيءُ ارْتِجَالًا لَا يُغْلِغُهُ الْفِكْرُ
فَتَى لَمْ تُرَنَّحْ نَشْوَةَ الْكِبَرِ عَطْفُهُ وَمِنْ بَعْضِ مَا قَدْ نَالَهُ يَحْدُثُ الْكِبَرُ
فَتَى ذَخَرَ الْحُسْنَى، فَأَعْقَبَ فِعْلُهُ عَوَاقِبُهُ الْحُسْنَى، فَقَدْ نَفَعَ الذُّخْرُ

وأكثر الشاعر جمال الدين أبو بكر من تكرار "كم الخبرية"، في تصويره أفعال المغول وجرائمهم في مدن المسلمين، وقد وُفِّقَ الشاعر في الوصول إلى المعنى الذي يريد، يقول⁽²⁾:

كَمْ قَدْ سَهَرْتُمْ دُجَى مِنْ خَوْفِهِمْ حَذَرًا فَالآنَ نَامُوا فَلَا خَوْفٌ وَلَا حَذَرُ
كَمْ كَابَرُوا الْحُسْنَ فِي قَصْدِ الشَّامِ وَكَمْ قَدْ جَرَّبُوا حَظَّهُمْ بِالشَّامِ وَاخْتَبَرُوا
وَكَمْ أَرَأَقُوا وَكَمْ هَتَكُوا وَكَمْ تَمَلَّؤُوا بِمَا نَالُوا وَكَمْ فَجَرُوا

ويُكرَّر صفي الدين الحلِّي "كاف التشبيه" في خمسة أبياتٍ مُتتالية، يُقدِّم في كلِّ بيت صورةً جديدةً للناصر محمد بن قلاوون، تمّ عرضها في الفصل الأول من البحث، فهو "كالليث"، و"الغيث"، "كالسَّيْل"، و"السَّيْف"، و"البَحْر"، عند صفي الدين الحلِّي⁽³⁾.

رابعاً: السخرية:

واستخدم الأدباء أسلوب السخرية، للتعبير عما يجول في خواطرهم، فهذا ابن الوردي يسخر من المماليك، مُعبِّراً عن سُخطه عليهم بطريقةٍ ساخرة، وفي هذه الأبيات نقدٌ سياسي، حيث يسخر الشاعر من المماليك يقول⁽⁴⁾:

(1) صفي الدين الحلِّي، الديوان، ص 378-379.

(2) المصدر نفسه، ج 9، ص 96-99. انظر رائد عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص 189.

(3) انظر صفي الدين الحلِّي، الديوان، ص 96.

(4) ابن الوردي، الديوان، ص 253.

يا جامعَ المالِ كَيْما تَسْتَرِيحُ به ما راحَةَ القلبِ إِلَّا للصَّعاليكِ
فَكُنْ فَقيراً تَعِشْ عَيْشَ الملوكِ ولا تَكُنْ غَنياً تَعِشْ عَيْشَ المَماليكِ

ويسخر ابن اوردی من حال المتقف في عصره، جاعلاً الجهل أعلى رتبة من العلم،

يقول⁽¹⁾:

ولا تَعَدَّ مِنَ العُقَّالِ بَيْنَهُمُ فَإِنَّ كُلَّ قَلِيلٍ العَقْلُ مرزوقُ
والْحَظُّ أَنْفَعُ مِنْ خَطِّ تَرْوِقِهِ فما يُفِيدُ قَلِيلَ الحَظِّ تَرْوِيقُ
والْعِلْمُ يُحَسِّبُ مِنْ رِزْقِ الفَتَى وَلَهُ بكلِّ مُتَّسِعٍ فِي الفَضْلِ تَضْيِيقُ
ويسخر في أبيات أخرى، قائلاً⁽²⁾:

فيا ذوي الفضلِ رِفْقاً إِنَّ دَهْرَكُمْ لَمْ يَدْرِ ما الفِصَّةُ البِيضا مِنَ السَّبَجِ
جَرَّبَتْ أَهْلَ زَمَانِي واختَبَرْتُ فَلَمْ أَجِدْ كَرِيماً ولا عَوْناً على الحَرَجِ

وسخر الشعراء والأدباء كثيراً من المغول بعد هزيمتهم في معركة مرج الصفر، فهذا

الشاعر جمال الدين أبو بكر، يسخر منهم، ويصورهم يحاولون الفرار، فتتلقاهم سيوف المسلمين،

يقول⁽³⁾:

وَمُرِّقُوا شُرْداً بَيْنَ الزَّحَامِ فَكَمْ شَلَوْ تَنَازَعَ فِيهِ الذَّنْبُ والنَّمِرُ
أَيْنَ المَقْرُ وَقَدْ حَامَ الحَمَامُ بِهِمُ هَيْهَاتَ لا مَلْجأ يُرْجى ولا وَرُ

برزت السخرية كثيراً في الأدب، خاصة في شعر الجهاد، ووصف النصر الذي أحرزه

الناصر محمد بن قلاوون على غازان وجنوده، وعمد الأدباء إظهار هذه السخرية لشفاء

صدورهم وصدور المسلمين من ألم الهزيمة، والإستهزاء بالمغول المهزومين الذين تأملوا

النصر، ولكنهم ما وجدوا إلا الهزيمة، يقول الشاعر محمد المنبجي⁽⁴⁾:

وَأَمَلُوا أَنَّها مِثْلُ التي ذَهَبَتْ فَعُودُوا ودمَاهُمْ فِي الفَلا غُدْرُ
قَابَلَتْهُمْ بِجُيُوشِ مالِهِمْ قَبْلُ بَبَاسِها فَلَقَدْ قُلُوا وَإِنْ كَثُرُوا

(1) ابن الوردي، الديوان، ص 278.

(2) المصدر نفسه، ص 245.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 95.

(4) المصدر نفسه، ج 9، ص 92.

وَالْيَسُوا الذُّلَّ حَتَّى إِنَّ أَشْجَهُهُمْ يَأْتِي إِلَيْكَ بِأَنْفٍ مِنْهُمْ وَتَفَرُّوا

هكذا يسخر الأدب في تلك الفترة من الأعداء الذين يستحقون هذه السخرية فهم من أذواق المسلمين مرارة الهزيمة، والآن لا بد أن يتذوقوا هم هذه المرارة. وكانت سبيلاً للتعبير عن غيظ الأدباء وفرحتهم بهزيمة الأعداء وشفاء صدورهم منهم.

هكذا تنوعت أساليب الأدباء في التعبير عن معانيهم وكانت بالفعل طريقاً سالكاً لقضاء المعنى وتأكيدِه وتوضيحه.

رابعاً: الصنعة البديعية

اعتنى أدباء العصر المملوكي عنايةً بالغةً بالمُحسنات البديعية، وتبارى الكثيرون باستخدامها وتلوين أدبهم بها شعراً ونثراً، وأصبح البديعُ مجالاً من مجالات تنافس الأدباء، يُظهرون خلاله قدرتهم البلاغية، وقد عرَض عبده قلقيلة رأيه في أدب العصر المملوكي قائلاً: "إنَّه أدب مُشبع بالاستعراض البلاغي وميَّال إليه، وهذا الاستعراض قد يحولُ بين القائل وبين الموضوع الفكري، وفي مرَّاتٍ كثيرةٍ كان الاستعراض هو الغاية من الأدب، ولم يكن هذا الاستعراض وليدَ العصر المملوكي... إنما كان له جُنور بعيدة تضرب في أعماق العصر العباسي" (1).

ويؤيد كثيرون من النقاد فكرة اتجاه الأدباء في العصر المملوكي إلى الزخرفة اللفظية، والإسراف في استخدام البديع بألوانه، يرى محمد زغلول سلام: "أنَّ الكتابة الفنية اتجه الكتاب فيها إلى مزيد من التزييق، باستخدام البديع استخداماً مُسرفاً" (2). ويتحدَّث محمد كامل الفقي، عن استخدام الأدباء للفنون البديعية بكثرة، يقول: "عمل الأدباء على الإغراق في البديع، والاستكثار من فنونه، وحشد ألوانه، فما زاده ذلك إلا سُخفاً وتعقيداً، وما كانت آثار هذه الصناعة المشدودة إلاَّ حِجاً كثيفة للمعاني، وأثقالاً مضنية تلهث منها الأفكار والخواطر" (3).

(1) عبده قلقيلة، النقد الأدبي في العصر المملوكي، ص 217.

(2) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، ج 2، ص 41.

(3) محمد كامل الفقي، الأدب في العصر المملوكي، ص 121.

وعلى الرغم من ذلك، تبقى الزينة الأدبية مطلوبة، بقدر مُعيّن، فلا يحسُنُ الاستكثارُ منها، ويُحبَّبُ القليلُ الرائق، غير المُسرّف، ولا أثر له على المعاني.

ومن دراسة الأدب في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، يتبيّن حرص الأدباء على استخدام الفنون البديعية، إلا أنّ استخدامهم لها لم يكن متكلفاً عند الغالبية، ولكنّه كان زينةً للألفاظ، يُعطيها جرساً موسيقياً، لا أثر له على المعاني التي يُعبّرون عنها، منها:

1- الجنس

ومن أكثر الفنون البديعية استخداماً وشيوعاً "الجناس"، حيث شاع في الأدب الذي صور الناصر محمداً، وقد عرّف الكثيرون كان "الجناس"، أو "التجنيس"، وجعلوا له أقساماً وأنواعاً، فكان اتفاقهم على تعريف الجنس بقولهم: "هو اشتراك المعاني في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق"⁽¹⁾، واتفقوا على جمال "الجناس"، إذا كان قليلاً سهلاً لا أثر للكلفة فيه، فهو حينئذٍ كالغرة للوجه، أو كالطراز من الثوب⁽²⁾.

"وقد تبين أنّ ما يُعطي التجنيس من الفضيلة، أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده، لما كان فيه مستحسن، وذلك أن المعاني لا تدّين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه"⁽³⁾.

ومن الأمثلة على "الجناس"، "كتاب الروض الزاهر"، حيث يظهر فيه أثر الجهد الذي بذله علاء الدين بن عبد الظاهر، ويبدو جلياً تعمّد الكاتب إظهار قدرته البلاغية، حين قدّم لوحةً فنيّة، زخرفها بالألفاظ، فهي قد أعطت المعنى المقصود بأجراس موسيقية خاصة، كانت في معظمها جميلة، زادت المعنى وضوحاً، يقول: "وحَمَى الوطيس، وحَمَلَ في يوم السَّبْتِ الخميس على الخميس... وزَحَفَ السلطان وبين يديه أمراؤه...، وأحْدَقُوا بهم إحداق الهدب بالأحداق،

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص 103.

(2) انظر ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص 242.

(3) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، علّق حواشيه السيّد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت-لبنان، 1978م، ص 5.

وراسلوههم بالسَّهام، وشافهوههم بالكلام لا الكلام....، ثُمَّ فَرَجُوا لَهُمْ عَنْ فُرْجَةٍ مِنْ جَانِبِ الْجَبَلِ ظَنُّوا فَرَجًا....، وَالْعَزَائِمُ لِلْعِدَا تَرْدَى وَبَنَصِرَ اللَّهُ تُرْتَدَى وَتَهْزَرُ بَرْدًا....، وَمَصْرُ تَبَعْتُ إِلَيْهِ مَعَ النَّسِيمِ رَسَائِلَ، وَتَبَذَلُ لَهُ فِي تَعْجِيلِ عَوْدِهِ وَسَائِلَ....، وَوَطِئَ بِمَوَاكِبِهِ الْأَرْضَ، فَظَهَرَتْ بِهَا مِنْ مَوَاطِئَ جِيَادِهِ أَهْلَةٌ...⁽¹⁾.

فَقَدْ جَانَسَ الْكَاتِبُ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ: "حَمَى، حَمَلٌ" و"الوطيس، الخميس، الخميس" و"أَحْدَقُوا، إِحْدَقَ، الْأَحْدَاقُ"، و"الكلام، الكلام"، و"فَرَجُوا، فُرْجَةً، فَرَجًا"، و"الْعِدَا، تَرْدَى، تُرْتَدَى"، و"وَطِئَ، مَوَاطِئَ". وقد ظهر تكلف الكاتب في هذه الكلمات رغم نجاحه في اختيار الألفاظ إلا أنها ثقيلة نوعاً ما.

وفي مرسوم السلطان محمد بن قلاوون إلى غازان، يَعْمَدُ الْكَاتِبُ إِلَى التَّجْنِيسِ وَلِيُزَيِّنَ فِيهِ الْمَرْسُومَ، مَعَ عَدَمِ الْإِكْثَارِ وَالْإِسْرَافِ، وَعَدَمِ تَأَثُّرِ الْمَعْنَى، يَقُولُ مُخَاطَباً غَازَانَ: "فَقَابِلْتُمْ ذَلِكَ بِالْإِصْرَارِ، وَحَكَمْتُمْ عَلَيْكُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْأَضْرَارِ، وَخَالَفْتُمْ سُنَنَ الْمُلُوكِ، فِي حُسْنِ السُّلُوكِ....، وَقَدْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَجْدَادُكُمْ عَلَى مَا عَلِمْتُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالنَّفَاقِ، وَعَدَمِ الْمُصَافَاةِ لِلْإِسْلَامِ وَالْوِفَاقِ....، وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ غَزَوْا عَسْكَرَ أَبْغَا، وَلَا حَصَلَ لِمُسْلِمٍ مِنْهُمْ ضَرَرٌ، وَلَا أُوذِيَ فِي وَرْدٍ وَلَا صَدَرٍ..."⁽²⁾.

فَقَدْ جَانَسَ الْكَاتِبُ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ: "الْإِصْرَارِ، الْأَضْرَارِ" و"الْمُلُوكِ، وَالسُّلُوكِ"، و"النَّفَاقِ، وَالْوِفَاقِ"، و"ضَرَرٌ، وَصَدَرٌ". وَجَاءَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ فِي مَكَانِهَا الْمُنَاسِبِ لِإِيْفَاءِ الْمَعْنَى، وَهَذَا الْجِنَاسُ هُوَ جِنَاسُ "التَّصْرِيفِ": وَهُوَ "اِخْتِلَافُ صِيغَةِ الْكَلِمَتَيْنِ بِإِبْدَالِ حَرْفٍ مِنْ حَرْفٍ"⁽³⁾.

وَيَصِفُ ابْنُ الْوَرْدِيِّ حَرِيقَ دِمَشْقَ، فِي مَقَامَتِهِ "الْصَفْوُ الرِّحِيقُ فِي وَصْفِ الْحَرِيقِ"، فَيَسْتَخْدِمُ الْجِنَاسَ، لِيُزَيِّنَ بِهِ مَقَامَتَهُ، وَيُغْنِي بِهِ مَعَانِيَهُ، يَقُولُ: "فَارْتَاعَ النَّائِبُ بِدِمَشْقَ لِهَذِهِ النَّائِبَةِ، وَكَاتَرَهَا بِالْمَاءِ الَّذِي بَلَغَ مِنْ وَجْهِهِ الْقُلُّ، وَسَدَّ بِمَمَالِكِهِ وَأُمَرَاءِهِ خَلَلَ هَذَا الْأَمْرِ الْجَلَلِ....،

(1) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1032-1036.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1018-1021.

(3) ابن أبي الإصبع، تحرير التحرير، ص 107.

وَأَصْبَحَ أَهْلُ دِمَشْقَ حَيَارَى لَا يَكَادُونَ مِنَ الْوَجَلِ يَسْتَنْبِتُونَ اسْمَهَا، وَلَا يَعْرِفُونَ حَدَّ رَسْمِهَا،
وَالدَّهْشَةَ مَدْهُوشاً عَنْهَا...، وَمَا نَفَضَ النَّاسُ غِبَارَ هَذَا الْقَادِحِ، حَتَّى وَقَعَ حَرِيقُ فَادِحٍ، عِيلَ عَلَيْهِ
الصَّبْرُ، وَتَمَنُّوا قَبْلَهُ الْقَبْرُ...⁽¹⁾.

فَقَدْ جَانَسَ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ: "الْقَلْلُ، خَلَلٌ، الْجَلَلُ" و"اسْمَهَا، رَسْمَهَا" و"الدَّهْشَةُ، مَدْهُوشٌ"
و"القَادِحُ، فَادِحٌ"، و"الصَّبْرُ، الْقَبْرُ". وواضح أنَّ الكلفة بادية عند استخدامه الجنس.

ويُكْتَبُ شَمْسُ الدِّينِ بْنِ الْقَيْسِرَانِي، عَهْدَ الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قِلَافُونَ، عَنِ الْخَلِيفَةِ
الْعَبَّاسِيِّ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الرَّبِيعِ سُلَيْمَانَ، وَمِنْ جَمَلِهِ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقَامَ نَاصِرَ
الْإِسْلَامِ وَأَهْلَهُ بِخَيْرِ نَاصِرٍ"⁽²⁾.

قَدْ جَانَسَ بَيْنَ كَلِمَتِي "نَاصِرٍ" بِمَعْنَى نَصَرَ الْإِسْلَامَ عَلَى الْكُفْرِ، وَكَلِمَةِ "نَاصِرٍ" الثَّانِيَةِ لِقَبِ
السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ بْنِ قِلَافُونَ.

وَيَقُولُ أَيْضاً: "وَأَحْلَ فِي السُّلْطَانَةِ الْمُعْظَمَةِ مَنْ اسْتَحَقَّ بِذَاتِهِ الشَّرِيفَةَ وَشَرَفَ
الْعُنَاصِرِ"⁽³⁾.

حَيْثُ جَانَسَ الْكَاتِبُ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ "الشَّرِيفَةُ" و"شَرَفٌ"، وَهَذَا التَّجَانُسُ لَا تَتِمَّاثِلُ فِيهِ
الْكَلِمَتَانِ إِلَّا مِنْ وَجْهِ الْإِشْتِقَاقِ⁽⁴⁾.

هَذَا مَا كَانَ فِي النُّثْرِ مِنَ التَّجْنِيسِ، وَالْأَمْثَلَةُ كَثِيرَةٌ، تَحْتَاجُ لِدَرَاةٍ كَامِلَةٍ حَتَّى يَتِمَّ
حَصْرُهَا، أَمَا فِي الشَّعْرِ، فَمِنْ الْأَمْثَلَةِ عَلَى الْجِنَاسِ، قَوْلُ الشَّاعِرِ مُحَمَّدِ الْمُنَبِّجِيِّ فِي تَصْوِيرِهِ
جَيْشَ النَّتَارِ الْمَهْزُومِ⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ ابن الوردي، الديوان، ص 119-123.

⁽²⁾ القلقشندي، صُبْحُ الْأَعَشَى، ج 10، ص 59.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج 10، ص 59-60.

⁽⁴⁾ انظر ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص 105.

⁽⁵⁾ الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 93.

رَامُوا، وَقَدْ حَشَدُوا، غُلْبًا فَمَا غَلَبُوا وَحَاوَلُوا النَّصْرَ تَضَلُّيلاً فَمَا نَصَرُوا
حيثُ جَانَسَ بَيْنَ كَلِمَتِي "غُلْبًا" الاسم و"غَلَبُوا" الفعل، وهذا من جناس "التغاير" حيث إحدى
الكلمتين اسماً والأخرى فعلاً⁽¹⁾.

ويقول في بيتٍ آخر يدعو فيه للسلطان الناصر⁽²⁾:

نَادَى بِهِمْ صَارِخٌ أَغْرَى الْفَنَاءَ بِهِمْ فَإِنْ سَأَلْتَ فَلَا خُبْرٌ وَلَا خَبَرُ
فهو يُجانس بين كلمتي "خُبْر" و"خَبَر" وهذا من جناس "التحريف" حيث يكون الشكل "أي
التشكيل" فارقاً بين الكلمتين⁽³⁾.

ويقول صفي الدين الحلّي، في ممدوحه السلطان الناصر محمد بن قلاوون⁽⁴⁾:

فَإِذَا نَظَرْتَ نَدَى يَدَيْهِ وَرَأْيَهُ لَمْ تُلَفِ إِلَّا صَائِباً أَوْ صَائِباً
فهو يُجانس بين كلمتي "صَائِباً" الأولى التي تعني المطر، و"صَائِباً" الثانية التي تعني
المُصيب للهدف، وهذا من الجناس التام، حيث تتفق الكلمتان لفظاً وتختلف في المعنى⁽⁵⁾، وهو
من أفضل أنواع الجناس، وقد اتقن صفي الدين الحلّي استخدام الجناس، فجاء مُلائماً لمعانيه،
مُكسباً ألفاظه جرساً موسيقياً. فها هو في هذه الأبيات يستخدم جناس الترجيع أو التجنيس الناقص
أو تجنيس التذييل، وكل هذه المُسمّيات هي لنوع واحد من الجناس يوجد في إحدى كلمتيه حرف
أو حرفان لا يوجد في الأخرى، وجميع حُرُوف الأخرى موجود في الأولى، وقد تكون الحُرُوف
الزيادة في وسط الكلمة أو في بدايتها أو في نهايتها، يقول مادحاً السلطان⁽⁶⁾:

وَرَفَعْتَ قَدْرِي فِي الْأَنَامِ، وَقَدْ رَأَوْا مِثْلِي لِمِثْلِكَ خَاطِباً وَمُخَاطِباً
فَطَفِقْتُ أَمْلأُ مِنْ ثَنَّاكَ وَنَشْرِهِ حَقَباً، وَأَمْلأُ مِنْ نَدَاكَ حَقَائِباً

(1) انظر ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص 104.

(2) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 95.

(3) انظر ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص 106.

(4) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 97.

(5) انظر ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص 102.

(6) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 98.

فَرَاوُكٌ فِي جَلْبِ النَّضَارِ مُفَرَّطاً وَعَلَى صِلَاتِكَ وَالصَّلَاةِ مُوَظَّيًّا

فقد جَانَسَ بين الكلمات: "مثلي ومثلك"، و-"خاطباً ومُخاطباً" و"حَقَّاباً وَحَقَائِباً"، و"صِلَاتِكَ والصَّلَاةَ"، وكل هذه الكلمات زادت من جمال النصِّ، وَمِنْ تَأْثِيرِهِ فِي النُّفُوسِ وَجَعَلَتْ الْمُتَنَقِّي يُحَاوِلُ الْوُصُولَ إِلَى الْمَعْنَى بِإِمْعَانٍ النَّظَرَ فِي النَّصِّ دُونَ مَلَلٍ.

2- السَّجْع

أَمَّا النَّوعُ الثَّانِي مِنَ الْفُنُونِ الْبَدِيعِيَّةِ، الَّتِي أَكْثَرُ الْأَدْبَاءِ مِنْهَا فِي أَدْبِهِمْ "السَّجْعُ" الَّذِي ظَهَرَ فِي جُلِّ النَّثْرِ فِي الْعَصْرِ الْمَمْلُوكِيِّ، وَلَمْ تَخْلُ مِنْهُ قِطْعَةٌ نَثْرِيَّةٌ، "وَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّ السَّجْعَ الَّذِي فُتِنَ بِهِ كُتَّابُ هَذَا الْعَصْرِ، وَصَارَ لَازِمَةً فِي أُسْلُوبِهِمْ أَعْدَى الْكِتَابَةِ التَّارِيخِيَّةِ فَبَنَى أُسْلُوبَ التَّأْلِيفِ فِيهَا عَلَى السَّجْعِ"⁽¹⁾.

وَيَخْتَصُّ السَّجْعَ بِالْكَلَامِ الْمَنْثُورِ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: "وَاعْلَمْ أَنَّ صِنَاعَةَ تَأْلِيفِ الْأَلْفَافِ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَمَانِيَةِ أَنْوَاعٍ، مِنْهَا: السَّجْعُ، وَيَخْتَصُّ بِالْكَلَامِ الْمَنْثُورِ"⁽²⁾، "وَلَا يَحْسُنُ مَنْثُورُ الْكَلَامِ وَلَا يَحُلُو حَتَّى يَكُونَ مَزْدُوجاً، وَلَا تَكَادُ تَجِدُ لِبَلِيغٍ كَلَاماً يَخْلُو مِنَ الْإِزْدَوَاجِ"⁽³⁾، "وَإِذَا سَلِمَ مِنَ التَّكَلُّفِ، وَبَرِيءٌ مِنَ التَّعَسُّفِ لَمْ يَكُنْ فِي جَمِيعِ صَنُوفِ الْكَلَامِ أَحْسَنَ مِنْهُ"⁽⁴⁾، "وَأَنْ تَكُونَ كُلُّ فَاصِلَتَيْنِ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ أَوْ ثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ لَا يَتَجَاوَزُ ذَلِكَ كَانَ أَحْسَنَ... فَإِنْ جَاوَزَ ذَلِكَ نُسِبَ إِلَى التَّكَلُّفِ"⁽⁵⁾.

وَيَبْدُو أَنَّ النَّثْرَ فِي الْعَصْرِ الْمَمْلُوكِيِّ كَانَ حَسَنَ الْإِسْتِخْدَامِ لِلْسَّجْعِ، يُلْجَأُ إِلَيْهِ الْأَدْبَاءُ طَلِباً لِعُذُوبَةِ الْكَلَامِ، وَصَفَاءِ الْأَسْمَاعِ، وَسَلَاسَةِ وَقَعِ الْكَلَامِ عَلَى الْأَذْهَانِ، فَالسَّجْعُ يُكْسِبُ النَّصَّ مُوسِيقَى عَذْبَةٍ مَطْلُوبَةٍ، لِتَكُونَ إِلَى جَانِبِ الْمَعْنَى تُكْسِبُهُ طَرَباً، وَهَنَاقَ أَمْثَلَةٍ كَثِيرَةٍ عَلَيْهِ، مِنْهَا مَا جَاءَ فِي مَرْسُومِ السُّلْطَانِ فِي عَقِيدَةِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، يَقُولُ: "إِنَّ الْعَقَائِدَ الشَّرْعِيَّةَ وَقَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ

(1) محمد كامل الفقي، الأدب في العصر المملوكي، ص 122.

(2) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مكتبة محمود توفيق، القاهرة، ط 1، 1935م، ص 74.

(3) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، الصناعتين الكتابية والشعر، حققه وضبط نصه مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ص 285.

(4) المصدر نفسه، ص 286.

(5) المصدر نفسه، ص 288.

المرعية، وأركان الإسلام العلية ومذاهب الدين المضنية، هي الأساس الذي يُبنى الإيمان عليه، والمؤمل الذي يرجع كلُّ أحد إليه..."⁽¹⁾ ويتابع المرسوم مستخدماً السجع من بدايته إلى نهايته.

ومن الأمثلة عليه، ما جاء في كتاب عن الملك الناصر، لأحد عامليه، يقول فيه: "وليوصل إليه هذا المرتب ميسراً لا يُكدر موره بتأخير، وليُصرف إليه مهنئاً لا يُشأن طولَه بتقصير، ولا يحوجُ إلى عناءٍ وطلب، ولا يلجأ في تناوله إلى كدٍّ أو تعب، بل يُرفقه خاطره عمّا فاز به من حسن المنقلب، والله تعالى يمده بعونه وفضله، ويُنجبُ فرعه ببركة أصله..."⁽²⁾

ويستخدم ابن الوردي السجع في مقامته "الصفو الرحيق في وصف الحريق" فلا تخلو جملة منه من بداية المقامة إلى نهايتها، يقول في موضع، مصوراً هول الحريق: "فبينما الحنايا في المرقب من اللهب، وقلوبُ أصحابها في المعرّة، وأعينهم في حلب، وإذا بالنائب قد أقبل، وصبره مقلّص ودمه مسبل، وقال وأسفاه لمدينة عمرّتها، ووالهفا لأوقات ثمرّتها، كيف تصل النارُ إلى محاسنها، وتتمكن من أماكنها..."⁽³⁾

يملاً السَّجْع أدب العصر، والأمثلة كثيرة يطول عرضها، فلا يكاد يخلو كتاب أو مرسوم أو رسالة من السَّجْع، أيّاً كان موضوعه، يتفنّن فيها الكاتب بعرض قدرته على الإتيان بالألفاظ، وتنسيقها داخل النصّ لتعطي المعنى المطلوب بأسلوب موسيقى عذب.

ولكنّ الصفدي لم يُوفّق في استخدامه للسَّجْع في مقامته "رشف الرحيق في وصف الحريق"، فهو من البداية متكلف الألفاظ، مُعَدّد للمعاني، لا يخدمُ اللَّفْظ عنده المعنى، بل يطغى عليه ويُعقّده، يقول: "لم تزل أذني مُتَشَنِّقة بأوصاف دمشق، مُتَلَذِّدة بما للأقلام في ذكر محاسنها من التعليقِ والتمشّق، حتى رأيت الحزم، شدَّ الكور إليها والحُزم، فأزمتُ السيّر، ولم أزر الطّير، وقطعتُ أديم الأرض إليها بالسيّر، وركبتُ إليها مطا الشّوق، قبل مطايا السّوق..."⁽⁴⁾.

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 139.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 13، ص 57.

(3) ابن الوردي، الديوان، ص 135.

(4) مقامة الصفدي "رشف الرحيق في وصف الحريق"، ص 96.

3- الطبايق

ومن الفنون البديعية، التي طرّحها أدباء عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون في أدبهم، "الطبايق" الذي اشتغل فيه النقاد كثيراً، وأفردوا له باباً في دراساتهم "ورأوا أنّ الكلام الذي قد جمع فيه بين الضدين يحسن أن يُسمّى مُطابِقاً، لأنّ المتكلّم به قد طابَق فيه بين الضّدين"(1)، وعرفه ابن الأثير قائلاً: "المُطابِقة عند جميع الناس: جمْعُك بين الضّدين في الكلام أو بيت الشعر"(2).

والطَّبَاق يُكسب العمل الأدبي قيمةً جمالية، إذ مكّن الأديب من المقارنة بين موقفين متناقضين، وصورتين متخالفتين، كما أنّ له فائدة كبيرة في جذب انتباه السامعين لما ينتج عنه من أخيلة، وصور شعريّة، فالمتلقّي لا يلبث أن ينتقل من صورة أو معنى مُعيّن إلى صورة ومعنى مُضادّ له، ولهذا كان له علاقة وثيقة ببلاغة الكلام(3).

وقد وظّفه أدباء العصر المملوكي، واستغلّوا قيمته البلاغية، يقول الشاعر جمال الدّين أبو بكر، في جيش المسلمين(4):

لِلّهِ كَمْ دُيِّنُوا فِي نَصْرِ دِينِهِمْ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا ادَّخَرُوا
حيثُ طابَقَ الشاعر بين كلمتي "أنفقوا" و"ادّخروا" لتصوير قيمة الجهاد في قلوب المؤمنين.

ويستغلُّ ابن الوردي الطَّبَاق، في إجراء مقارنة حادة، بين أهل العلم والجاهلين في زمنه، حيثُ الجاهل يُرْفَع وتعلو قيمته، وهو هنا ناقد لزمانه، يقول(5):

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص 111.

(2) ابن رشيق، العمدّة، ج 2، ص 5.

(3) انظر رائد مصطفى عبد الرحيم، فنّ الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي، دار الرازي، عمان-الأردن، 2003م، ص 380.

(4) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 94.

(5) ابن الوردي، الديوان، ص 245.

لَا تَعْجَبُوا لَارْتِفَاعِ الْجَاهِلِينَ بِهِ وَخَفَضِكُمْ بِالرِّضَا مِنْكُمْ أَوْ اللَّجَجِ

حيث طابق بين كلمة "خفض، ارتفاع"، بأسلوب ساخر، نجح فيه بإيصال المعنى المقصود.

ويستغل ابن فضل الله العمري الطباق، ليضيف جمالاً على رثائه شيخ الإسلام ابن تيمية، ويوظفه ليُقابل بين ابن تيمية وأعدائه، يقول⁽¹⁾:

وَلَا تَعْبِسُ حَرْبٌ فِي مَوَاقِفِهِ يَوْمًا، وَيَضْحَكُ فِي أَرْجَائِهَا الظَّفَرُ
أَيَذْهَبُ الْمَنْهَلُ الصَّافِي وَمَا نَفَعَتْ بِهِ الظُّمَأُ، وَتَبْقَى الْحَمَاءُ الْكَدَرُ؟
وَلَيْتَهُمْ أَدْعُنُوا لِلْحَقِّ مِثْلَهُمْ فَأَمَنُوا كُلُّهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا كَفَرُوا

فهو يُطابق بين "تعبس ويضحك"، وبين "المنهل الصافي والحماة الكدر" وبين "آمنوا وكفروا"، وقد أكسب المعنى ثباتاً في استخدامه للطباق وأغنى فكرته بصور متقابلة، جذبت القارئ.

ويُصور شرف الدين ابن الوحيد، النصر الذي أحرزه المسلمون في مرج الصفر، مستخدماً الطباق للتعبير عن معانٍ متضادة، تُغني المعنى وتزيده جمالاً، وتجعل القارئ يُمعِنُ النظر في الشعر، ليتقصّى معانيه، يقول⁽²⁾:

وَلَمَّا غَزَا غَازَانُ عَقَرَ دِيَارِنَا وَأَعْطَاهُ مَنْ يُعْطِي وَمَنْ يَمْنَعُ النَّصْرَا
فَأَنْصَفَتِ الْإِيَّامُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَنَا فَكَانَتْ لَهُ الْأُولَى وَكَانَتْ لَنَا الْآخَرَى

حيثُ طابق الشاعر بين الكلمات، "يُعطي ويمنع" و"الأولى والآخرة"، وجاءت كلماته في محلّها، أكسبت المعنى وضوحاً.

4- المقابلة:

ومن الفنون البديعية "المقابلة" وهي "إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة"⁽³⁾. "فتعطي أول الكلام ما يليقُ به أولاً، وآخره ما يليقُ به آخرًا، ويأتي

(1) الكرّمي، الكواكب الدريّة، ص 184-185. انظر رائد مصطفى عبد الرحيم، فن الرثاء، ص 381.

(2) رائد مصطفى عبد الرحيم، فن الرثاء، ص 382.

(3) العسكري، الصناعتين، ص 371.

في الموافق بما يُوافقه، وفي المُخالف بما يُخالفه، وأكثر ما تجيء المُقابلة في الأضداد، فإذا جاوز الطَّباق ضدَّين كان مُقابلة⁽¹⁾، ومن الأمثلة عليها في أدب العصر المملوكي، قول محمد المنبجي مُصوِّراً شجاعة السلطان الناصر محمداً⁽²⁾:

رَفَعْتَ بِالنَّصْرِ أَعْلَامَ الْهَدْيِ وَلَقَدْ جَرَدْتَ لِلشَّرْكِ كَسْرًا لَيْسَ يَنْجَبِرُ
يَوْمَ تَدَارِكُ جَمْعَ الْمُسْلِمِينَ بِهِ مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي يَدَيْهِ النَّفْعُ وَالضَّرَرُ
يَا مَنْ بِهِ رَأَتْ الْأَوْقَاتُ وَابْتَسَمَتْ بَعْدَ الْعُبُوسِ فَمَا فِي صَفْوِهَا كَدَرُ

يقابل الشاعر بين نصر المسلمين الذي أحرزه الناصر، وهزيمة أعدائهم التي أدت إلى كسرهم مدّاً طويلاً كما يقارن بين حال المسلمين قبل النصر، وحالهم بعده.

وتكثر المُقابلة في شعر الجهاد، حيث يقابل الشعراء بين حال المسلمين قبل النصر وبعده، وبين حال المسلمين المنتصرين وحال المغول المهزومين، والمُقابلة بين القائد المسلم والقائد الكافر المعتدي⁽³⁾ والمُقابلة بين حال الشعب في ظل حكم الناصر، وحالته قبل ذلك في ظل حكم من سلب الحكم منه، فالناصر يجلب الخير، على العكس من غيره الذي جلب الفقر والقطط.⁽⁴⁾

ويُقابل ابن الوردي بين حال أهل العلم، وحال أهل الجهل في نقدٍ لاذعٍ لزمانه، يقول⁽⁵⁾:

أَهْلُ الْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ قَدْ كَسَدُوا وَالْجَاهِلُونَ فَقَدْ قَامَتْ لَهُمْ سَوَاقِبُ
وَلَى الْمُضْطَرُّ لَمَّا فَاتَهُ الظَّفَرُ وَنَاصِرُ الْحَقِّ وَافِي وَهُوَ مُنْتَصِرُ

5- التشبيه

وبرز التشبيه بصورة جليّة في مراثي شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي حبسه السلطان، وسلَّطَ عليه نارَ حِقْدِهِ، حتى منع عنه الدَّوَاةَ والقَلَمَ، وماتَ حَسِيرًا في حبسه، ممَّا أشعلَ نارَ

(1) ابن رشيقي، العمدة، ج 2، ص 15.

(2) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 92-93.

(3) المصدر نفسه، ج 9، ص 95.

(4) المصدر نفسه، ج 9، ص 191.

(5) ابن الوردي، الديوان، ص 278.

الغضب عند مؤيديه، وبدأوا بمحاولة رثائه وإلقاء اللوم على أعدائه وحابسيه بطريقة حذرة، يقول ابن فضل الله العمري، في شجاعة ابن تيمية⁽¹⁾:

وَشَقَّ فِي الْمَرْجِ وَالْأَسْيَافِ مُصَلَّتَةً طَوَائِفَ كُلِّهَا، أَوْ بَعْضُهَا التَّتَرُّ
هَذَا وَأَعْدَاؤُهُ فِي الدُّورِ أَشْجَعُهُمْ مِثْلَ النِّسَاءِ بَظِلِّ الْبَابِ يَسْتَتَرُ

حيث يسخر الشاعر من أعداء ابن تيمية، ومن سُخْفِهِمْ وتخاذُلِهِمْ، حَتَّى يَتَّهَمُهُم بالتعامل مع التَّتار في قوله: "طَوَائِفَ كُلِّهَا، أَوْ بَعْضُهَا التَّتَرُّ"، فهو يجعل ابن تيمية يقف وحده يُقَاتِل الأعداء، والبقية "اشجعهم" لا يجرؤ على مقابلة الأعداء، فيُشَبِّهُهُم بالنساء لجنبنهم.

6- التورية

يستخدم ابن الوردي "التورية" في رثائه ابن تيمية، مُعَبِّراً عن حُزْنِهِ وَسُخْطِهِ لما لاقاه هذا الشيخ الجليل، مُحاولاً غِيْظَ أعدائه، خَاصَّةً السلطان الذي حَبَسَهُ وآذاه، يقول⁽²⁾:

صَبْرًا لَصَرْفِ زَمَانٍ قَاطِعِ الْحَجَجِ لَمْ يَدْرِ مَا صِحَّةُ الْمَمْشَى مِنَ الْعَرَجِ
فَإِنَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ الصَّدْقِ قَدْ عَرَجُوا فَاعْذِرْ فَلَيْسَ عَلَى الْعَرْجَانِ مِنْ حَرَجِ
فَلَا تُزَاحِمْ عَلَى الدُّنْيَا الْكِلَابَ فَمَنْ يُزَاحِمِ الْكَلْبَ فِيمَا نَالَهُ يَهْجِ

يستخدم الشاعر لفظة "الكلاب" بمعناها القريب، "الحيوان" وهو يقصد معناها البعيد "الحكام" الظالمين الذين آذوا ابن تيمية.

ويستخدم الصفدي التورية في مقامته "رشف الرحيق"، مُحاولاً إظهار قدرته البلاغية، يقول: "فَأَلْفَيْتُ الْعَصَا فِي سَاحَتِهَا وَأَلْفَيْتُ زَوَالَ النَّعْبِ فِي مُصَافِحَةِ رَاحَتِهَا"⁽³⁾، فهو يستخدم كلمة "راحتها" بمعناها القريب الذي يقصده ضد التعب، والمعنى البعيد لها راحة اليد.

ويستخدم ابن الوردي التورية في مقامته وهو يصف النصاري الذين تسببوا بحريق دمشق، ساخرًا منهم ومن أفعالهم، يقول "هَذَا فِعْلٌ مَنْ يَعْبُدُ مَا صَوَّرَهُ بِيَدِهِ فِي الْحَائِطِ وَيُصَلِّي مُتَلَطِّخًا

(1) الكرمي، الكواكب الدرية، ص 186.

(2) ابن الوردي، الديوان، ص 245.

(3) مقامه الصفدي "رشف الرحيق"، الديوان، ص 97.

بالبول والغائط...⁽¹⁾ مستخدماً ألفاظ البول والغائط للإشارة إلى نجاسة النصارى الذين يدعون الدين والطهارة.

هكذا كانت التورية سبيلاً يطرّقه الأدباء للتعبير عنما في قلوبهم مع المحافظة على سلامتهم من بطش الحكام.

7- إرسال المثل

ومن أساليب الأدباء البيانية "إرسال المثل"، وهو نوعٌ لطيفٌ من البديع، حيث يأتي الشاعر في بعض بيت بما يجري مجرى المثل، من حكمةٍ أو نعتٍ أو غير ذلك⁽²⁾، وهذا كثير في أدب العصر المملوكي، لشعور الأدباء بحاجة المجتمع وهكذا وعظ، فهذا الشاعر جمال الدين أبو بكر، يبيّن الحكم للمسلمين، ترغيباً وتحريضاً لقتال الأعداء، يقول⁽³⁾:

سَجَلًا سَجَلٌ فَإِنَّ الدَّهْرَ ذُو نَوْبٍ	مَنْ ذَا يُغَالِبُ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
فَمَا يُفَكِّرُ فِي الإِدْبَارِ عَاقِبَةً	وَيَحْزِمُ الأَمْرَ إِلَّا مَنْ لَهُ نَظَرُ
وَلَا يَعَافُ شَرَابَ الذُّلِّ عَنْ ظَمًا	وَيَوْمِقُ العِزَّ إِلَّا مَنْ لَهُ خَطَرُ

وفي مرسوم السلطان محمد بن قلاوون، إلى غازان، حكمةٌ وعِظَةٌ، يبيّنها الكاتب تشجيعاً ورفعاً للمعنويات، بعد الهزيمة التي مُنيَ بها المسلمون سنة 699هـ، يقول الكاتب: "وما زالت تتفق الوقائع بين الملوك والحروب، وتجري المواقف التي هي بتقدير الله، فلا فخر فيها للغالب ولا عار على المغلوب، وكم من ملك استظهر عليه ثم نصر، وعأوده التأييد فجبره بعدما كسر، خصوصاً ملوك هذا الدين، فإن الله تكفل لهم بحسن العقبى"⁽⁴⁾.

(1) ابن الوردي، الديوان، ص 126.

(2) ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، ص 102.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 97-98.

(4) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1020.

أما "الالتفات"، وهو عند العسكري "أن يفرغ المتكلم من المعنى، فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به"⁽¹⁾، فقد جاء في قول ابن فضل الله العمري في رثاء ابن تيمية⁽²⁾:

فَلَيْتَهُمْ مِثْلَ ذَاكَ الرَّهْطِ مَالاً حَتَّى يَكُونَ لَكُمْ فِي شَأْنِهِمْ عِبَرُ

فقد انتقل الشاعر من "الغيبة" ليتهم، إلى الخطاب "لكم".

ويتحدث العسكري عن نوع ثانٍ من الالتفات وهو "أن يكون الشاعر آخذاً في معنى وكأنه يعترضه شك أو ظن أن راداً يرد قوله أو سائلاً يسأله عن سببه فيعود راجعاً إلى ما قدّمه... فإما أن يؤكد، أو يذكر سببه"⁽³⁾، ومثاله في بيت الشاعر جمال الدين أبو بكر⁽⁴⁾:

كِنَانَةُ اللَّهِ مِصْرٌ جُنْدُهَا ثَبَتَتْ لَا رَيْبَ فِيهِ وَجُنْدُ اللَّهِ تَنْتَصِرُ

هذه بعض الفنون البديعية التي استخدمها أدباء عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والذين أكثروا من استخدام السجع، والجناس والطباق، إضافة إلى اعتدالهم في استخدام الفنون الأخرى.

خامساً: الصورة الفنية

يلجأ الأديب إلى الصور الفنية المتعددة لإعطاء أدبه قيمة فنية معينة، تُضفي جمالاً على الأفكار والمعاني، وتكون ذات قيمة مميزة للتعبير، حيث تجسّد الألفاظ وتشخصها، وتصوغها صياغةً جديدة مؤثرة، تجذب انتباه القارئ، وتشدّ ذهن السامع، وتجعلها يعيشان داخل النص، ويشعران بالتجربة وكأنهما يخوضانها، وليس للواصف إلا أن يلوّح ويشير، من غير إبانة ولا

(1) العسكري، الصناعتين، ص 438.

(2) الكرّمي، الكواكب الدرية، ص 185.

(3) العسكري، الصناعتين، ص 439.

(4) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 94.

حُجَّةً، وقد أجمع الجميع أنَّ الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأنَّ للاستعارة مزيةً وفضلاً، وأنَّ المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة⁽¹⁾.

والدارس لأدب العصر المملوكي، يجدُّ الأدباء وقد تَفَنَّنوا في عَرْضِ صُورِهِم الأدبيَّة شعراً ونثراً، حتَّى لا تكادُ تخلو قطعة أدبية من هذه الصُّور، ولعلَّ طبيعة المواضيع التي طرقها الأدباء في تلك الحقبة، كان لها دورٌ بارزٌ في انتقاء الصُّور الأدبية وإبرازها لتلائم مواضيع أدبهم معتمدين على التشخيص والتجسيم والوصف، مستخدمين ضروب علم البيان من تشبيه واستعارة وكناية، ولم تكن هذه الضروب البلاغية جديدة على الأدب، فهي موجودة منذُ العصر الجاهلي وما بعده، ولم يكن عجباً أن يستمد أدباء العصر المملوكي صورهم من أسلافهم، أحياناً، أو تغيير الصور القديمة لتلائم الواقع الجديد، أو ابتكار صُور جديدة وتوليدها، وفي كلِّ ذلك خدمة للمعنى، وتوضيحاً للمقصود، ولم يكن مصدراً أعمق من القرآن الكريم والسنة النبوية، ثمَّ التراث القديم، ينهلُ منه الأدباء صُورهم.⁽²⁾

والصورةُ تحوَّل الصَّامتُ صوراً تفيض بالحياة، والمحسوس إلى معنى، فهذا الكاتب كمال الدين ابن الأمير، يجعل للفحشاء رؤوساً، تغلب عليها الناصر بقوة إيمانه، يقول: "تحمده على نعم بلغت من إقامة منار الحق المراد....، ونكست رؤوس الفحشاء، فعادت على استحياء إلى مستسلها أقبح معاد..."⁽³⁾.

ويستمدُّ الأدباءُ صورهم من مصادر مُتنوّعة موجودة بين أيديهم، وأمام أعينهم، وكانت "الطبيعة الحيّة والميتة"⁽⁴⁾، مصدرّاً غنياً حاورها الأدباء واقتبسوا منها صُورهم، حيث الحيوان والإنسان والجماد جعلها الأدباء صُوراً ناطقة، فهذا الدواداري يجعل الطير ناطقاً، والنيل مُتحدّثاً، ويُنطقُ المُدُن والقلاع وكلُّها في حركة دؤوب، لاستقبال الناصر، فكان من جملة: "وقالت

(1) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد أبو بكر، الإيجاز شرح كتاب دلائع الإعجاز، صحّحه وعلّق عليه أحمد مصطفى المراغمي بك، دار المكتبة العربية، ط 1، 1950م، ص 47.

(2) انظر رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص 214.

(3) المقرئ، السلوك، ج 2، ق 3، ص 937.

(4) عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في شعر أبي تمام، جامعة اليرموك، اربد-الأردن، ص 30.

القاهرة، وهي كالوالهة الحائرة: وحقّ مَنْ أذلّني بعدَ عزّي، وأعزّني بناصري بعدَ مُعزّي...، فقالت القلعة، وهي لا ترقى لها دمة، وتربة الكامل غاية منايي، وأولّ مَنْ جدّد معلمي وبني بي، لولا تحقّقي أنّ الناصرَ أجلّ الملوك من سكاني...⁽¹⁾.

وكانت صورة الغيث المغيث حاضرة في أذهان الأدباء عند تصويرهم كرم الناصر، وبيان أهميته في جلب الاستقرار للمسلمين، فالغيث مطلبُ جميع الكائنات، وهكذا كان الناصرُ طلبَ جميع الكائنات، يقول الشاعر⁽²⁾:

فَهُوَ غَيْثُ الثَّرَى وَغَوْتُ الْبَرَايَا أَيْنَمَا حَلَّ حَلَّتِ النِّعْمَاءُ

وصورة الكرم، هذه تجمع بين الطابع الاجتماعي والطابع الديني، يُتابع فيه الخلف أمجاد السلف، ويتوارث هذه الصورة الأدباء جيلاً بعد جيل، لتبقى صورة الكرم، مُقابل صورة تكديس الأموال وجمعها أو هدمها⁽³⁾، وهذه هي الصورة التي رسمها صفي الدين الحلّي للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، حيث جعل صورة المجد والكرم تُبنى بتوزيع "تشتيت" المال وهدمه، يقول⁽⁴⁾:

مُبَدَّدُ شَمْلِ الْمَالِ، وَهُوَ مُجَمَّعٌ وَجَامِعُ شَمْلِ الْحَمْدِ وَهُوَ مُبَدَّدٌ

واستجمع صفي الدين الحلّي عناصر الطبيعة المتحرّكة، وصوّر الناصر بها، مُنطقاً تلك العناصر، مُذهشاً القارئ لروعة تلك الصُور، فهو يستجمع خيرها وشرّها جاعلاً للخير للرعية، ومُختاراً الشرّ للأعداء، فكما يغيث الغيث الأرض قد يكون سيلاً جارفاً وكما يحمي الليث غابته فهو يُظهرُ أنيابه عند القنيص وكذلك البحر، فله من العجائب ما لا يُحصى⁽⁵⁾.

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 164.

(2) المصدر نفسه، ج 9، ص 90.

(3) انظر عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في شعر أبي تمام، ص 125.

(4) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 342.

(5) انظر صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 96.

واعتمد الشعراء بصورة جليّة على مظاهر الطّبيعة الصامتة في تشكيل صُورهم، فقد صَوَّروا مرثيَّهم بحراً في فضائله وجوده وعِلْمه⁽¹⁾، فهذا ابن فضل الله العمري يُصوِّر ابن تيمية قائلاً⁽²⁾:

بَحْرٌ مِنَ الْعِلْمِ قَدْ فَاضَتْ بِقِيَّتِهِ فَغَاضَتْ الْأَبْحُرُ الْعُظْمَى، وَمَا شَعَرُوا
أَهْكَذَا يُتْرَكُ الْبَحْرُ الْخِضَمُّ وَلَا يُلَوِّى عَلَيْهِ، وَفِي أَصْدَافِهِ الدَّرُّ؟

وَرَسَمَ الْأَدْبَاءُ صُوراً لِلْحَرْبِ مَعَ الْأَعْدَاءِ، فَصَوَّروا الْأَبْطَالَ، بِصُورٍ مُسْتَمَدَّةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَالتَّرَاثِ، هُمُ الْمُجَاهِدُونَ الْعَامِلُونَ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ، وَهُمْ الْمُهَاجِرُونَ لِنُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ⁽³⁾، أَمَّا النَّاصِرُ، فَهُوَ حَامِي هَذِهِ الدِّيَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ الَّذِينَ صَوَّرَهُمْ صَفِي الدِّينِ الْحَلِّيُّ بِالشَّيَاطِينِ فِي قَوْلِهِ⁽⁴⁾:

وَحَرَسْتَ مُلْكَكَ مِنْ رَجِيمٍ مَارِدٍ بَعَزَائِمٍ إِنْ صُلْتَ كُنَّ قَوَاضِباً
حَتَّى إِذَا خَطِفَ الْمُكَافِحُ خَطْفَةً أَتْبَعَهُ مِنْهَا شِهَاباً ثَاقِباً

وَيُصَوِّرُ ابْنُ فَضْلِ اللَّهِ الْعَمْرِيُّ، ابْنَ تَيْمِيَّةٍ، مُسْتَمَدّاً صُورَتَهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَهُوَ فِي سَجْنِهِ وَمَحْنَتِهِ، كَيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي سُجِّنَ ظُلْماً وَافْتِرَاءً، يَقُولُ⁽⁵⁾:

فِي يُوسُفَ فِي دُخُولِ السَّجْنِ مَتَقَبَّةً لِمَنْ يُكَابِدُ مَا يَلْقَى وَيَصْطَبِرُ

وَفِي بَيْتٍ آخَرَ يُصَوِّرُ الشَّاعِرُ أَفْعَالَ السُّلْطَانِ وَسَجْنَهُ لِابْنِ تَيْمِيَّةٍ كَفَعَلَ فِرْعَوْنَ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَقُولُ⁽⁶⁾:

هَلَّا جَمَعْتُمْ لَهُ مِنْ قَوْمِكُمْ مَلاً كَفَعَلَ فِرْعَوْنَ مَعَ مُوسَى لَتَعْتَبِرُوا

وَيَسْتَمَدُّ ابْنُ الْوَرْدِيِّ صُورَهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ عِنْدَمَا صَوَّرَ فَعَلَ النَّصَارَى، وَحَرَقَهُمُ لِلْمَسَاجِدِ وَالْبَيْوتِ، يَقُولُ: "وَضَهَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَيْدِ النَّصَارَى، الضَّالِّينَ

(1) انظر رائد عبد الرحيم، فن الرثاء، ص 390.

(2) الكرّمي، الكواكب الدريّة، ص 184.

(3) انظر الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 91-100.

(4) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 97.

(5) الكرّمي، الكواكب الدريّة، ص 184.

(6) المصدر نفسه، ص 185.

الحَيَارَى...، فَأَخَذَتْهُمُ الْوَلَاةُ بِكُلِّ شَيْبٍ يَجْعَلُ الْوِلْدَانُ شَيْبًا، وَضَرَبَ يُصِيرُ دَمْعَ الْعَيْنَيْنِ صَبِيًا، وَدَمَ الْجَنَيْنِ صَبِيًّا، فَجَعَلُوا وَهُمْ تَحْتَ الْعِقَابِ يَتَشَاتَمُونَ، وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ، وَاشْتَدَّ خِصَامُ الْفَجْرَةِ الْكُفَّارِ، إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ...⁽¹⁾.

ويتجلّى تأثر الأدباء بالصّور التقليدية، في تصوير معركة المسلمين مع أعدائهم، فالمعركة رحي مَوْت، تدورُ على الأعداء، وتُصوّرُ شِدَّةَ القتل والمصير الذي آلَ إليه الأعداء، حتّى لم يَبْقَ لهم بعدها عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ، يقول محمد المنبجي⁽²⁾:

دَارَتْ عَلَيْهِمُ رَحَاءُ الْمَوْتِ فَانْهَزَمُوا فَمَا لَهُمْ بَعْدَهَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ
وَمِنْ مَظَاهِرِ الصُّورِ الشَّعْرِيَةِ التُّرَاثِيَةِ تَصْوِيرُ جَيْشِ الْأَعْدَاءِ بِالْجَرَادِ لِكَثْرَتِهِ، حَتَّى ضَاقَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، يَقُولُ مُحَمَّدُ الْمُنْبَجِيُّ⁽³⁾:

وَضَيَّقُوا الْأَرْضَ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ كَأَنَّمَا هُمْ جَرَادٌ فِيهِ مُنْتَشِرُ
وَمِنْ خِصَائِصِ الصُّورِ الشَّعْرِيَةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَى التُّرَاثِ، تَصْوِيرُ فِرَارِ جَيْشِ الْأَعْدَاءِ مِنْ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ مَهْزُومِينَ، فِي صُورَةٍ حَيَّةٍ سَاخِرَةٍ تُصَوِّرُ هَذِهِ الْجُمُوعَ الَّتِي تَأْمَلُ النِّجَاةَ بِأَنْفُسِهَا، يَقُولُ جَمَالُ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ⁽⁴⁾:

أَيْنَ الْمَقْرُ وَقَدْ حَامَ الْحِمَامُ بِهِمْ هَيْهَاتَ لَا مَلْجَأَ يُرْجَى وَلَا وَزَرَ
وَيَسْتَغْلُ الْأَدْبَاءُ هَزِيمَةَ الْأَعْدَاءِ فِي مَرَجِ الصُّقْرِ، لِيَسْخَرُوا مِنْهُمْ، حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ مَجَالًا وَاسِعًا اسْتَغْلَتْهُ الْأَدْبَاءُ لَشَفَاءِ صُدُورِهِمْ وَصُدُورِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَلَمِ الْهَزِيمَةِ السَّابِقِ، فَهَذَا مَا جَاءَ فِي كِتَابِ السُّلْطَانِ إِلَى غَازَانَ بَعْدَ هَزِيمَةِ جَيُوشِهِ سَاخِرًا مِنْهُ مُتَشَفِّيًا بِجَيُوشِهِ الْمَهْزُومَةِ، يَقُولُ: "وَكَأَنَّ قَدْ خَيَّلْتَ لَكَ نَفْسُكَ أَنَّ جَيُوشَكَ تَعْبُرُ الدِّيارَ الْمِصْرِيَّةَ، صَدَقْتَ، وَلَكِنْ عَلَى غَيْرِ حَالٍ مُرْضِيَةٍ، أَمَّا

⁽¹⁾ ابن حبيب، تذكرة النبیه، ج 2، ص 314.

⁽²⁾ الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 93.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج 9، ص 92.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ج 9، ص 95.

الخيول، ففي أعناقهم الحبال، والسلاسل والأغلال، فعادت مغلّك كالكلاب في أيدي أسود الغاب⁽¹⁾.

وصورهم في موضع آخر، وهم يتدلّلون للسلطان، ويرجونه قائلين: "أعتقنا أيها الملك الرحيم، واعف عنا فإنك حلیم"⁽²⁾.

وسخروا منهم عندما صوروا فلولهم وهزيمتهم، وصوروا قتلهم وقد أصبحت جثثهم طعاماً ومسكناً للوحوش والطيور⁽³⁾، وترامت أجسادهم إمّا قتلى أو جرحى من مكان المعركة إلى بلادهم، ألّبسهم محمد المنبجي ثياب الذلّ الأبدية فلم يعودوا يجرؤون على إعادة الكرة أو محاولة ملاقاتة المسلمين، يقول⁽⁴⁾:

وَأَلْبَسُوا الذِّلَّ حَتَّى إِنَّ أَشْجَعَهُمْ تَأْتِي إِلَيْكَ بِأَلْفٍ مِنْهُمْ نَفَرُوا
غَرَّتْهُمْ فِلْتَةٌ فِي الدَّهْرِ عَنْ غَلَطٍ مِنْهَا فَحَلَّتْ بِهِمْ مِنْ بَعْدِهَا الْعَبْرُ

واستخدم الأدباء أسلوب السخرية، في تصوير الزي الذي فرضه السلطان محمد بن قلاوون على أهل الذمة، مُشَبِّهين هذا الزي تارةً بالنعال الخِقة⁽⁵⁾، وتارةً أخرى بالثياب المصبوغة بأصباغ فضلات الطيور⁽⁶⁾.

يَطْرُقُ الأدباء بابَ السخرية من الأعداء، مُتَّخِذِينَ الألوان وسيلةً للتعبير عن معانيهم، ويكونُ كالمعتاد، اللون الأبيض دليلُ الصِّفاء والنِّقاء، واللون الأسود للظُّلم والظُّلام، يقول الشاعر جمال الدين أبو بكر ساخرًا من الأعداء جاعلاً وجوههم سُود، مُقَابِلَ بياض سيف الناصر⁽⁷⁾:

تَنْشُرُوا فِي الْفَلَا سَوْدَ الْوُجُوهِ وَقَدْ طَوَى بِأَبْيَضِهِ التَّتَارَ مَا نَشَرُوا

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 121-122.

(2) المصدر نفسه، ج 9، ص 120.

(3) المصدر نفسه، ج 9، ص 95.

(4) المصدر نفسه، ج 9، ص 93.

(5) انظر الصفدي، أعيان العصر، ج 5، ص 84.

(6) انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 110.

(7) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 100.

ويقولُ وهو يدعو لجيشِ المسلمين ببياض الوجوه بالنصر، ويُصورُ أيدي الناصر بالأيادي البيض لكثرة عطائه وكرمه⁽¹⁾:

فَبَيْضَ اللَّهِ مِنْهُمْ أَوْجُهًا كَرُمَتْ فَإِنَّهُمْ بِالْأَيْدِي الْبَيْضِ قَدْ غَمَرُوا

واتخذَ الأدباء اللون الأحمر دليلاً على كثرةِ القتلِ والموتِ، هذا ما ذكره علاء الدين بن عبد الظاهر، راسماً صورةً من الألوان، جاعلاً اللونَ الأزرق علامةَ العدوِّ واللونَ الأصفر راية المسلمين، أما الأبيض، فهو الصفاءُ والنصر، يقول: "ووصل السلطان الميدان الأخضر، وقد أذاق العدوُّ الأزرق الموت الأحمر، في يوم السعد الأبيض، بعلم النصر الأصفر"⁽²⁾، ويقول في موضع آخر مُصوراً كثرة قتلِ الأعداء: "هذا والأنهار تُسائرُ ركابه، وقد صُبغت من دماء العدا بأحمر قاني"⁽³⁾.

وكانت الطبيعة مجالاً واسعاً، أمام الأدباء يستمدُّ منها الاديب صورته، فيرسم أجمل صورة ناطقة مؤدية للمعنى المقصود، فهذا الشاعر "شمس الدين الطيبي" يجعل مرج الصفر يزهو بالجمال وكأنه لوحة لفصل الربيع، بعد انتصار المسلمين فيه على أعدائهم، حتى جعل دماء الأعداء تزيّن الغدران فيه على الرغم من كراهية الانسان رؤية الدم، إلا أنه جعل دماء الأعداء جميلة بالنسبة للمسلمين لأنها تعبر عن النصر يقول:

أَزْهَرُ رَوْضِكَ أَزْهَرُ عِنْدَ نَفْثَتِهِ أَمْ يَنْعَاتُ رُؤُوسٍ مِنْكَ تُقْطَفُ
غُدرانُ أرضِكَ قد أضحت لِوَارِدِهَا مَمْرُوجَةً بِدِمَاءِ الْمُغْلِ تُغْتَرَفُ⁽⁴⁾

ويستخدم صفي الدين الحلي الألوان، مُستمدّاً صورته من الطبيعة الجميلة حوله وهي من أهم مصادر الصورة يقول متغزلاً بالحدائق⁽⁵⁾:

مِنْ أَبْيَضَ يَقَقِ وَأَصْفَرَ فَاقِعِ أَوْ أَزْرَقَ صَافٍ، وَأَحْمَرَ قَانِي

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 100.

(2) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1034.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1034.

(4) الصفي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 363.

(5) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 99.

ويبقى السيف هو الأبيض البتار، في صورةٍ مُتوارثة، يقول صفي الدين الحلي⁽¹⁾:

فَصَفُّوا الْقَنَا فِي صَدْرٍ كُلِّ مُدَرِّعٍ وَالْبَيْضَ فِي الْأَبْدَانِ وَالْأَبْدَانِ
حَتَّى إِذَا اسْتَعَرَ الْوَعَى وَتَتَبَّعَتْ بَيْضُ الصَّفَاحِ مَكَامِنَ الْأَضْغَانِ

ومن خصائص الصورة "الحركة" وهي من لوازم الصورة الناطقة المعبرة، وقد تجلّت الحركة، ذات الصورة المتنوعة، لتعطي صورة واحدة متكاملة في كتاب الروض الزاهر، المضيء بالصور التي تشكل لوحة فنية كاملة ناطقة، فالكاتب يرسم لوحة النصر بألوان جميلة حيث يبدأ الكتاب بأول حركة للسلطان "ركب مولانا السلطان"^(2*) ثم يستمر برسم حركة الجيش قائلاً: "فبينما الركاب قد استقلت في السرى، ورقمت في البيداء من أعناق جيادها سطور من قرأها"⁽³⁾ ويتابع قائلاً: "ولما كان من بعد الظهر"⁽⁴⁾ واستمر بتصوير حركة المعركة من البداية إلى النهاية⁽⁵⁾

واستمدَّ الشعراء صورهم من أدوات الزينة، فهذا صفي الدين الحلي يجعلُ شعرَه قلائدًا تُزَيِّنُ النَّاصِرَ بِأَثْمَنِ الْجَوَاهِرِ، يقول⁽⁶⁾:

وَلَمَّا نَظَّمْتُ الشَّعْرَ فِيكَ قَلَائِدًا تَمَنَّتْ نُجُومُ اللَّيْلِ لَوْ أَنَّهَا شِعْرُ
أَمَّا الشاعِرُ جمال الدين أبو بكر، يُصوِّرُ أفعال المغول بالمسلمين، وكأنَّهم قد فَرَطُوا عَقْدَ اجتماعهم، ونثروا حَبَّاتِهِ التي كانت مُنْتَظَمَةً فيه، يقول⁽⁷⁾:

وَمَرْبَعٍ أَقْفَرٍ مِنْ بَعْدِ سَاكِنِهِ وَعَقْدٍ شَمْلٍ نَظِيمٍ جَامِعٍ نَثَرُوا
ويستخدم الأدباء الصُّورَ المُفْرَدة، لتعطي صورة واحدة مُركَّبة، فهذا الدواداري يتحدَّث عن حال أعداء السلطان، وهم يُتابعون أخباره، مُتَمَنِّينَ فشَلَّهُ، ولكنَّهم يُفَاجَأُونَ بما آلَ إليه

(1) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 100.

(2) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1029.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1029.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1030.

(5) انظر المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1030-1039.

(6) المصدر نفسه، ص 380.

(7) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 97.

السُّلْطَان، من الهيبةِ والوقار، يقول: "... فحصلَ له من الذُّلِّ والانكسار، ما ظهرَ عليه وبان، ممَّا لحقَه من هيبةِ مَوْلانا السُّلْطَان، التي شاعت في الأقطار حتَّى أعلَّنتَ بذلك الرُّكْبَان، وتعلَّقت بأجنحةِ العقبان، فخلا بالأفرم وقال له: ما عندكَ مِن أخبارِ مصرِ والسُّلْطَان الملكِ النَّاصر؟ - فقال: أمَّا أنا فقد شغلني شُرْبُ الرَّاح، ورشْفُ الأقداح، ومُغازلةِ المِلاح عن سماعي للأخبار الصَّاح...⁽¹⁾.

هكذا شكَّل الأدياء صورهم بخصائصها المتنوعة، مستمدِّينها من بيئتهم وثقافتهم فكان أدبهم بالفعل، عملاً فنياً جميلاً اعتنى به صاحبه، وتعب عليه كي يخرج به بأجمل صورة.

(¹) الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص 240.

الخاتمة

وبعد، فهذه دراسة تناولت موضوع "صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون في أدب العصر المملوكي الأول"، يُستشفُّ منها أن الشَّعْرَ وَاكْبَ السلطان في حُلِّه وترحاله، وسجِّلَ الأحداث بصدقٍ حتى أصبح له دور، في الكشف عن الأحداث والأشخاص الأبطال، الذي عملوا دون تقصير في مواجهة أعداء الأمة والدِّفاع عن أرض الإسلام وعن المسلمين.

قدَّمت هذه الدراسة لمحة عامة عن ظروف الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عهده، فتبيَّن التهديد والخطر الذي واجهته الدولة في بداية حُكم الناصر إضافة إلى معاناة العامة من تهديد المغول من جهة، ومن عدم استقرار الأوضاع الداخلية من جهة أخرى، حيث السلطان يُعزل ثم يُعيَّن ثم يُعزل ثانية، وترتفع الأسعار وتنتشر المجاعات، ويقلُّ منسوب المياه في النيل، ولم يقف الأدب مكتوفاً، بل تابع الأدباء هذه الأحداث وسجّلوها، في حركة نشطة من الشعراء أو كُتّاب الإنشاء، الذين أفاضوا عواطفهم على نتاجهم الأدبي، وعبروا عما يختلج في صدورهم.

من خلال دراسة وتحليل هذا الأدب، ظهرت صورة السلطان الإيجابية فتمثّلت الشجاعة في مقدمة هذه الصورة، وظهرت جلياً في بداية حُكم الناصر محمد بن قلاوون في معركة مرج الصُّفر، وبعد انتصاره على قوّة كبيرة من الصعب الانتصار عليها، إضافة إلى كون هذا الانتصار قد جاء بعد هزيمة، فكان له أثرٌ واضحٌ في نفوس المسلمين، فسوّروا الناصر بطلاً شجاعاً يخوض غمار المعارك، أسداً يحمي ديار الإسلام، وأعراض المسلمين. وأبانَت الدراسة عن صورة المحبّة التي نالها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والمكانة التي احتلّها في قلوب رعيّته، وظهرت هذه الصورة جلياً من خلال وقوف الرعيّة إلى جانبه في تكرار عزله وعودته إلى الحُكم، مُعبرين عن استيائهم من حُكم غيره، وشوقهم الشديد ولهفتهم للقاءه.

وكشفت الدراسة عن تصوير شخصية السلطان بالشخصية الإسلامية البارزة، التي تجعل القرآن الكريم، والأحكام الإسلامية دُستورَ سلطتها، وتضع مخافة الله أمام أعينها، وتُحافظ على أداء الفرائض والتقرب من الله تعالى بالطاعات.

وكشفت الدراسة عن كفاءة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الإدارية والسياسية، حيث ظهرت قدرته على التعامل مع مَنْ حوله مِنْ الأمراء والموظفين وأهل الذمة في الدولة، ومع مَنْ حوله مِنْ ملوك وأمراء الدول المجاورة، فكان حكيماً ذكياً، بنى علاقات ودّية مع الدول المجاورة، وجعل مهابته تصل إلى أبعد الحدود، واستطاع أن يكسب ودَّ الشعب، ليكون سنداً له، فعَمَلَ الكثير من الإصلاحات، وبيّنت اهتمامه بالبناء والعمارة، فبنى كثيراً من المساجد والمدارس والبيمارستانات والقصور والقلاع وغيرها.

وتتبّعت الدراسة هذا السلطان في مراحل سلطته، من بداية حكمه، إلى أن استطاع تثبيت نفسه في الحكم حتّى استطاعت الكشف عن الجانب السلبي في شخصيته، فصوره الأدب ظالماً، يضربُ بيدٍ من حديد، دون رحمة أو تهاون، فهذا السلطان عانى في بداية حكمه، وتعرّض للخيانة، فأصبح كثير الشكِّ بِمَنْ حوله، يقتل ويفتك فيمن يشك فيهم، دون أن يبحث ويتقصّى عن الحقيقة.

وكشف الأدب عن بعض الشخصيات السلبية، التي عيّنّها السلطان وجعلها حوله، تُنفذُ أوامره، وتُحاول إشباع نهمه في جمع الأموال، وتكديسها، وكل ذلك على حساب الشعب.

وضاق صدرُ الشعب من هذه التصرفات، وقامت بعض الثورات والاحتجاجات وأُرسلت رسائل الشكوى إلى السلطان، التي حاول مَنْ حوله إخفاءها، وإقناع السلطان أنّ مصلحته فوق مصلحة الجميع.

ولكنّ الدراسة كشفت في النهاية، أنّ السلطان استجاب لنداءات الشعب، وعاقبَ تلك الشخصيات التي ضجّر الشعبُ من تصرفاتها، وكشف الأدب ذلك العقاب، وصوره.

ولم تُعَبْ صورة المرأة عن هذه الدراسة، كما لم تُعَبْ عن الأدب، فكشف الأدب إضافة إلى التاريخ، الذي ساند الأدب في عرض الصورة، عن علاقة السلطان بالمرأة، وعن حبّه امتلاك ما بيد غيره حتّى النساء، وعن تعامله مع زوجاته وبناته، فاختلفت الصورة في هذا

الموضوع، فكانت له صورةٌ سلبية ظهرت في تعامله مع من حوله من النساء، وأخرى إيجابية، ظهرت أكثر في تعامله مع زوجاته وبناته قام البحثُ باستقصائها.

وتبيّن من هذا البحث العلاقة الضعيفة بين السلطان والشُعراء، فلم يكن له شعراء بلاط، ولم ينهل الشعراء من عطاياه الكثير، سوى صفي الدين الحلّي، الذي ظهرَ في شعره مدحُ السلطان الناصر، مدحاً يُستشفُّ منه أنّه شاعر متكسّب، راغبٌ في عطايا السلطان. في المقابل نالَ كُتّابُ السُلطان في ديوان الإنشاء اهتمامه وعطاياه والمزيد من الرعاية، على خلاف الشعّر والشُعراء، ولم يكن اهتمام السلطان بكُتّاب الإنشاء، إلا لاهتمامه بديوان الإنشاء، أهمّ دواوين الدولة، ولسان السلطان الناطق.

وعلى المستوى الفنّي، فقد تناولت الدراسة أهمّ السمات الفنّية للأعمال الأدبية بالتحليل، فتبيّن أنّ الأدباء حرصوا على إتقان الأدب شعراً ونثراً، من حيث: بنية العمل الأدبي، واللغة، والأساليب والصورة الفنّية، وقد تبيّن أن الأدباء حافظوا على بناء العمل الأدبي من حيث المقدمة والعرض والخاتمة، دون أن تمنعهم تلك المحافظة من التعبير عمّا يجول في صدورهم من معانٍ.

وتؤكد الدراسة محافظة الشعراء الذين صوروا تلك الفترة على الصورة الأصلية للشعر العربي، مع بعض التجديد لبعض المعاني والصُّور، التي فرضتها ظروف الحياة وأحداثها، خاصة المعاني الدينية التي اهتم الأدباء بإظهارها، وتصوير السلطان بها لمدحه، فكانت صورة الأنبياء والخلفاء حاضرة في أذهانهم، وكان التناص الديني أول أشكال التناص، حيث كانت ثقافة الأدباء الدينية، وإطلاعهم الواسع، وحفظهم للقرآن الكريم من أهم الركائز التي اعتمد عليها أدباء ذلك العصر، وكان مادة أغنت الأدب، وأثرت المعاني والألفاظ.

وتؤكد استخدام الأدباء البديع في أعمالهم، وحرصهم -خاصّةً كُتّاب النثر- على إظهار براعتهم اللّغوية والكتابية، سعياً لإرضاء السلطان، كي يستمرّوا في وظائفهم في ديوان الإنشاء،

فأخذوا بتزيين ألفاظهم، وتكوين موسيقى داخلية في النص، وتبيّن أن ذلك أغنى المعنى، وأطرب القارئ ولم يؤثر على المعنى المقصود في معظم الأعمال الأدبية.

ووجدت الدراسة مطابقة الأدب للتاريخ، وأن كلاً منهما سندٌ للآخر، مُتمّمٌ له، لا ينفصل عنه.

وأخيراً أثبتت الدراسة الدور المهم الذي أدّه الأدباء في كلمتهم شعراً ونثراً، في الدفاع عن بلاد المسلمين، والوقوف إلى جانب القائد المسلم المخلص، وحثّ الجميع، حُكّاماً وجيشاً ورعيّة، على وجوب الوقوف في وجه الطُّغاة، ومواجهة تعديهم، وتذكيرهم الدائم بموالاته الله لهم، طالما كانوا من أوليائه الصالحين.

ووقف الأدب إلى جانب الشعب، وكان لسان الشعب الناطق يستطيع محاكاة الحُكّام، والتأثير على قراراتهم.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

القرآن الكريم.

ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين بن محمد الموصلي، ت 637هـ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1359هـ.

إسماعيل اليوسف، الشعراء والعُشَّاق، (الأخطل شرح ديوانه ونبذة عن حياته)، دار الكتاب العربي، دمشق - سوريا.

ابن أبي الأصبع المصري، عبد العظيم عبد الواحد بن ظافر القدواني، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق الدكتور حنفي محمد شرف، لجنة إحياء التراث العربي القاهرة، 1383هـ.

امرؤ القيس، بن حجر الكندي، الديوان، شرح محمد الإسكندراني ونهاد رزوق، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، 1378هـ.

ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي، ت 930هـ، بدائع الزهور في وقائع الزهور، الجزء الأول، القسم الأول، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1402هـ.

البُخاري، أبو عبد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي، ت 256هـ، الصحيح، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت 1413هـ.

ابن بطوطة، محمد بن إبراهيم اللواتي، رحلة ابن بطوطة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1384هـ.

البخاري، ط 2، حققه وقَدَّم له وعلَّق عليه: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، 1399هـ.

بيبرس المنصوري- ركن الدين الخطائي، مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ، حققه وقَدَّم له عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1413هـ.

البیهقي، أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين بن علي، ت 458هـ، السنن الكبرى، دار المعرفة، بيروت.

الترمذي- الإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.

ابن تغري بردي- جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي، ت 874هـ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، حققه ووضع حواشيه: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1404هـ.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، مكتبة المرحوم محمد عزة درؤزة، القاهرة، 1369هـ.

أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ت 231هـ، شرح ديوان أبي تمام شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، 1384هـ.

ابن تيمية، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم، ت 728هـ، مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد أبو بكر، الإيجاز شرح كتاب دلائل الإعجاز، صحَّه وعلَّق عليه: أحمد مصطفى المراغمي بك، دار المكتبة العربية، الطبعة الأولى، 1370هـ.

ابن الجزري، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر القرشي، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري، ت 738هـ، اعتنى بتحقيقه الدكتور عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت.

ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن، بن عمر الحلبي الدمشقي، ت 779هـ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، حققه ووضع حواشيه الدكتور محمد أمين، راجعه وقدم له سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، 1396هـ.

المنتقى من دُرّة الأسلاك في دولة ملك الأتراك في تاريخ حلب الشهباء، تحقيق عبد الجبار زكار، تقديم الأستاذ الدكتور سهيل زكار، الطبعة الأولى، دار الملاح، 1420هـ.

ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي الأزراري، ت 837هـ، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، ت 852هـ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه وقدم له ووضع فهرسه محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1386هـ.

الحصني، تقي الدين أبو بكر بن محمد الشافعي الأشعري الدمشقي، ت 829هـ، دفع شبه عن تشبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد الجليل الإمام أحمد، تحقيق وتعليق عبد الواحد مصطفى، دار الرازي، دار المصطفى، عمان، 1425هـ.

ابن خلدون، عبد الرحمن الغزي، ت 808هـ، تاريخ العلامة ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة صرامة، الدكتور سهيل زكار، مركز التوثيق والمخطوطات والنشر، ط 1، 1401هـ.

ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدير العلاني، ت 809هـ، **الجواهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين**، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة الدكتور أحمد السيد دراج، المكتبة العربية السعودية، جامعة أم القرى.

الدوادي، أبو بكر بن عبد الله بن أبيك، **كنز الدرر وجامع الغرر**، الجزء الثامن الدرّة الزكيّة في أخبار الدولة التركيّة، تحقيق أولدخ هارمان، قسم الدراسات الإسلامية، القاهرة، 1391هـ.

كنز الدرر، الجزء التاسع وهو الدرّ الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق روبرت رومر، قسم الدراسات الإسلامية، القاهرة.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت 748هـ، **ديوان العبر في خبر من غبر**، حقّقه وضبطه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.

ابن رشيّق القيرواني، أبو علي الحسن الأزدي، ت 456هـ، **العمدة في محاسن الشّعْر وآدابه ونقده**، حقّقه وفصلّه وعلّق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت-لبنان، الطبعة الرابعة، 1392هـ.

السّيوطي، جلال الدّين عبد الرحمن بن محمد بن عثمان، ت 911هـ، **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، وَضَعَ حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1417هـ.

المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وضبطه وعلّق حواشيه جماعة، ج1، ط1.

الصّدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، ت 764هـ، **الوافي بالوفيات**، ط 2، الجزء الرابع باعتناء س. ريديرينغ، دار النّشر فرانز شتاينر بفيسبان، 1394هـ.

أعيان العصر وأعوان النصر، حقّقه د. علي أبو زيد، و د. نبيل أبو عمشة، ود. محمد موعد، و د. محمد سالم محمد، قدّم له: مازن عبد القادر المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط الأولى، 1418هـ.

صفيّ الدّين الحلّي، عبد العزيز بن سرايا، الديوان، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1382هـ.

ابن طباطبا العلوي، محمد بن أحمد، عياد الشّعْر، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1956م.

عبد السلام هارون، المعجم الوسيط، أخرجه جماعة، مطبعة مصر، 1380هـ.

ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد، العقود الدريّة في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1390هـ.

ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحيّ بن أحمد الحنبلي الدمشقي، ت 1089هـ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عن نسخة المصنّف المحفوظة في دار الكتّاب المصريّة، دار الميسرة، بيروت، طبعة ثانية منقّحة، 1399هـ.

عمر بن علي البزار، الحافظ البغدادي، سراج الدين أبو حفص، الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، المكتب الإسلامي، بيروت، 1399هـ.

العيني، بدر الدّين محمود، ت 855هـ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان (عصر سلاطين المماليك)، حقّقه ووضع حواشيه الدكتور محمد أمين، الهيئة المصريّة العامة لكتاب، القاهرة، 1407هـ.

الغزولي، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي، ت 815هـ، مطالع البُذور ومنازل السُرور، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة 1419هـ.

أبو الفداء، عماد الدّين إسماعيل، ت 732هـ، المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان.

القزويني، جلال لادين أبو عبد الله محمد بن قاضي العناة، الإيضاح في شرح علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع، مختصر تلخيص المفتاح، مكتبة النهضة.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، ت 821هـ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الطبعة الأولى شرحه وعلّق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1407هـ.

الكتبي، محمد بن شاكر، ت 764هـ، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1974م.

ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي، ت 774هـ، البداية والنهاية، دقّق أصوله وحقّه د. أحمد أبو ملحّم و د. علي نجيب عطوي والأستاذ فؤاد السيد والأستاذ مهدي ناصر الدين والأستاذ علي عبد السّاتر.

الكرمي، مرعي بن يوسف الكرمي، ت 1033هـ، الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، تحقيق وتعليق: نجم عبد الرحمن خلف، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1406هـ.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1419هـ.

المتنبّي، أبو الطيّب أحمد بن الحسين، ت 354هـ، ديوان المتنبّي، دار إحياء التراث، بيروت، 1388هـ.

المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت 845هـ، السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه، محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1390هـ.

المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئزيّة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة.

المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1411هـ.

ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري، ت 711هـ، **لسان العرب**، مكتبة تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1413هـ.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري، **مجمع الأمثال**، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، 1421هـ.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت 733هـ، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، الجزء الحادي والثلاثون، تحقيق: د. الباز العريني، مراجعة: د. عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1412هـ.

نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الثاني والثلاثون، تحقيق: الأستاذ: فهميم محمد علوي شلتوت، مراجعة: د. عبد العزيز الأهواني و د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1418هـ.

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، ت 395هـ، **الصناعتين الكتابة والشعر**، حققه وضبط نصّه الدكتور: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، 1409هـ.

جمهرة الأمثال، حققه وعلّق حواشيه ووضع فهارسه: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، دار الجليل، بيروت.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، ت 749هـ، **تتمّة المختصر في أخبار البشر المسمى تاريخ ابن الوردي**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416هـ.

ديوان ابن الوردي، حققه وعلّق عليه وجمع ملحقه، أحمد فوزي الهيّب، دار القلم، الكويت، 1407هـ.

اليازجي، ناصيف اليازجي، **العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيّب**، صوّب نصوصه وضبطها وقدم له الدكتور: محمد فاروق الطّبّاع، دار القلم، بيروت-لبنان.

اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى، ت 759هـ، **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**، تحقيق ودراسة: د. أحمد حطيط، بيروت، عالم الكتب، ط الأولى، 1406هـ.

المراجع الحديثة

إبراهيم السامرائي، **لغة الشعر بين جيلين**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1400هـ.

إحسان عباس، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، 1398هـ.

أحمد الشايب، **الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1408هـ.

بهاء حسب الله، **في الأدب المملوكي**، دراسات في السير وتحليل النصّ الأدبي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 1426هـ.

البهبهتي، راجح نجيب محمد، **أبو تمام الطائي حياته وحياته شعره**، دار الثقافة، المغرب.

حسين علي لوباني، **معجم الأمثال الفلسطينية**، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، 1410هـ.

حياة ناصر الحجّي، **السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوفاء في عهده مع تحقيق ودراسة وثيقة وقف سرياقوس**، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، 1403هـ.

نفسه، **أحوال العامة في حكم المماليك 678-784هـ**، دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الطبعة الأولى، الكويت، 1404هـ.

رائد مصطفى حسن عبد الرحيم، **فنّ الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي**، دار الرازي، عمان-الأردن، 1421هـ.

زين العابدين بن شمس الدين نجم، **معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية**، الطبعة الأولى، 1425هـ.

سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1396هـ.

شوقي ضيف، **عصر الدول والإمارات**، دار المعارف، القاهرة، 1980م.

عبد العزيز قفيلة، **النقد الأدبي في العصر المملوكي**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1392هـ.

عبد الرحمن الشراقوي، **ابن تيمية الفقيه المعذب**، دار الشروق، القاهرة، 1410هـ.

عبد القادر الرباعي، **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**، جامعة اليرموك، اربد-الأردن، 1400هـ.

عمر موسى باشا، **أدب الدول المتتابعة عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك**، دار الفكر العربي، 1387هـ.

الأدب في بلاد الشام، المكتبة العباسية، دمشق، 1392هـ.

ابن نباتة المصري **أمير شعراء المشرق**، دار المعارف، القاهرة، 1412هـ.

فوزي محمد أمين، **أدب العصر المملوكي الأول**، ملامح المجتمع المصري، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1422هـ.

المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، دار المعارف، القاهرة، 1403هـ.

قاسم عبده قاسم، **في تاريخ الأيوبيين والمماليك**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، 1426هـ.

أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية دولة المماليك، دراسة وثقافية،
عين للدراسات، القاهرة، 1422هـ.

مأمون فريز جرار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع إلى القرن
التاسع الهجري، مكتبة الأقصى، عمان، 1403هـ.

مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، الطبعة
الأولى، 1416هـ.

محمد ألتونجي، المعجم الذهبي في الدخيل على العربي، عربي-عربي، مكتبة لبنان، بيروت،
1429هـ.

محمد بركات حمدي أبو علي، بحوث ومقالات في البيان والنقد الأدبي، دار البشير، عمان،
1408هـ.

محمد بهجة البيطار، حياة شيخ اسلام ابن تيمية، المكتب الإسلامي، دمشق، 1392هـ.

محمد بيومي، قصص القرآن الكريم، مكتبة الإيمان بالمنصورة، الطبعة الأولى، 1419هـ.

محمد عبد المطلب، بناء الأسلوب في شعر الحداثة التكوينية البديعي، دار المعارف، القاهرة،
1415هـ.

محمد كامل الفقي، الأدب في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1396هـ.

محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار
البيضاء، 1406هـ.

محمد مفيد الخيمي، أبو تمام بين أشعاره وحماسه، مؤسسة الخافقين، دمشق، 1402هـ.

محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب ومطبعاتها
بالجماميز، 1384هـ.

ليديا وعد الله، التناصّ المعرفي في شعر عزّ الدين المناصرة، دار مجدلاوي، عمان، 1424هـ.

الرسائل الجامعية

جلال يوسف حسن العطاري، النثر الفني في العصر المملوكي الأول 648-784هـ، إشراف الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1415هـ.

ذكريات سليمان موسى الحمامرة، صدى الغزو المغولي في النثر الفني العربي من القرن السابع الهجري حتى أوائل القرن التاسع الهجري، إشراف الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1416هـ.

رائد مصطفى حسن عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي-العصر المملوكي، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1417هـ.

سلطانة بنت ملاح الرويلي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، تأليف شمس الدين الشجاع (ت 745هـ/1344م)، دراسة وتحقيق وإشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر خريسات، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1428هـ.

فادي عبد الرحيم محمود عودة، الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز، إشراف الدكتور رائد مصطفى عبد الرحيم، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، 1430هـ.

المجلات العلمية

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، "رشف الرحيق في وصف الحريق"، "البلقاء للبحوث والدراسات"، مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة عمان الأهلية، الاردن، المجلد الثالث، العدد الأول الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، نيسان، 1415هـ.

**An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies**

**Alsultan Alnaser Mohammad bin
qalawoon 693_741 AH in the literature
of the first al _mamloke era**

**By
Manal Ahmad Khalil Abu baker**

**Supervision
Dr. Ra'ed Mustafa AbduAlrahim**

**This thesis is submitted in partical fulfillment of the requirements
for the degree of master of Arabic.Faculty of graduate studies an-
Najah national university ,Nablus ,Palestine.**

2012

**Alsultan Alnaser Mohammad bin qalawoon 693_741 AH in the
literature of the first al _mamloke era**

By

Manal Ahmad Khalil Abu baker

Supervision

Dr. Ra'ed Mustafa AbduAlrahim

Abstract

This study addressed “The image of sultan al-Nasir Muhammad ibn Qalawun (693-741 AH) in the literature of the first Mamluk era”. The importance of this study has stemmed from the important role played by this sultan in maintaining the country of Muslims during a crucial stage in Islamic history; where he overcome a large force for as long as Muslims suffered from its conquer injustice, authoritarian, and domination on them and their country. Nasir Muhammad came and defeated this force at the Battle of Marj Al-Suffar that history recorded, and thus Muslims have enjoyed safety and security a long period of time.

My desire to study literature and my enjoyment in the poetry and prose of that era, have led me to search for a subject of literary worth studying. My professor directed me toward this subject, and so I began to collect references and sources, and search the literature’s poetry and prose, till I found a literary group from which image of sultan Muhammad ibn Qalawun can be enclosed and extracted.

I found a significant number of previous studies on the poetry and prose of this era, but they do not address the image of al-Nasir Muhammad ibn Qalawun in particular, despite his importance and impact. So, this study

came to reveal this character, and devise its positive and negative images through the literature. I have been adopted on the integrative approach in the completion of this study.

My study shows that scholars of Mamluk era have followed sultan al-Nasir Muhammad in his residence and traveling, and described him in peace and war, in delight and sadness, and in his lifetime and after his death. They described him in two images, one positive and the other negative.